الأدب العباسي الأول

السنة ١٥٥٢

جمع الدكتور : عبد الهادي السوسي

يطلب من خدمة الطالب

أولاً: العوامل المؤثرة في الأدب في عصر العباسيين الأول:

العصر العباسي: هو الحقبة الزمنية التي تمتد من سنة (١٣٢هـ) إلى سنة (٦٥٦هـ)، وهو عصر طويل، ولذلك قسمه الدارسون إلى عصرين، ومنهم من قسمه إلى أربعة عصور، ولكن التقسيم المشهور والمتداول بين الدارسين هو تقسيمه إلى عصرين، هما:

١. العصر العباسي الأول، ويبدأ من سنة (١٣٢هـ)، حتى سنة (٣٣٤هـ).
٢. العصر العباسي الثاني، ويبدأ من سنة (٣٣٤هـ)، حتى سنة (٦٥٦)، وينسب هذا العصر إلى العباسيين الذين تولوا الخلافة بعدما أسقطوا حكم الأمويين سنة (١٣٢هـ).

ويطلق الدارسون على ما أنشئ من شعر ونثر في هذه الحقبة الزمنية الممتدة من سنة (١٣٢هـ) حتى (٦٥٦هـ): «**الأدب العباسي**».

وهو أدب كثير، متنوع الفنون والأغراض الموضوعات، متعدد البيئات، مختلف الاتجاهات، متباين في المستويات الفنية.

وقد تأثر الأدب في العصر العباسي الأول بعدة عوامل كثيرة أدت إلى رقيه وازدهاره، ولعل أبرزها ما يأتي:

١. **تشجيع الخلفاء وولاتهم ووزرائهم للأدباء والعناية بهم.**

ظهرت عناية خلفاء بني العباس بالأدب والأدباء واضحة، فهم عربٌ خُلَّص يحبون الأدب البليغ، ويتأثرون به، ولذلك حرصوا على رواية الشعر وطربوا لسماعه وقربوا الشعراء، وبذلوا لهم أجزل العطاء لقاء ما قالوه فيهم من مدائح بليغة حتى صار كثير من الشعراء في حالة من الغنى بعدما كان بعضهم يعيش في حياة الفقر والبؤس، ومن الأمثلة على عناية العباسيين بالأدب ما يأتي:

أ. **يروى أن أبا دلامة أنشد المنصور، قوله:**

لَوْ كَانَ يَقْعُدُ فَوْقَ الشَّمْسِ مِنْ كَرَمٍ ... قَوْمٌ، لَقِيلَ اقْعُدُوا يَا آلَ عَبَّاسِ
ثُمَّ ارْتَقُوا فِي شُعَاعِ الشَّمْسِ كُلُّكُمُو ... إِلَى السَّمَاءِ فَأَنْتُمْ أَطْهَرُ النَّاسِ
وَقَدِّمُوا الْقَائِدَ الْمَنْصُورَ رَأَسَكُمُو ... فَالْعَيْنُ وَالْأَنْفُ وَالْأُذْنَانِ فِي الرَّاسِ

فأطربه وهزّ أريحيته، فقال له: بأي شيء تجد أن نعينك؟!

قال أبو دلامة: تملأ هذه الخريطة دراهمَ، فملئت فوسعت أربعة آلاف درهم.

ب. **ومن ذلك ما فعله المهدي مع سلم الخاسر حين دخل عليه، وأنشده قوله فيه:**

أَلَيْسَ أَحَقَّ النَّاسِ أَنْ يُدْرِكَ الْغِنَى مُرَجَّى أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ وَسَائِلُهْ
لَقَدْ بَسَطَ الْمَهْدِيُّ عَدْلاً وَنَائِلاً كَأَنَّهُمَا عِدْلُ النَّبِيِّ وَنَائِلُهْ

فقال: أما ما ذكرت من الجود، فو الله ما تعدل الدنيا عندي خاتمي هذا، وأما العدل؛ فإنه لا يقاس برسول الله ﷺ أحد فيه، وإني لأتحراه جهدي، ثم أمر له بعشرة آلاف درهم، وعشرة أثواب، ثم دخل عليه بعدها وأنشده قوله:

إِنَّ الْخِلاَفَةَ لَمْ تَكُنْ بِخِلاَفَةٍ حَتَّى اسْتَقَرَّتْ فِي بَنِي الْعَبَّاسِ
شُدَّتْ مَنَاكِبُ حُكْمِهِمْ بِخَلِيفَةٍ كَالدَّهْرِ يَخْلِطُ لِينَهُ بِشِمَاسِ

فأمر له بعشرين ألف درهم، وعشرين ثوباً.

ج. ومن خلفاء بني العباس الذين كانت لهم عناية قوية بالأدب: هارون الرشيد، فقد كان أديباً ذواقة، يتأثر بالشعر وينظمه.

- ومن موافقه المذكورة مع الشعراء، موفقه مع مروان بن أبي حفصة، فقد مدحه مروان بقصيدة، منها قوله:

وَسُدَّتْ بِهَارُونَ الثُّغُورُ فَأُحْكِمَتْ بِهِ مِنْ أُمُورِ الْمُسْلِمِينَ الْمَرَائِرُ
وَكُلُّ مُلُوكِ الرُّومِ أَعْطَاهُ جِزْيَةً عَلَى الرَّغْمِ قَسْراً عَنْ يَدٍ وَهُوَ صَاغِرُ
تَرَى حَوْلَهُ الأَمْلاَكَ مِنْ آلِ هَاشِمٍ كَمَا حَفَّتِ الْبَدْرَ النُّجُومُ الزَّوَاهِرُ

فأعطاه خمسة آلاف دينار، وكساه، وأمر له بعشر من رقيق الروم.

د. وكان المتوكل من الأجواد الممدوحين، وله مع الشعراء مواقف كثيرة، أفاض عليهم فيها من بحار جوده الغزيرة.

- ومن أولئك الشعراء: البحتري، الذي كان من أقرب الشعراء إليه.

ومن وجوه عناية الخلفاء بالأدب:

- إحياء الشعر القديم.

ومن الشواهد على ذلك ما ذكره اليزيدي، قال: قال المأمون يوماً في مجلس وعنده جماعة من قريش: أيكم يحفظ أبيات عبد الله بن الزبعرى، التي يعتذر فيها إلى رسول الله ﷺ؟

فقال مصعب بن عبد الله بن الزبعرى: أنا يا أمير المؤمنين، فقال أمير المؤمنين: فأنشدنا. فأنشد:

مَنَعَ الرُّقَادَ بَلاَبِلٌ وَهُمُومُ وَاللَّيْلُ مُعْتَلِجُ الرِّوَاقِ بَهِيمُ

مِمَّا أَتَانِي أَنَّ أَحْمَدَ لَامَنِي فِيهِ، فَبِتُّ كَأَنَّنِي مَحْمُومُ

ويشارك الخلفاء في العناية بالأدب والأدباء عدد من الأمراء والوزراء، ومن الأمثلة على ذلك ما فعله يحيى بن خالد مع إبراهيم بن العباس الموصلي، إذا أعطاه خمسين ألف درهم؛ لأنه ذكره في الأبيات التي مدح بها الرشيد، وهي قوله:

أَلَمْ تَرَ أَنَّ الشَّمْسَ كَانَتْ مَرِيضَةً فَلَمَّا أَتَى هَارُونُ أَشْرَقَ نُورُهَا

تَكَسَّبَتِ الدُّنْيَا جَمَالاً بِمُلْكِهِ فَهَارُونُ وَالِيهَا وَيَحْيَى وَزِيرُهَا

وكذلك ما فعله خالد بن برمك مع بشار بن برد، حين أشاد به وبموقفه مع طالبي العطاء الذين كانوا يُسَمّون بالسُّؤَّال. فسماهم الزوار، وذلك في قوله:

وكان ذوو الآمال يُدْعَوْن قبله بلفظ على الإعدام فيه دليل

يُسَمَّوْن بالسُّؤَّالِ في كل موطن وإن كان فيهم نابه وجليل

فسماهم الزوار سترا عليهم فأستاره في المجتدين سدول

فأمر له خالد بألف درهم لكل بيت، وأخذ يعطيه كل ما وفد عليه خمسة آلاف درهم، وأحيانا أكثر من ذلك.

وممن كان له عناية بالأدب من الوزراء، محمد بن عبد الملك الزيات، فقد كان أديباً شاعراً، ومن عنايته بالأدباء موقفه مع الجاحظ الذي أهدى إليه كتاب الحيوان، فأعطاه خمسة آلاف دينار، ولذلك كان لهذه العناية والرعاية من قبل الخلفاء، وأمرائهم، ووراثهم=أثرها الكبير في ازدهار الأدب ورقيّه!

٢. الأندية والمجالس الأدبية:

ظهرت في العصر العباسي الأول أندية ومجالس كثيرة بسبب ما حدث في تنافس بين الخلفاء والأمراء والوزراء، وأصحاب المكانة العالية على تقريب الأدباء والعلماء، وحرص كل منهم على استقلاله بمجلس يجمع أصحاب المكانة العالية في العلم والأدب، وكانت قصور الخلفاء من نوادي الأدب، والعلم العظيم؛ إذ كان الخلفاء يستقبلون فيها العلماء والأدباء، ويديرون هذه المجالس، ويوجهون النقاش فيها في المسائل المختلفة، وقد استهوت هذه الأندية والمجالس الشعراءُ والأدباءُ فحرصوا على الولوج إليها لأنها تحقق لهم ما يبتغون، وإلى جانب قصور الخلفاء كانت لبعض الأمراء والوزراء وبعض علية القوم مجالس أدبية يتناشدون فيها الأشعار، ويدور النقاش فيها حول مسائل العلم والأدب المختلفة.

كما كانت المساجد تضم بعض المجالس الأدبية، حيث كان الشعراء يختلفون إليها، وينشدون فيها أشعارهم، بل إن بعضهم كانت له حلقة في تلك المساجد ينشد فيها شعره، والناس يجتمعون حوله ويسمعون ما يقول، مثل: بشار بن برد، الذي كان يجلس في مسجد الرصافة في الليل، ويجتمع حوله كثير من الناس يحدثهم وينشدهم شعره.

ومن القضايا الأدبية التي كان يدور النقاش حولها في تلك المجالس: قضية القديم والجديد في الأدب، وغير ذلك من قضايا الأدب.

* * *

ومن نماذج ما كان يدور في تلك المجالس والأندية الأدبية، ما يأتي:

- قيل إن أصحاب المأمون اجتمعوا يوماً عنده، فأفاضوا في ذكر الشعر والشعراء، فقال بعضهم: أين أنت يا أمير المؤمنين من مسلم بن الوليد [1]؟! قال: حيث يقول ماذا ؟

قال: حيث يقول وقد رأى رجلاً:

أرادوا ليخفوا قبره عن عدوه ... فطيب تراب القبر دلّ على القبر

وحيث مدح رجلاً بالشجاعة فقال:

يجود بالنفس إذ ضنّ الجواد بها ... والجود بالنفس أقصى غاية الجود

- وقيل: إن الشعراء اجتمعوا في مجلس المعتصم فقال لهم: من كان منكم يحسن أن يقول مثل قول منصور النمري في الرشيد:

إن المكارم والمعروف أودية ... أحلك الله فيها حيث تجتمع

إذا رفعت امرءا فالله يرفعه ... ومن وضعت من الأقوام متضع

فقال محمد بن وهيب الحميري: فينا من يقول خيراً منه، فأنشد:

ثلاثة تشرق الدنيا ببهجتهم ... شمس الضحى وأبو إسحاق والقمر

فالشمس تحكيه في الإشراق طالعة ... إذا تقطع عن إدراكها النظر

والبدر يحكيه في الظلماء منبلجاً ... إذا استنارت لياليه من الغرر

فهشّ له وبالغ في جائزته.

---

(١) وهو المشهور بـ(صريع الغواني).

٣. الأسواق الأدبية:

ومن الأسواق التي كان لها تأثير كبير في الحياة الأدبية في العصر الأول: «سوق المربد»، وهو سوق كبير ظهر في الإسلام، وحل محل «سوق عكاظ»، الذي كان سوقاً أدبيا في الجاهلية، وكان الرواة الأعراب يفدون إلى هذا السوق من أماكن مختلفة، ويأتي إليه الرواة العلماء يفدون إلى هذا السوق من أماكن مختلفة، ويأتي إليه الرواة والعلماء يدونون ما يسمعون منهم، والشعراء والكتاب الحضريون ليتعلموا فصاحة الأعراب، وليأخذوا منهم الأدب، وهذا يختلف عما كان عليه السوق في عصر الأمويين حيث كان يقصده الشعراء للمهاجاة، وممن تعلم الفصاحة شفاها في هذا السوق: «الجاحظ»، وممن قصده من الشعراء: «بشار بن برد»، و«أبو نواس»، وغيرهم.

وبهذا نرى أن هذا السوق قد اكتسب محنى جديداً، وهو المنحى التعليمي الذي تمثل في تعلم الشعراء والأدباء فيه من الفصاحة والأدب، وفي تدوين العلماء والرواة ما كان يرويه العلماء من شعر وأخبار وغريب في صحفهم.

وهناك سوق آخر لم يكن ما كان للمربد من شأن، وهو سوق «كناسة» الذي أنشأه الكوفيون ليكون كسوق المربد في البصرة، وكان يجتمع في هذا السوق الأدباء والشعراء.

٤. ازدهار الحركة العلمية والفكرية.

ازدهر العلم في عصر العباسيين الأول ازدهاراً واسعاً، ومما ساعد على ذلك:

١ – دعوة الإسلام إلى العلم.

٢ – وحثه على التدبر والتفكر.

كما كان لتشجيع الخلفاء للعلم والعلماء أثرٌ قويٌّ في ذلك، إذا كانوا يبالغون في إكرام العلماء والأدباء ويجالسونهم، وصار العلم والأدب وسيلة إلى المناصب العالية، والنفوذ والجاه.

وكان كل من نبغ في العلم أو شهر بالأدب ترفع منزلته، ويتنافس العظماء في تكريمه.

وقد كثرت في هذا العصر أماكن التعليم كالكتاب الذي كان يتعلم فيه الصبيان القرآن الكريم وشيئا من الحساب وبعض الأشعار والأمثال.

وفي بعض الكتاتيب يضاف إلى ذلك السنن والفرائض والنحو والعروض.

وكاتب المساجد جامعات مفتوحة تقام فيها حلق العلم في أوقات مختلفة.

وقد بدأ ذلك منذ عهد الرسول ﷺ.

ومما ساعد على انتشار العلم، ونشاط الحركة الفكرية تلك المجالس التي كانت تعقد للمناظرة في قصور الخلفاء وبعض الدور، وتناقش فيها المسائل المختلفة، ومما ساعد على نشاطها تشجيع الخلفاء لها بالمشاركة فيها وتأييد بعض المتناظرين، ومعارضته بعضهم الآخر، وكان المأمون من أكثر من خلفاء بني العباس بالمناظرة.

وكذلك ظهور الخلافات بين أصحاب المذاهب الفقهية، وبين أهل الرأي، وأهل الحديث، كما كان التباين في الآراء والاتجاهات الفكرية والمنهجية بين البصريين والكوفيين والحجازيين والعراقيين والمصريين=عاملاً مساعداً على احتدام المناظرات.

ومما ساعد على ازدهار الحركة العلمية والفكرية انتشار المكتبات، وكان لنشاط حركة التأليف في العصر العباسي أثر كبير في انتشارها، وفي ظهور حرفة الوراقين.

ومن أشهر المكتبات «بيت الحكمة» أو «خزانة الحكمة» التي أسسها الرشيد، ثم نماها من بعده ابنه المأموت، وغيرها مكتبات أخرى كثيرة، خاصة وعامة.

وقد أدت تلك العوامل إلى ازدهار حركة العلم والفكر وظهور علوم كثيرة، أبرزها: علم «تدوين الحديث»، و«تفسير القرآن، وعلومه»، كالوقف والابتداء، وعلوم «اللغة»، و«جمع الشعر»، وكذلك الكتابة في «السيرة النبوية»، و«مغازي الرسول ﷺ»، كما عند «ابن إسحاق»، و«ابن هشام»، و«الواقدي»، وكذلك «تدوين علم الأنساب»؛ «لابن الكلبي»، كما ظهر في هذا العصر علماء كبار في فنون العلم المختلفة، ففي علوم الشريعة نجد: «أبا حنيفة»، و«مالكاً»، و«الشافعي»، و«أحمد»، وفي علوم اللغة والأدب نجد: «المفضل الضبي»، و«الأصمعي»، و«ابن قتيبة»، و«المبرد»، و«سيبويه»، وهكذا نرى أن العصر العباسي الأول كان أزهى عصور العلم، وقد تأثر الأدب بهذا النشاط تأثراً عميقاً جعله ينمو ويزدهر في جميع جوانبه.

٥. التأثر بألوان الثقافة والحضارة.

اتسعت الدولة العباسية، وضمت كثيراً من البلدان التي اختلفت فيها اللغات والأجناس، وقد أدى ذلك امتزاج تلك الأجناس تحت ظلّ حكم العباسيين امتزاجاً قوياً، نتيجة الاتصال والتعامل، والزواج والمصاهرة، وكان للإسلام في هذا الامتزاج بين هذه الشعوب المختلفة؛ إذ ألف بين القلوب وجمعها على المودة والإخاء، وبث بينها روح التعاون والمحبة، والأجناس التي تألفت منها الدولة العباسية هي:

أ. العرب، وقد ضعف نفوذهم السياسيّ في هذا العصر.

ب. الفرس، وهم عماد نظام السياسة الإدارة في دولة العباسيين.

ج. الأتراك، الذين قربهم المعتصم، وقضوا على نفوذ العرب والفرس وعلا شأنهم.

د. الروم. وقد كثر الأسارى منهم في قصور الخلفاء، وبيوت الأثرياء.

ه. الزنج، وهؤلاء كان يؤتى بهم من سواحل إفريقية للعمل في الزراعة والصناعة والحراسة وغير ذلك.

وقد تنوعت واختلف اثقافات وحضارات تلك الأجناس التي امتزجت في العصر العباسي الأول، وكانت الثقافة العربية الإسلامية هي العالية والذائعة، وهي أساس التكوين العقلي.

وأهم شيء أثر في الفكر الإسلامي وكان المورد الأول للناس جميعاً، وقوام هذه الثقافة هو: علوم الدين واللغة والأدب وما يتصل بها من علوم ومعارف، ويلي الثقافة العربية الثقافية الفارسية التي انتشرت انتشاراً واسعاً في عصر العباسيين الأول، ويرجع ذلك إلى جد الكتاب والوزراء الفرس في نشرها؛ حتى أصبح لها مكان كبير في بغداد والحواضر العربية الأخرى.

وكان للثقافة الفارسية تأثير قوي في الأدب؛ إذ أصبح الأدب يحمل أجمل مافي أدب الفرس من معانٍ وأخيلة، ومال إلى التجديد في المعاني.

ومن الثقافات التي امتزجت بالثقافة العربية «الثقافة الهندية»، وقد ألم بها العرب عن طريق الاختلاط بالهنود ثم عن طريق «الترجمة».

ومن علوم الهند ومعارفهم: «الطب»، و«الحكمة»، و«علم الفلك»، وغير ذلك.

وللثقافة الهندية تأثير ضعيف في الأدب بدا فيما اقتبسه الأدباء من القصص والحكم الهندية والأمثال وبعض الأقوال.

وكذلك «الثقافة اليونانية»، وقد بدت صلة العرب بها عن طريق الترجمة من اليونانية إلى العربية، أو من الفارسية للعربية، وكان للمتكلمين أثر قوي في امتزاج الثقافة اليونانية بالثقافة العربية.

ومما أثرت الثقافة اليونانية في الأدب العربي نقل بعض الحكايات والأسماء، والتأثر ببعض الحكم الأمثال والمعاني الفلسفية، وسعة الخيال، وتهذيب الفكر.

وكما تنوعت الثقافات في العصر العباسي؛ تنوعت العادات والحضارات والنزعات، فظهرت بسبب ذلك نزعة «الشعوبية»، وهي في الأصل دعوة إلى المساواة بين الشعوب الإسلامية في الحقوق والواجبات، ثم أصبحت تعني العداوة للعرب، وكان الفرس أكثر الشعوبيين عداوة للعرب، وقد عبر عن هذه النزعة بعض الشعراء الكبار، كبشار بن برد، وغيره.

وردّ على الشعوبيين كثير من كُتّاب العرب وشعرائهم، وكذلك نزعة الزندقة وهي ترجع في أصولها إلى الفارسية، وتميل إلى معاداة الدين والمجاهرة بالاثم، والاعتقاد ببعض عقائد الفرس القدماء، وتميل كذلك إلى

الاستهتار بالقيم الإسلامية، وممن رمي بالزندقة : «عُصبة المُجّان» التي كانت تضم والبة بن الحباب، والحسين بن الضحاك، ويحيى بن زياد، وأبا نواس الحسن بن هانئ، وفي شعرهم ما يكشف عن هذه النزعة.

وقد ارتبطت باللهو والمجون، وظهر تأثير ذلك في الأدب، كما عند أبي نواس ورفاقه المجان.

٦. الترجمة إلى اللغة العربية.

ظهرت العناية بالعلوم، وحب التزود من المعارف المختلفة إلى العربية، كما كان للفرس الذين تولوا مناصب كبيرة في دولة بني العباس أثر كبير في ذلك؛ ولهذا نشطت حركة الترجمة في هذا العصر نشاطاً كبيراً، ومرت بعدة أطوار، حتى بلغت حد النضج:

أ. الطور الأول: يبدأ من عهد المنصور إلى آخر عهد الرشيد.

ب. الطور الثاني: يبدأ بحكم المأمون وينتهي بنهايته.

ج. الطور الثالث: يبدأ بخلافة المعتصم، وينتهي بقتل المتوكل.

ومن مشاهير المترجمين في العصر العباسي: «الحجاج بن يوسف بن مطر»، وكان من المترجمين عن اليونانية في عهد المأمون، وكذلك «موسى بن شاكر»، ومن المترجمين «آل حنين»، وأولهم «حنين بن إسحاق» شيخ المترجمين، وممن ترجم عن الفارسية: «عبد الله بن المقفّع»، و«الحسن بن سهل»، وغيرهم.

وممن ترجم عن الهندية: «منكه» الهندي الطبيب، و«صالح بن بهلة الهندي»، وظهر من المترجمين عن العبرية والقبطية والكلدانية.

وقد كان للترجمة تأثير قوي في حركة الفكر والأدب؛ لكنه لا يصل إلى ما يصوره بعض الدارسين الذين جعلوا كل فضيلة للعرب إنما بسبب تأثرهم بالثقافة والفلسفة اليونانية، وغيرها.

ومما نال الأدب من تأثير المنطق والفلسفة: العناية بتهذيب الأفكار والمعاني، والترتيب العقلي.

٧. الثورات والحروب الداخلية والخارجية.

كثرت الثورات والحروب الداخلية والخارجية في عصر العباسيين الأول، وبدأت هذه الحروب ببداية حكم العباسيين.

أ. الثورات الداخلية.

وتعد ثورة «بابك الخُرَّمي» أخطر الثورات في عهد العباسيين، وقد امتدت هذه الثورة من سنة: (٢٠١هـ) إلى سنة (٢٢٣هـ)، وقد قضى عليها «الأفشين» قائد المعتصم، ومن هذه الثورات ثورات «العلويين» ضد العباسيين، وممن قام ضد العباسيين: «الخوارج» الذين ضعف سلطانهم منذ الأمويين؛ ولكن ذلك لم يمنعهم من القيام بثورات شرسة ضد العباسيين، ومن ثوراتهم الكبيرة ثورتهم على المنصور في اليمن، سنة :

(١٤٠هـ)، وقد ندب لهم أشهر القواد في زمانه: «معن بن زائدة الشيباني» الذي قاتلهم عدة سنوات، وقتل منهم كثيراً.

ب. الحروب والفتوحات الخارجية.

استمرت الفتوحات الخارجية في عهد العباسيين، وتراوحت حركة الجهاد بين القوة والضعف، ويرجع ذلك إلى أسباب كثيرة، منها:

- كثرة الفتن الداخلية، وحدوث الفتنة بين الأمين والمأمون، وغير ذلك.

ويذكر بعض المؤرخين أن أول غزو قام به المسلمون في العصر العباسي وقع سنة (١٣٨-١٣٩هـ)، واستمر بعد ذلك غزو المسلمين للروم، وكان الرشيد أكثر خروجاً لحروب الروم.

ومن حروب المسلمين العظيمة للروم وانتصاراتهم البارزة عليهم=ماقام به المعتصم سنة: (٢٢٣)؛ إذ خرج إلى أرض الروم، ففتح عمورية، وكان إلى جانب الحروب البرية حملات بحرية للعباسيين ضد الروم، ففي سنة: (١٧٤هـ) أغار أسطول المسلمين على قبرص، ونزل فيها، وهزم البيزنطيين، وأسر أميرهم، وذلك لأنهم أسروا بعض سفن المسلمين التي كانت في طريقها من مصر إلى الشام.

وقد كان لهذه الحروب الداخلية والخارجية تأثير كبيرٌ في الأدب، بما نتج عنها من نثر وشعر كثير عبر عنها وتأثر بها، وخلّدت أحداثها، وذكر أعلامها البارزين، وهكذا نرى أن الأدب في العصر العباسي الأول قد تأثر بعوامل كثيرة أدت إلى ازدهاره ورقيّه، وتنوع فنونه، وتعدد موضوعاته واتجاهاته.

ثانياً: مظاهر تطور الشِّعْر في عصر العباسيين الأول:

(الموضوعات، الأغراض، الأساليب)

الشعر في كل مكان وزمان صدى للحياة وصورة للمجتمع، وانعكاس للآمال والمشاعر، وتاريخ صحيح لعصره وحصره، فهو في الجاهلية ديوان العرب الذي سجّل مفاخرهم ودوّن مآثرهم، وصوّر أساليب حياتهم ومعالم بيئتهم، وهو في الإسلام صورة للحياة الجديدة تفاعل معها واستجاب لدواعيها، وتحورت أغراضه وألفاظه ومعانيه بما تقتضيه الدعوة الإسلامية متأثراً ببيانها ومتجاوباً مع ما كان للدولة من حظ للحضارة في الحضارة فرأيناه يخوضه في موضوعات شتى، ومع هذا لم يبعد عن منهجه في الجاهلية لأصالة العروبة وقرب العهد بالبداوة، فلما جاء العصر العباسي وظهرت الحضارة وتعددت ألوان الثقافة وتنوعت الأجناس واختلفت صور الحياة=كان لهذا أثره في نفوس الشعراء، إذ وجدوا من المظاهر الحضارية ما شخذ هممهم لقول الشعر، فالمجال واسع، والمظاهر مغرية، ولهذا رأينا الشعر يحلق في كل أفق وينتقل من الصحاري المجدبة إلى الرياض والقصور والزهور، ولذلك ظهر فيه كل ما جدّ في الحياة من المظاهر الحضارية أو العلمية، وتأثر بألوان الثقافات المختلفة التي لم تعرف من قبل، ولتأثر الشعر بالثقافات والحضارات المختلفة تنوعت أغراضه وأساليبه ومعانيه وأخيلته، وظهر التجديد في ذلك كله، وسوف يتضح لنا هذا فيما يأتي:

أولاً: التجديد في الموضوعات والأغراض:

أثرت الحضارة بمظاهرها الجديدة في الشعر في عصر العباسيين الأول، فكان من نتائج ذلك التأثير ظهور موضوعات جديدة نظم فيها الشعراء كثيراً من الشعر، وأصاب بعض الأغراض الشعرية القديمة شيءٌ من التجديد:

١. الموضوعات والأغراض الجديدة:

ظهرت في هذا العصر بعض الموضوعات والأغراض الشعرية الجديدة، ولا نعني بالجدة هنا أن هذه الأغراض لم تكن موجودة قبل ذلك، فبعضها كانت له بذور في التراث قبل هذا العصر، لكنها بفعل العوامل الاجتماعية والسياسية والاجتماعية والثقافية قد نمت وتطورت، وتحولت من نشأتها الأولى إلى صورة مكتملة صارت بها أغراض جديدة في الشعر، ومن هذه الأغراض والموضوعات الجديدة ما يأتي:

أ. الزهد: وقد عرف هذا الغرض من قبل، ولكنه اتسع في عصر العباسيين الأول وأصبح يمثل تياراً واحداً جديداً في الشعر العربي من حيث أفكاره وصوره وكان نتاجاً للثقافة العربية الإسلامية الممتزجة بالثقافة الأجنبية، وكان من أبرز أسباب ظهوره بتلك الصورة: وجود شعر المجون الذي شاع وذاع في هذا العصر

فكان شعر الزهد شعر مواجهة لذلك الشعر الخبيث، وقد جعل أبو العتاهية شعر الزهد باباً واسعاً للتأثير والموعظة، ثم اتسع وقام بمهمته بالتكلم عن المحرومين والمظلومين، ومما قاله أبو العتاهية في الزهد:

لعمرك ما الدنيا بدار بقاء ... كفاك بدار الموت دار فناء

فلا تعشق الدنيا أخيّ فإنما ... ترى عاشق الدنيا بجهد بلاء

حلاوتها ممزوجة بمرارة ... وراحتها ممزوجة بعناء

فهو يُزهِّد في الدنيا ويحذِّر منها.

ب. الخمريات: أصبحت الخمريات ذات كيان مستقل واتسع القول فيها وتنوعت ألوانه حتى بدا هذا النوع من الشعر وكأنه غرض جديد في الشعر العربي نتيجة لما طرأ عليه من تطور؛ لأن الحديث عن الخمر قبل العصر العباسي لم يكن غرضاً مستقلاً، وإنما كان الشعراء يلمون بهذا إلماماً، فلما جاء أبو الهند الرياحي -من مخضرمي الدولتين- أخذ يشبه بالخمر ويحض عليها ويزينها للناس، ثم جاء بعده أبو نواس وندماؤه، فقدموا الحديث عن الخمر في مطالع القصائد وأفردوا لها قصائد مستقلة، وأفرطوا في وصفها حتى بلغ ما قاله أبو نواس في الخمر بضعة آلاف من الأبيات، ومما قال فيها:

دع عنك لومي فإن اللوم إغراء ... وداوني بالتي كانت هي الداء

ج. الغزل بالمذكر: وهذا غرض من أغراض الشعر العباسي، وقد سرى إليهم من الفرس، وكان ظهوره بسبب تغير المجتمع؛ حيث كثر اصطناع الغلمان في القصور ودور الوجهاء، وكان هؤلاء الغلمان من أبناء الفرس أو الروم أو غيرهم، يؤتى بهم عن طريق السبي أو غيره.

وقد استفاض هذا الفن في القرنين الثاني والثالث، ثم أخذ بعد ذلك في الانحسار.

والعرب لم تكن تعرف هذا الغرض، ومما يدل على ذلك، قول الجاحظ: «إنهم لو عرفوه لوجدناه في أكثر شعرهم».

والغزل بالمذكر يعد انحرافاً في الطبيعة الإنسانية ودناءة ما بعدها دناءة.

وقد أفحش فيه بعض الشعراء إفحاشاً مخزياً، وكان بعضهم يقوله مسايرة لروح العصر، من غير أن يكون من أصحاب الغلمان، وإنما كان ذلك كما يقولون تقليداً منه، ورياضة للقريحة.

د. الشعر الهزلي، أو(التهكمي): وهذا النوع من الشعر من الأغراض التي لا تخفى جدتها، وإن كان يعد بصورة أو بأخرى فرعاً من الهجاء، وقد لجأ شعراء هذا الفن إلى سلاح السخرية والهجاء غير المباشر، أو أنهم لجأوا إلى أسلوب فني للنيل من خصومهم، ومن عمالقة هذا الفنّ ابن الرومي، ومما قاله هذين البيتين:

يقتر عيسى على نفسه ... وليس بباقٍ ولا خالدِ
ولو يستطيع لتقتيره ... تنفس من منخر واحد

فهو يرسم للبخيل صورة هزلية ساخرة، ويبدوا أن البخل قد استهوى كثيراً من الشعراء فقالوا فيه جملة من الأشعار الساخرة، وقد عمد بعض الشعراء في تجسيد البخل إلى ربطة بأهون الأشياء حتى إن رغيف الخبز ليتحول إلى ولدٍ يناجي ويلاعب، ومن يطلبه يُطَارَد ويُهَاجَم، كما يظهر في قول أبي نواس:

رغيف سعيد عنده عِدْلُ نفسه ... يقلبه طوراً وطوراً يلاعبه
ويخرجه من كمّه فيشمّه ... ويجلسه في حجره ويخاطبه
وإن جاءه المسكين يطلب فضله ... فقد ثكلته أمه وأقاربه
يكرُّ عليه السوط من كل جانب ... وتكسر رجلاه ويُنتَف شاربه

هـ. الشعر التعليمي: وهذا النوع من الشعر استحدثه الشعراء العباسيون، وقد دفع إليه رقي الحياة العقلية في عصرهم، وأدى تنوع روافد الثقافة إلى ضرورة أن يحيط الأديب بقدر وافر منها، وظهرت الحاجة إلى وسيلة تيسر هذه الإحاطة، فكان أن لجأ الشعراء أو النظامون إلى نظم بعض القصص المعروفة كما نظموا بعض المتون في كثير من العلوم كالنحو والفقه والمنطق، وكان لأبان بن عبد الحميد اللاحقي فضل إشاعة هذا النوع من الشعر ؛ إذ تنوعت منظوماته وشملت القصص والعلوم والسير، ومما نظم كتاب كليلة ودمنة، وابتدأ نظمه بقوله:

هذا كتاب أدب ومحنة ... وهو الذي يدعى كليلة ودمنة
فيه دلالات وفيه رشد ... وهو كتاب وضعته الهند
فوضعوا آداب كل عالم ... حكاية عن ألسن البهائم
فالحكماء يعرفون فضله ... والسفهاء يشتهون هزله
وهو على ذاك يسير اللفظ ... لذّ على اللسان عند الحفظ

وعلى منواله يسبح أبو العتاهية في منظومته ذات الأمثال التي يقول فيها :

حسبك مما تبتغيه القوت ... ما أجمل القوت لمن يموت
من جعل النمام عيناً هلكا ... مبلغك الشر كباغيه لكا
ما انتفع المرء بمثل عقله ... وخير ذخر المرء حسن فعله

إن الفساد ضده الصلاح يا رب جد جرّه المزاح

ومن هذه الأرجوزة بيته المشهور:

إن الشباب والفراغ والجدة مفسدة للمرء أي مفسدة

يا للشباب المرح التصابي روائح الجنة في الشباب

وقبل أن تنظم الألفيات في علم النحو وجدنا الشعر التعليمي بعد شيوع اللحن وفساد الألسنة يرغب في علم النحو فيما يمكن أن يُعَدَّ إرهاصاً بالألفيات، وللعالم المشهور الكسائي قصيدة يقول فيها:

إنما النحو قياس يتبع وبه في كل أمر ينتفع

وإذا لم يبصر النحو فتى هاب أن ينطق جبنا فانقطع

يقرأ القرآن لا يعرف ما حرّف الإعراب فيه وصنع

د. الشعر الوطني: وهو الشعر الذي قاله الشعراء في أوطانهم التي عاشوا فيها سواء كان مدحاً أو ذمّا أو تحسراً على ما أصابها، وعلى ما كان ينعم به الشعراء فيها.

وقد ظهر هذا الشعر نتيجة لانتقال الناس من الصحراء إلى القصور الفخمة والحدائق الجميلة، وارتباطهم بالمدن الراقية، وما فيها من روابط عديدة.

وقد كان مفهوم الوطن غير واضح في الشعر قبل العصر العباسي مع أن بعض الشعراء قد عاشوا في بعض المدن الجديدة في عصر الأمويين؛ إلا أنهم عندما كانوا يفارقونها لا يحنون إليها، وإنما يحنون إلى وطن غير محدود، وطن واسع يتمثل في الصحراء، أو في مظهر من مظاهرها كالغضى !

وقد دار معظم الشعر الوطني حول حواضر الدولة العباسية كبغداد والكوفة والبصرة وغيرها، ومن نماذج هذا الشعر الذي كثر في عصر العباسيين الأول واتجه إلى الأوطان، قول عُمارة بن عقيل:

أعاينت في طول من الأرض والعرضِ كبغداد داراً إنها جنة الأرضِ

صفا العيش في بغداد واخضر عوده وعيش سواها غير صافٍ ولا غضِّ

وكذلك قول ابن عبد الملك الوراق[1]:

ماذا أصابك يا بغداد بالعين ألم تكوني زماناً قرة العين

ألم يكن فيك قوم كان مسكنهم وكان قربهمُ زيناً من الزّين

صاح الغراب بهم بالبين فافترقوا ماذا لقيت بهم من لوعة البين

(١) في نكبة (بغداد)، أثناء الحرب بين الأمين والمأمون.

أستودع الله قوماً ما ذكرتهموا ... إلا تحدّر ماء العين من عيني

ولعل مطولة الخزيمي أصدق الشعر الذي صور نكبة بغداد في تلك المدة، ومنها قوله:

يا بُؤْسَ بَغْدَادَ دارَ مَمْلَكَةٍ ... دارَتْ على أَهْلِها دَوَائِرُها

أَمْهَلَها اللهُ ثُمَّ عاقَبَها ... لَمَّا أَحاطَتْ بها كَبَائِرُها

يُحْرِقُ هذا وذاك يَهْدِمُها ... ويَشْتَفِي بالنِّهابِ دَاعِرُها

٢. التجديد في الأغراض القديمة.

من الأغراض القديمة التي نالها شيء من التجديد: المدح؛ إذ نجد الشعراء المداحين يلمون بالأحداث التي عاصرت الممدوح، وبخاصة ما أسهم فيه [أي الممدوح]؛ وبهذا صار المدح كالجريدة الإعلامية في عصرنا، واكتسب قيمة تاريخية، إضافة إلى قيمته الأدبية.

ويظهر ذلك فيما مدح به الأبطال والقواد؛ إذ أشاد الشعراء ببطولاتهم فصارت قصائدهم تاريخاً أدبياً لأحداث العصر، ومن أمثلة تلك القصائد: قصيدة أبي تمام التي تحدث فيها عن فتح عمورية.

وكذلك تحول المدح إلى لون من الأدب السياسي، فلمعرفة الخلفاء بأثر الشعر في النفوس قربوا الشعراء وأجزلوا لهم العطاء؛ لأنهم يعبرون عن سياستهم ويردون على خصومهم.

وقد دار مدح العباسيين حول المعاني التي نشروها في خطبهم، كما يظهر في قول سلم الخاسر:

إن الخلافة لم تكن بخلافة ... حتى استقرت في بني العباس

شدّت مناكب ملكهم بخليفةٍ ... كالدهر يخلط لينه بشماس

كما اتجه شعر المدح إلى التخصص، فكل ممدوح له نوع من الصفات التي يناسبه المدح بها، فالكاتب والوزير يمدحان بحسن الروية وسرعة الخاطر وشدة الحزم والبلاغة وبذل النصح، والنيابة في المعضلات، وغير ذلك، كما يظهر في قول البحتري يمدح ابن الزيات:

لتَفَنَّنتَ في الكتابةِ حتَّى ... عطَّلَ النَّاسُ فنَّ عبدِ الحميدِ

في نظامٍ من البلاغةِ ما شكَّ ... امرؤٌ أنَّهُ نِظامُ فريدِ

مشرقٌ في جوانبِ السَّمعِ ما يُخْـ ... ـلِقُهُ عَوْدُهُ على المُسْتعيدِ

وبديعٍ كأنَّه الزَّهرُ الضّاحكُ ... في رَوْنَقِ الرَّبيعِ الجديدِ

ومعانٍ لو فصَّلتها القوافي ... هجَّنتْ شعرَ جَرْوَلٍ ولبيدِ

- وظهر التجديد في الهجاء واضحاً، وكان نابعاً من عواطف الشعراء الشخصية.

ومن ذلك التجديد: المبالغة في الإقذاع والفحش مبالغة لم يصلها الهجاء في الجاهلية، ولا في شعر النقائض في عصر الأمويين، ولعل أهم الأسباب التي يعود إليها ظهور الهجاء بهذه الصورة، هو: ضعف الوازع الديني، وانغماس الناس في الشهوات واللهو.

ونجد كثيراً من هذا الهجاء في شعر ابن الرومي، كما نجده أيضاً مبثوثاً في بعض كتب الأدب والتاريخ وبعض الدواوين الشعرية.

ومن ملامح التجديد أيضاً في الهجاء: ظهور الهجاء السياسي، فقد اتجه بعض الشعراء إلى هجاء الخلفاء والأمراء والنيل منهم، كما يظهر في قول دعبل الخزاعي يهجو المأمون:

ويَسُومُني المَأمُونُ خُطَّةَ عارِفٍ ... أَوَ مَا رَأَى بالأَمْسِ رَأَسَ مُحَمَّدِ

إِنِّي مِنَ القَوْمِ الَّذِينَ سُيُوفُهُمْ ... قَتَلَتْ أَخاكَ وشَرَّفُوكَ بمقْعَدِ

شَادُوا بِذِكْرِكَ بَعْدَ طُولِ خُمُولِهِ ... واسْتَنْقَذُوكَ مِنَ الحَضِيضِ الأَوْهَدِ

وظهر لون جديد من الهجاء الذي تناوله الشعراء في ثياب الصراع العقدي، كهجاء بشار بن برد لواصل بن عطاء، وتعريض أبي نواس بعقيدة أبان اللاحقي، وغير هذا.

وظهر الهجاء الشعوبي الذي دار بين العرب والموالي.

وكما طرأ التغيير على المدح والهجاء، فقد طرأ على الغزل ، فمال إلى الفحش، وتجسيد محاسن المرأة، وظهر الغزل بالغلمان الذي عُدَّ موضوعاً جديداً من موضوعات الشعر في العصر العباسي الأول.

وظهر نوعٌ طريفٌ من الغزل، وهو: الغزل القصصي.

وقد نما هذا النوع من أثر ما ترجم من قصص وأساطير، ومال إلغزل عند بعض الشعراء إلى لون من الغزل الصوفي، الذي يطلق عليه العشق الإلهي، ويعد ذون النوري رائد هذا الشعر.

وتجدد الرثاء كغيره من الأغراض، فظهر اهتمام الشعراء برثاء القادة وتمجيد بطولاتهم، وبخاصة: «قواد المعارك»، كما يظهر في قول أبي تمام يرثي «محمد بن حميد الطوسي» الذي قُتل في فتنة «بابك الخرمي»:

فتىً كلّما فاضَتْ عُيُونُ قَبِيلَةٍ ... دَماً ضَحِكَتْ عنه الأَحادِيثُ والذِّكْرُ

وما ماتَ حتّى ماتَ مَضْرِبُ سَيْفِهِ ... مِنَ الضَّرْبِ واعْتَلَّتْ عليه القَنا السُّمْرُ

مَضَى طاهِرَ الأَثْوابِ لَمْ تَبْقَ بُقْعَةٌ ... مِنَ الأَرْضِ إلاّ واشْتَهَتْ أَنّها قَبْرُ

وقوله كذلك فيه:

أَصَمَّ بكَ الناعي وإنْ كان أَسْمَعا ... وأَصْبَحَ مَغْنَى الجُودِ بَعْدَكَ بَلْقَعا

- وظهر الرثاء المذهبي، وهو الرثاء الذي يتجه إلى رثاء القتلى الذين يسقطون في المعارك التي كانت تدور بين العباسيين والأحزاب الأخرى، كما ظهر لون آخر من الرثاء، وهو: رثاء الحيوانات الأليفة، كالقطط والكلاب وغيرها، كما يظهر في رثاء أحد الشعراء[1] لقِطّة :

يـــا هِـــرُّ فارقتَنـــا ولم تَعُـــدِ ... وكنـــتَ منّـــا بمنـــزلِ الولَـــدِ

تـــدْفَعُ عنّـــا الأذى وتنـــصُرنا ... بالغيـــب مـــن خُـــنْفسٍ ومـــن جُـــرَدِ

- ومما ظهر من ألوان الرثاء: رثاء المغنين، وركز هذا اللون على رثائهم ببكاء آلات الطرب، والملاهي وغيرها عليهم.

- وكذلك الوصف: فقد أصاب التجديد غرض الوصف كغيره من الأغراض القديمة، ومما جدّ فيه من الموضوعات في جانب الطبيعة الصامتة: وصف الرياض والبرك والقصور والأطعمة والأشربة المختلفة، كما يظهر في قول البحتري يصف الرياض:

كَـــمْ بـــالجَزِيرَةِ مِـــنْ رَوْضَـــةٍ ... تُـــضَاحِكُ دِجْلَـــةَ ثُغْبَانَهَـــا

إذا غَـــرّدَ الطّـــيرُ فيهـــا، ثَنَـــتْ ... إلَيْـــكَ الأَغـــانيُّ ألْحَانَهـــا

كما أن هناك موضوعات أخرى جديدة في الوصف لجانب الطبيعة الحية، كوصف البخل والسمك والطيور وغيرها، ومن ذلك قول ابن الرومي يصف سرعة صاحب الرقاقة:

إنْ أَنْـــسَ لاَ أَنْـــسَ خَبَّـــازاً مَـــرَرْتُ بِـــهِ ... يَـــدْحُو الرُّقَاقَـــةَ وَشْـــكَ اللَّمْـــحِ بالْبَـــصَرِ

مَـــا بَـــيْنَ رُؤْيَتِهَـــا في كَفِّـــهِ كُـــرَةً ... وَبَـــيْنَ رُؤْيَتِهَـــا قَـــوْرَاءَ كَـــالْقَمَرِ

إلاَّ بِمِقْـــدَارِ مَـــا تَنْـــدَاحُ دَائِـــرَةٌ ... فِي صَـــفْحَةِ الْمَـــاءِ تَرْمِـــي فِيـــهِ بـــالْحَجَرِ

ثانياً: التجديد في المعاني والأفكار والصور.

جدد الشعراء في عصر العباسيين الأول في المعاني والأفكار والصور، وذلك لأسباب منها: تأثرهم القوي بمظاهر الحياة الجديدة بنوعها المادي والعقلي.

١. تأثر المعاني والصور بالحضارة المادية:

أثرت الحضارة المادية بمظاهرها المختلفة ومشاهدها المتنوعة في نفوس الشعراء فاستمدوا منها كثيرا من المعاني والصور، وكانت سببا في تنوع معانيهم، ووفرة أفكارهم واتساعها، وجودة صورهم وسعة مجالها.

ومما يظهر فيه أثر التطور في الشعر، قول ابن الرومي:

---

(١) وهو أبو بكر بن العلاف، وقيل أن القصيدة عرّض بها في رجل كان يهجوه، وليست لقطة كما هو ظاهرها.

وريـــاضٍ تخايـــلُ الأرض فيهـــا خُـــيلاء الفتـــاة في الأبـــرادِ
ذات وشيٍ تناسَـــجَتْهُ ســـوارٍ لَبقـــاتٌ بحوْكِـــه وغـــوادِ[1]

فالأرض تبدو وكأنها فتاة حسناء تختال في أثواب الربيع، ووشيها الذي نسجته السحب نسجاً جميلاً بفضل ما حملته من أفكار، ويظهر أثر الحضارة في قول أبي تمام:

رَقيـقُ حـوَاشي الحِلـمِ لـو أن حِلمَـهُ بكفَيـكَ مـا مارَيْـتَ في أنـهُ بُـرُدُ

إذ استعار البرد رقيق الحواشي للحلم، وكان القدماء قبله يشبهون الحلم بالجبال في الرزانة، كقول الفرزدق:

أحلاَمُنـا تـزن الجبـالَ رَزانـةً وتخالنـا جِنـاً إذا لَمْ نَجْهَـلِ

ولكن أباتمام لا يعجبه هذا التصوير القديم؛ لذلك ينتقل إلى تصوير متحضر تمثل في استعارة البرد للحلم؛ لأن الحليم كما يتصوره أبو تمام هو الذي يتلقى الحوادث العظيمة بثغر باسم، ورزانة بالغة.

٢. تأثر المعاني والصور بالحضارة العقلية، ومظاهرها:

امتزجت الثقافات المتنوعة في العصر العباسي الأول، وأدى تأثر الشعراء القوي بها إلى ظهور أثرها واضحاً في معانيهم وصورهم.

ولذلك نجد الشعر في هذا العصر يتسم بعمق الأفكار، وترتيبها، ويظهر فيه الابتكار والتجديد، والتأثر بالمنطق والفلسفة، ولهذا تميز شعر هذا العصر بالتأثير في النفوس؛ لقدرته على تحريك المشاعر وأسر الألباب، مما جعل أبا الفتح عثمان بن جني، يقول: «المولدون يستشهد بهم في المعاني كما يستشهد بالقدماء في الألفاظ»، فإن كان المتقدمون قد استقلوا بصحة الأداء ومتانة التعبير وحجة القول؛ فإن للمحدثين فضل المعنى الحميد، والخيال المحلق، والفكر المنسق، وسوف تتجلى لنا فيما يأتي ملامح التأثر بمظاهر الحضارة العقلية، والتجديد في المعاني والصور في الشعر العباسي.

أ. التجديد في المعاني والصور القديمة.

تناول الشعراء بعض المعاني والصور القديمة، وتصرفوا في صياغتها حتى بدت وكأنها لم تسمع من قبل، وذلك لقوة مواهبهم وعمق تفكيرهم، وتأثرهم بالحضارة التي ظهرت في زمانهم.

ومن المعاني القديمة التي تناولها الشعراء، قول جرير:

إذا غَـضِبَتْ عليـكَ بنُـو تمـيم حَـسِبْتَ النَّـاسَ كلهـمْ غـضابَا

---

(١) سوارٍ وغوادٍ: يقصد السحاب.

من قصيدته المسماة بالدامغة.

فقد تناوله أبو نواس بقوله:

وَلَيسَ لله بِمُستنكرٍ أن يجمعَ العَالَمَ في واحِدِ

فتفوق بذلك على جرير؛ لأنه جعل ممدوحه بمقام العالم كله، بينما جعل جرير قبيلته بمقام الناس فقط، والناس جزء من العالم.

وكذلك قول أبي تمام:

يصدُّ عن الدُّنيا إذا عنَّ سؤددٌ ولو برزَتْ في زيِّ عذراءَ ناهدِ

فهو مأخوذ من قول المعذل بن غيلان:

وَلَسْتُ بِنَظَّارٍ إِلَى جَانِبِ الْعُلاَ إِذَا كَانَتِ الْعَلْيَاءُ في جَانِبِ الْفَقْرِ

ولكن أبا تمام زاد عليه بتصوير الدنيا في صورة عذراء تغري بجمالها، حتى يظنّ بذلك أن المعنى له دون غيره.

ومما تناوله الشعراء من الصور القديمة وأدخلوا عليها شيئا من التجديد : الصورة التي تظهر في قول النابغة الذبياني:

فإنَّك كاللَّيل الَّذِي هو مُدْرِكي وَإِنْ خِلْتُ أنّ الْمُنْتَأَى عَنْكَ وَاسِعُ

فقد أغرت هذه الصورة بعض الشعراء بمحاولة الاتيان بما هو أفضل منها، فقال سلم الخاسر:

فأنْتَ كالدهر مَبثوثاً حبائلُه والدهرُ لا ملجأ منهُ ولا هربُ

ولو مَلَكتُ عنانَ الريح أصْرِفها في كل ناحية ما فاتَكَ الطلَبُ

فقد جعل للريح لجاماً عن طريق الاستعارة، وجاء بمعنى الفرد لا يشترك معه غيره بخلاف ما عند النابغة فالليل يشترك معه النهار بالإدراك، وقال النجدي في صورة النابغة:

ولو أنهم رَكبوا الكواكِبَ لم يكن ينجيهمُ من خوفِ بأسِكَ مهربُ

فجعل الكواكب كالدواب التي ذللت للركوب فجاء بمعنى مغرد.

ب. المعاني والصور التي سبقهم إليها معاصروهم.

ومن ذلك قول بشار بن برد:

مَنْ رَاقَبَ النَّاسَ لَمْ يَظْفَرْ بِحَاجَتِهِ وَفَازَ بِالطَّيِّبَاتِ الْفَاتِكُ اللَّهِجُ

فقد تناول هذا المعنى سلم الخاسر في قوله:

مـــنْ راقـــبَ النـــاسَ مـــاتَ غـــمًّا وفـــــازَ باللـــــذةِ الجَـــــسورُ

فجاء به في أوجز عبارة وأصدق إثارة، فرواه الناس وتركوا بيت بشار.

ومن الصور التي جدد فيها الشعراء مما تناوله معاصروهم، قول بشار بن برد:

يـــرى أنـــه أقـــبح البـــاخلين إذا جـــاد بـــالروح للـــسائلين

فقد تناولها بعض الشعراء في عصره وكان أبرعهم وأجودهم تناولاً وهو مسلم بن الوليد، في قوله:

يَجـــودُ بـــالنَّفس إنْ ضَـــنّ الجَـــوادُ بهـــا والجُـــودُ بِـــالنفس أقْـــصى غايـــةِ الجـــودِ

إذ صاغها صياغة جميلة تفوق بها على صياغة بشّار فصار قوله حكمة يرددها للناس، ويليها في جمال الصياغة وروعتها قول أبي تمام:

ولَـــوْ لَمْ يَكُـــنْ في كَفِّـــهِ غَـــيْرُ رُوحِـــهِ جَـــادَ بِهـــا، فَلْيَتَّـــقِ اللهَ ســـائِلُهْ !

ج. ابتكار المعاني والصور:

الابتكار دليل على قوة الموهبة وعمق الثقافة، وقد تحقق هذا الكثير من شعراء عصر العباسيين الأول، فابتكروا كثيراً من الصور والمعاني، ومن ذلك ما يظهر في قول ابن الرومي:

وإذا امْـــرؤٌ مـــدح امـــرءاً لنوالِـــهِ وَأطـــالَ فيـــه فقـــد أرادَ هِجـــاءهُ

لـــوْ لم يُقـــدّرْ فيـــه بُعـــد المـــستقَى عِنـــدَ الـــورودِ لمـــا أطـــالَ رِشـــاءهُ

وكذلك قول بشار:

لَمَـــسْتُ بكَفّـــي كَفَّـــهُ أبْتَغـــي الغِنـــى ولم أدْرِ أنَّ الجُـــوْدَ مـــن كَفِّـــه يُعْـــدي

فَـــلا أنـــا مِنْـــهُ مـــا أفـــادَ ذَوُو الغِنـــى أفَـــدْتُ، وأعْـــداني فأتْلَفْـــتُ مـــا عِنْـــدي

ومن الصور المبتكرة، قول أبي نواس في الخمر:

فكـــأني ومـــا أحـــسنُ منهـــا قعـــديٌّ يـــزينُ التحكـــيما

لم يطـــقْ حملـــةَ الـــسلاحِ إلى الحـــرْ بِ فـــأوصى المطيـــقَ ألا يقـــيما

وكذلك قول أبي تمام:

وإذَا أَرَادَ اللهُ نَـــشْرَ فَـــضِيلَةٍ طُوِيـــتْ أَتَـــاحَ لَهَـــا لِـــسَانَ حَـــسُودِ

لَـــوْلاَ اشْـــتِعالُ النَّـــارِ فـــيما جَـــاوَرتْ مَـــا كَـــانَ يُعْـــرفُ طِيـــبُ عَـــرْفِ العُـــودِ

د. استقصاء المعاني وتحليلها.

الاستقصاء والتحليل من ملامح التجديد التي ظهرت في الشعر في عصر العباسيين الأول، وذلك بشرح المعنى واستقصاء كل ما يمتّ إليها بسبب، وقد أدى ذلك إلى طول القصائد، ونجد هذه النتيجة واضحة عند ابن الرومي من حيث استقصاء المعاني وتحليلها، أو طول القصائد وشمولها، ومن شعره الذي يستقصي فيه المعاني، قوله -متحدثاً عن أيام الشباب-:

لسنا نراها حقَّ رؤيتِها ... إلاّ زمانَ الشيبِ والهرمِ

كالشمسِ لا تبدو فضيلتُها ... حتى تُغشَّى الأرضُ بالظلمِ

ولربَّ أمرٍ لا يُبيِّنُهُ ... وجدانُهُ إلاّ معَ العدمِ

ومثله في جدة المعنى وتحليله وتفصيله، قول أبي تمام:

السَّيف أصدَق أنباءً من الكتُب ... في حَدِّه الحدّ بينَ الجِدّ واللَّعِبِ

بيضُ الصفائح لا سودُ الصّحائف في ... متونهن جَلاءُ الشك والرِّيبِ

فكان يكفيه أن يقول: «إن الشيب أصدق من المنجمين وكتبهم»، ولكنه فصّل وحلل، واستقصى عندما جاء بالبيت الثاني.

هـ. تأثر المعاني والصور بالفلسفة والثقافات المختلفة.

تأثرت معاني الشعر وصوره في العصر العباسي الأول بالفلسفة والثقافات المختلفة التي ألمّ بها الشعراء من هندية وفارسية ويونانية، وفوق ذلك كله: ثقافتهم العربية والإسلامية.

ومن المعاني والصور المتأثرة بالثقافة العربية، قول أبي تمام:

وإذَا رأيْتُكَ والكلامُ لآلئٌ ... تُؤْمٌ فبِكْرٌ في النظَامِ وثَيِّبُ

فكَأَنَّ قُسّاً في عُكاظٍ يَخْطُبُ ... وكأَنَّ لَيْلَى الأَخْيَلِيَّةِ[1] تَنْدُبُ

وكُثَيِّرَ عَزَّةَ يومَ بَيْنٍ يَنْسُبُ ... وابْنَ المُقَفَّعِ في اليَتيمةِ يُسْهِبُ

١. ظهور البراهين العقلية، وحسن التعليل:

أدى تمثل الشعراء بثقافة عصرهم وقوة ملكاتهم إلى عنايتهم بأفكارهم ودعم العميق منها بالبراهين العقلية وحسن التعليل؛ ليكون مقبولاً لدى المتلقين مفهوماً عندهم.

---

(١) تميزت ببلاغة مراثيها، وهي محبوبة توبة بن الحمير.

ومما تبدو فيه البراهين العقلية من شعر عصر العباسيين الأول، قول ابن الرومي -معللا بكاء الطفل عند ولادته[1]-:

لَمَا تُؤْذِنُ الدُّنْيَا بِهِ مِنْ صُرُوفِهَا ... يَكُونُ بُكَاءُ الطِّفْلِ سَاعَةَ يُولَدُ
وَإِلاّ فَمَا يُبْكِيهِ مِنْهَا وَإِنَّهُ ... لأَوْسَعُ مِمَّا كَانَ فِيهِ وَأَرْغَدُ
إِذَا أَبْصَرَ الدُّنْيَا اسْتَهَلَّ كَأَنَّهُ ... بِمَا هُوَ لاَقٍ مِنْ أَذَاهَا يُهَدَّدُ

ومن الشعر الذي اشتمل على البرهان العقلي، قول أبي تمام يمدح ابن المعتصم:

إِقْدَامَ عَمْرٍو فِي سَمَاحَةِ حَاتِمٍ ... فِي حِلْمِ أَحْنَفَ فِي ذَكَاءِ إِيَاسِ

فقال له الكندي الفيلسوف، وكان حاضراً وأراد الطعن عليه: الأمير فوق من وصفت، فأطرق قليلاً، ثم زاد في القصيدة بيتين لم يكونا فيها:

لاَ تُنْكِرُوا ضَرْبِي لَهُ مَنْ دُونَهُ ... مَثَلاً شَرُوداً فِي النَّدَى وَالبَاسِ
فَاللهُ قَدْ ضَرَبَ الأَقَلَّ لِنُورِهِ ... مَثَلاً مِنَ المِشْكَاةِ وَالنِّبْرَاسِ

وقول البحتري:

دَنَوْتَ تَوَاضُعاً وعلوتَ مَجْداً ... فَشَأْنَاكَ انْحِدارٌ وَارْتِفَاعُ
كَذاكَ الشمْسُ تَبعد أنْ تُسَامَى ... وَيَدْنُو الضَّوْءُ مِنْهَا والشُّعَاعُ

٢. الإكثار من نظم الحكم والأمثال.

أكثر الشعراء في عصر العباسيين الأول من إيراد الحِكَم والأمثال في أشعارهم، وقد تراوحت مصادرها بين الاقتباس والثقافات والتأثر بها واختراع الحكم والأمثال وابتكارها، واستنباطها من التجارب الواقعة في الحياة، ومن الحكم قول بشار بن برد:

إذا بلغَ الرأيُ المَشُورة فاستعِنْ ... برَأْيِ نَصِيح أو نَصِيحةِ حازمِ
ولا تجعَلِ الشُّورَى عليكَ غَضَاضَةً ... فإنّ الخَوافِي قُوّةٌ للقَوادِمِ
وما خيرُ كفٍّ أمسكَ الغُلُّ أختَها ... وما خيرُ سَيفٍ لم يُؤَيَّدْ بقائمِ

وكذلك قول القَتَّالي[2]:

ولا عارَ إن زالتْ عن الحرّ نعمةٌ ... ولكنَّ عاراً أن يزولَ التجمُّلُ

---

(١) وقد جاء في صحيح مسلم: عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ قَالَ رَسُولُ اللهِ -ﷺ- « صِيَاحُ الْمَوْلُودِ حِينَ يَقَعُ: نَزْغَةٌ مِنَ الشَّيْطَانِ ».

(١) وهو: كلثوم بن عمرو.

ومن مظاهر التجديد في الحكم: ورودها في قصائد مستقلة، كما هو الحال عند أبي العتاهية، وعند صالح بن عبد القدوس.

٣. المبالغة والتهويل الزائد.

وقد ظهرت المبالغة والتهويل في الشعر في عصر العباسيين الأول، وقد كانت هذه الطريقة معروفة عند السابقين، ولكنها مقبولة بعيدة عن الغلو، أما في عصر العباسيين فوصلت المبالغة والتهويل جدا غير مقبول في أشعار كثيرة، وذلك لعدة أسباب أقواها ما يأتي:

أ. عناية الشعراء بالمبالغة والتهويل.

ب. كثرة الشعراء الموالي.

ج. تنافس الشعراء في إظهار مقدرتهم على عمق المعاني وابتكارها.

د. شيوع الزندقة والإلحاد، وتأثر الشعراء بالثقافات المختلفة.

ه. ميل كثير من الممدوحين إلى المبالغة والتهويل فيما يُمْدَحون به من الشعر.

ومن الأمثلة المذمومة في المبالغة، قول أبي نواس:

وأَخَفْتَ أَهْلَ الشِّرْكِ حتَّى إنَّهُ ... لتخافكَ النُّطَفُ التي لم تُخْلَقِ

وقول كلثوم بن عمرو القَتَّالي في مدح خالد بن يزيد بن مزيد:

ما زلْتُ في غَمَراتِ الموتِ مُطَّرِحاً ... قد ضاق عني فسيحُ الأرضِ مِن حِيَلي

ولم تَزلْ دائباً تَسْعَى بلُطْفِك لي ... حتَّى اختلسْتَ حياتي من يَدَيْ أَجَلِي

٤. ترتيب الأفكار وتهذيبها.

عني الشعراء بأفكارهم فهذبوها ورتبوها، فجاءت القصيدة عندهم بناءً واحداً متلاحم الأجزاء، بعيدة من خلل التنظيم واضطراب السياق، وتبع تلك العناية عناية أخرى بمطلع القصيدة والانتقال من غرض إلى آخر فيها، وإجادة خاتمتها، فأما مطلع القصيدة فقد حرص الشعراء على إجادة مطالع قصائدهم وعلى مناسبتها لمقاصدهم، كما يظهر في قول أبي تمام:

أَصَمَّ بكَ الناعي وإنْ كان أَسْمَعا ... وأَصْبَحَ مَغْنَى الجُودِ بَعْدَكَ بَلْقَعا

وأما الانتقال من غرض إلى آخر في القصيدة، وهو ما يسمى بالتخلص[1]؛ فعني به الشعراء عناية واضحة، كما يظهر في قول أبي تمام في محمد الأمين:

---

(١) وكانت عند شعراء الجاهلية لزمة فيها، وهي قولهم: فعد عن ذا، كقول زهير بن أبي سُلْمى: دع ذا وعدِّ القول في هَرِم ...

وإني جديرٌ، إذ بلغْتُكَ بالمُنى ... وأنْتَ بما أمّلْتُ منكَ جديرُ
فإنْ تُولِني منك الجَميلَ، فأهْلُهُ ... وإلاّ فإنّي عاذرٌ وشَكُورُ

ثالثاً: مظاهر التجديد في الألفاظ والأساليب.

أدى تغير الحياة في عصر العباسيين الأول وتأثر الشعراء بها وبمظاهرها وبمظاهر الحضارة والمدنية وبالثقافات المختلفة إلى تأثير قوي في ألفاظ الشعر وأساليبه، ويظهر ذلك فيما يأتي:

١. ميل الألفاظ والأساليب إلى الوضوح والسهولة، والرقة والعذوبة؛ إذ ابتعد الشعراء عن غريب الألفاظ ووحشيّها، وخرجوا على المألوف منها، كما ابتعدوا عن الأساليب المعقدة، والعبارات المبهمة، ومن الأمثلة على ذلك، قول أبي العتاهية:

بكيْتُ على الشّبابِ بدمعِ عيني ... فلم يُغنِ البُكاءُ ولا النّحيبُ
فَيا أسَفاً أسِفْتُ على شَبابٍ ... نَعاهُ الشّيبُ والرّأسُ الخَضِيبُ
عريتُ منَ الشّبابِ وكنتُ غضاً ... كما يَعرَى منَ الوَرَقِ القَضيبُ
فيَا لَيتَ الشّبابَ يَعُودُ يَوْماً ... فأُخبِرَهُ بما فَعَلَ المَشيبُ

٢. شيوع الألفاظ الأعجمية وألفاظ العلوم والفنون ومصطلحاتها في الشعر.

شاعت في الشعر في عصر العباسيين الأول ألفاظ أعجمية كثيرة، إما معربة وإما باقية على أصلها، وذلك بسبب تأثر الشعراء بالثقافات الأجنبية، وبخاصة الثقافة الفارسية، إما عن طريق الاختلاط، وإما عن طريق التأثر بالثقافة المترجمة.

ومما ورد من تلك الألفاظ، لفظ: «النيروز»[1]، كما يظهر في قول البحتري:

أتاكَ الربيعُ الطلقُ يختالُ ضاحكاً ... من الحسنِ حتّى كادَ أنْ يتكلّما
وقد نبَّه «النيروزُ» في غسقِ الدجى ... أوائلَ وردٍ كنَّ بالأمسِ نوَّما

وكذلك لفظ «المهرجان»، كما يظهر في قول ابن الرومي:

يمُنَّ اللهُ طلعةَ المهرجانِ ... كلَّ يمنٍ على الأميرِ الهِجانِ

- ومن المصطلحات العلمية: «الأفعال»، و«الأسماء»، كما يظهر في قول أبي تمام يصف الخمر:

خرقاءُ يلعبُ بالعقول حَبَابُها ... كتلاعبِ الأفعالِ بالأسماءِ

٣. العناية بالمحسنات البديعية.

(٢) وهو عيد من أعياد الفرس.

ظهر البديع في الشعر قديماً، ولكنه جاء عفو الخاطر من غير تكلف أو تعمد لاقتناصه، فأما في العصر العباسي فقد عني به الشعراء عناية واضحة، واشتهرت به جماعة منهم سموا: بأصحاب البديع، وقد أدى إلى العناية بالبديع في هذا العصر، عدة أسباب منها:

أ. التأثر بالأمم الأخرى وبخاصة : الفرس، الذين كانوا مولعين بالزخرف والزينة في مجالات حياتهم المختلفة، وقد تأثر الشعراء بهم في عنايتهم بالزخارف اللفظية، والزينة في أشعارهم.

ب. تباري الشعراء في إظهار مقدرتهم على الاتيان بالمحسنات البديعية في شعرهم، وقد تفنن الشعراء في إيراد كثير من المحسنات البديعية المختلفة كالجناس والطباق وغير ذلك.

ومزج بعضهم ذلك بالاستعارة والتشبيه كمسلم بن الوليد، وأبي تمام؛ يقول مسلم بن الوليد يمدح:

يَنَالُ بالرفقِ مَا يَعيا الرِّجالُ بِه ... كَالموتِ مُستعجلاً يأتي على مَهل

ويقول أبو تمام:

وأحسن من نَوْرٍ يُفَتِّحُهُ النَدى ... بياضُ العطايا في سواد المطالبِ

٤. التخلص من أسلوب المقدمة الطللية، باستبدالها بغيرها أو تركها.

الابتداء بالحديث عن الأطلال وبكاء الديار من الأساليب الشعرية القديمة، وقد ترك كثير من الشعراء في العصر العباسي هذا الأسلوب، وبدؤوا بمقدمات تتفق مع روح العصر.

كما أن كثيرا منهم قد بدأ بموضوع قصائده مباشرة، دون أن يسبقها بمطلع طللي أو غيره.

وممن ثار على المقدمة الطللية: أبو نواس؛ إذ يجري هذا الأسلوب في مواطن ليست قليلة من شعره، كما يظهر في قوله:

قُلْ لمنْ يبْكي على رَسْمٍ دَرَسْ ... واقفاً، ما ضَرّ لو كان جلسْ

وقوله:

دعِ الرّسْمَ الذي دثَرَا، ... يقاسي الرّيحَ والمطَرَا..

٥. التجديد في الأوزان والقوافي.

أ. حاول بعض الشعراء في عصر العباسيين الأول أن يجدد في الأوزان

وكان بعضهم يأتي بما يتناسب مع الألحان الغنائية، ويميل في شعره إلى الأوزان القصيرة.

ومن محاولاتهم التجديدية، قول سَلْم الخاسر في مدح الهادي:

مُوسَى اَلْمَطَرْ * غَيْثٌ بَكَرْ * ثُمَّ انْهَمَرْ * أَلْوَى الْمِرَرْ

كَمِ اعْتَسَرْ * ثُمَّ ائْتَسَرْ * وَكَمْ قَدَرْ * ثُمَّ غَفَرْ

عَدْلُ السِّيَرْ

حيث بنى البيت على تكرار «مستفعلن» أربع مرات، فيمكن تقسيمه إلى بيتين، كل منهما يتكون من تفعيلتين.

- ومثله ظهر التجديد في الأوزان عند أبي العتاهية، ويغلب الظنّ أنه كان يتعمد التجديد؛ تأكيداً لمقدرته الفنيّة؛ لأنهم عندما راجعوه في ذلك، قال: «أنا أسنّ -أكبر- من العروض».

- ومن تجديده في الأوزان قوله:

عُتْبَ ما للخَيالِ؟! * خَبِّرِينِي وَمَالِي؟!

لا أَرَاهُ أَتَانِي * زائراً مُذْ لَيَالِي!

لَوْ رآني صَدِيقِي * رَقَّ لي، أَوْ رثَى لِي!

على وزن «فاعلات» على عكس بحر المديد.

ب. **التجديد في القوافي**: جدد بعض الشعراء في القافية كما جددوا في الأوزان، ولكن تجديدهم كان محدودا، وقد ظهر ذلك فيما اصطُلح عليه بالمزدوج والمسمّط والمخمّس.

* **أما المزدوج** * فهو الشعر تتفق عروضه وضربه في القافية التي تختلف من بيت إلى بيت.

ومما جعلهم يستخدمون هذا النوع: سهولة النظم عليه، وبخاصة في الشعر التعليمي، وقد استعمله أبان بن عبد الحميد اللاحقي في نظمه كليلة ودمنه، وكذلك أبو العتاهية في مزدوجته «أرجوزته» ذات الأمثال، كما في قوله:

إنّا لَفِي اغْتِرَارِ * بالليل والنهارِ

حَتَّى مَتَى التَّوَانِي؟ * وَنَحْنُ فِي التَّفَانِي

أين الذين كانُوا؟ * أفناهمُ الزمانُ

* **وأما المُسَمَّط** * فهو نوع من الشعر يتكون من أربعة أشطار أو أكثر، لكل شطر قافية واحدة، ما عدا الشطر الأخير، فهو يستقل بقافية مغايرة، وتتفق مع الأشطار الأخيرة، وكذلك تسمّى «عمود المسمطة» الذي ترتكز عليه، كما يظهر في قول أبي نواس يصف الخمر:

سُلَافُ دَنٍّ * كَشَمْسِ دَجْنٍ * كَدَمْعِ جَفْنٍ * كَخَمْرِ عَدْنِ

طَبِيخُ شَمْسٍ * كَلَوْنِ وَرْسٍ * رَبِيبُ فَرْسٍ * حَلِيفُ سِجْنِ

وَلَـــثْمُ خَـــدٍّ * كَطَعْـمِ شَـهْدِ * مِـنْ ذَاتِ قَـدٍّ * وَهْـــيَ تُغَنِّـــي
غِنَـــــاءُ دَلٍّ * وَضَرْبُ طَبْـلِ * وَرَمْـيُ نَبْـلِ * بِطَـرْفِ جِنِّـــي

* أما المخمس * فهو نوع من الشعر قريبٌ من المسمطات؛ إذ يأتي الشعر بخمسة أشطار لها قافية واحدة، ثم يأتي بخمسة أخرى بعدها ولكن بقافية واحدة تختلف عن القافية الأولى.

وهذه التجديدات نوع من الخروج على قيود القافية، وقد وُفِّق بعض الشعراء في تجديدهم في الأوزان والقوافي، وظهر التكلف عند بعضهم، وقد نجد هذا التفاوت عند الشاعر نفسه، وقد كانت هذه التجديدات فيما بعدُ سببا في ظهور بعض الأوزان الشعرية المخالفة للأوزان القديمة كالسلسة والمواليا والدوبيت...إلخ.

ثالثاً: الاتجاهات الدينية والسياسية والاجتماعية في الشِّعْر في عصر العباسيين الأول:

الشعر فنّ من فنون الأدب تنطبع فيه صور الحياة المختلفة، لذلك نجده في العصر العباسي الأول سجلا صادقاً للاتجاهات الدينية والسياسية والاجتماعية.

أولاً: الإتجاهات الدينية.

الاتجاهات الدينية التي ظهرت في الشعر في عصر العباسيين الأول هي:

١. العقيدة الإسلامية .

ظهرت عناية بعض الشعراء في عصر العباسيين الأول بالحديث عن العقيدة الإسلامية، كأبي العتاهية الذي يقول -مبيّنا أن الله تعالى هو الواحد الأحد الذي لا مثيل له، وأنه العادل في قضائه على الناس-:

تَعَالَى الْوَاحِدُ الصَّمَدُ الْجَلِيلُ ... وَحَاشَى أَنْ يَكُونَ لَهُ عَدِيلُ

وَكُلُّ قَضَائِهِ عَدْلٌ عَلَيْنَا ... وَكُلُّ بَلَائِهِ حَسَنٌ جَمِيلُ

-ويقول دِعبل الخزاعي -مصورا إيمانه بالله عزّوجل، وتوحيده الخالص-:

أَعَدَّ لله يَوْمَ لِقَاهُ ... دِعْبِلٌ: أنْ لّا إِلَهَ إلاّ هُوَ

٢. الحديث عن العبادات:

وهي الدليل على الواضح على صدق العقيدة، وقد ظهرت العناية بها عند بعض الشعراء في هذا العصر كابن المبارك الذي يقول عن العبادة -في ذكره لحياة العُبَّاد ونعيمهم-:

تَنَعَّمَ قَومٌ بالعبادَة والتقَى ... أَلَذَّ النَّعِيمِ ، لاَ اللَّذَاذَةَ بالخَمرِ

فَقَرَّت بِهِمْ طولَ الحياةِ عيونُهُمْ ... وكانَتْ لهُمْ والله زاداً إلى القبرِ

على برهةٍ نالوا بِهَا العزَّ والتُّقَى ... ألا وَلَذِيذَ العِيشِ بِالبرِّ والصبرِ

- وقول ابن الرّومي عن الصوم وعيد الفطر:

قَدْ مَضَى الصَّوْمُ صَالِحًا مَحْمُودًا ... فَأَتَى الْفِطْرُ صَاحِبًا مَوْدُودًا

٣. الأخلاق والآداب الإسلامية.

ظهر اهتمام الشعراء بالأخلاق والآداب الإسلامية في شعر عصر العباسيين الأول، كما نلحظ ذلك في قول الشاعر يتحدث عن الصبر ويفتخر به، ويشير إلى ثناء الله تعالى عليه:

وإني لصبّارٌ على ما ينوبني .. وحسبكَ أن الله أثنى على الصبرِ

- ويقول ابن المبارك في القناعة:

لله دَرُّ القُنُـــوعِ مِـــن خُلُـــقٍ ! كَـــمْ مَـــنْ وضـــيعٍ بـــهِ قـــد ارتفَعـــا

يَـــضيقُ صـــدْرُ الفَتَـــى بِحاجَتِـــه ومَـــنْ تأسَّـــى بدونـــهِ اتـــسَعا

٤. الجهاد في سبيل الله تعالى.

لم ينقطع شعر الجهاد منذ أن ظهر في صدر الإسلام، بل ظلّ مستمراً حتى عصرِ العباسيين الأول، حيث نجد منه نماذج كثيرة تحمد البطولات وتحمّس المقاتلين، ومن تلك النماذج قول ابن جامع التيميّ - مصوراً جيش المسلمين، وهو يحيط بالحصون الرومية -:

هَـــوَتْ هِرَقْلَـــةُ لَمَّـــا أن رأتْ عَجَبـــاً حَـــوائماً تَرْتَمِـــي بـــالنِّفط والنَّـــارِ

كـــأنَّ نِيرَانَنـــا في جَنْـــبِ قَلْعـــتِهِم مُـــصَبَّغاتٌ عـــلى أَرْســـانِ قَـــصَّارِ

ومن ذلك قول البحتري يصف جيش المتوكل:

وَمَـــا زَالَـــتِ الْأَعْـــدَاءُ تَعْلَـــمُ أَنَّـــهُ يُجَاهِـــدُهَا فِي اللهِ حَـــقَّ جِهَادِهَـــا

وَلَـــمَّا طَغَـــتْ فِي دَارِهَـــا الـــرُّومُ وَاعْتَـــدَتْ سِـــفَاهًا: رَمَاهَـــا جَعْفَـــرٌ بِحَـــصَادِهَا

أَعَـــدَّ لَهَـــا فُرْسَـــانَ جَـــيْشٍ عَرَمْـــرَمٍ عِـــدَادَ حَـــصَى الْبَطْحَـــاءِ دُونَ عِـــدَادِهَا

كَتَائِـــبُ.. نَـــصْرُ اللهِ أَمْـــضَى سِـــلَاحِهَا وَعَاجَـــلُ تَقْـــوَى اللهِ أَكْثَـــرُ زَادِهَـــا

فَـــلا تُكثِـــرِ الـــرّومُ التّـــشَكّي، فإنّـــهُ يُرَاوِحُهَـــا بالخَيـــلِ، إنْ لَمْ يُغَادِهَـــا

٥. الزهد والمواعظ.

الزهد والمواعظ من المجالات التي برز فيها الشعر في عصر العباسيين الأول، حيث نجد بعض الشعراء يتجهون في بعض أشعارهم إلى الوعظ والزهد في الدنيا، كما يظهر في قول أبي نواس:

ومـــا النَّـــاس إلاَّ هالـــكٌ وابـــن هالـــكٍ وذو نَـــسبٍ في الهَـــالكين عريـــقِ

إذا امـــتحن الـــدُّنيا لبيـــبٌ تكـــشَّفت لـــه عـــن عـــدوٍ في ثيـــاب صـــديقِ

- ويقول أبو العتاهية في التهوين من شأن الدنيا:

فـــما تعـــدل الـــدنيا جنـــاح بعوضـــةٍ لـــدى الله أو مقـــدار زَغْبَـــةِ طـــائر

فلـــم يـــرض بالـــدنيا ثوابـــاً لمـــؤمنٍ ولم يـــرض بالـــدنيا عقابـــاً لكـــافر

واتجه بعض الشعراء إلى ذكر الموت وأنّه حقٌّ لا شكّ فيه كما يظهر في قول أبي نواس:

أَفْنَيْتَ عُمْرَكَ ، والذّنوبُ تزيدُ ، والكاتبُ المحْصي عليكَ شهيدُ
كَمْ قُلْتَ لستُ بعائدٍ في سَوْءَة ، ونَذَرْتَ فيها ثمّ صرْتَ تعودُ
حتى متى لا تَرْعَوي عن لذّة ، و حِسابُها يومَ الحسابِ شديدُ
وكأنّني بك قد أتتْكَ منيّةٌ ، لا شَكّ أنّ سَبيلَها مورُودُ

- وفي مجال الوعظ نجد بعض الشعراء يرغّبون في طاعة الله ويحثّون على الاستعداد للدار الآخرة، كما يظهر في قول ابن المعتزّ:

تَرَحَّلْ مِنَ الدنيا بزادٍ منَ التُّقى ، فعُمْرُكَ أيّامٌ تُعَدّ قَلائِلُ
وَدَعْ عَنْكَ ما تَجْري بِهِ لُجَجُ الهَوَى إلى غَمَراتٍ لَيْسَ فيهِنّ عاقِلُ

ثانياً: الاتجاهات السياسية.

السياسة في اللغة: تدبير شؤون الناس، وتملُّكُ أمورهم، والرياسة عليهم، ونفاذ الأمر فيهم.

وفي الاصطلاح: هي فنّ حكم الأمم.

والشعر السياسي هو الذي يتصل بنظام الدولة الداخلي، وبنفوذها الخارجي، وبمكانتها بين الدول الأخرى.

وقد ظهرت بذور الشعر السياسي في عصر الجاهلية، وظهر بشكل واضح في عصر صدر الإسلام، وبلغ قمته في عصر الأمويين التي دار حولها الشعر السياسي في العصر العباسيّ الأول، فهي تتمثّل في رؤية الشعر للأحزاب السياسية في هذا العصر، ويظهر ذلك فيما يأتي:

١. موقف الشعر السياسي من العباسيين.

وقف الشعر السياسي مؤيداً العباسيين وتناول في سبيل هذا التأييد بعض القضايا التي تتصل بهم، وتعلي من شأنهم، ومنها:

أ. حقّ العباسيين في الخلافة:

ركز بعض الشعراء على بيان حقّ العباسيين في الخلافة، ونفيه عمن سواهم، كما يظهر في قول مروان ابن أبي حفصة:

يا ابْنَ الذي ورثَ النبيَّ محمداً دونَ الأقاربِ من ذوي الأرحامِ
الوحيُ بين بني البناتِ وبينكم قطعَ الخصامَ، فلات حين خصامِ
ما للنساء مع الرجال فريضة نزلت بذلك سورة الأنعامِ

أنّى يكونُ؟ وليسَ ذاك بكائنٍ! لبني البناتِ وراثةُ الأعمامِ؟!

فهو يبين حقهم في وراثة النبي ﷺ، وينكر أن يكون لبني البنات حقٌّ في حَجْب الأعمام عن الوراثة.

- ويقول النمري مؤكداً على أحقيّة العباسيين في الخلافة، وهم ورثة النبي ﷺ، وينفي هذا الحقّ عن بني عليّ رضي الله عنه:

إنَّ الخِلافَةَ كانَتْ إرْثَ والِدِكُمْ ... من دُونِ تَيْمٍ وعَفْوُ اللهِ مُتَّسِعُ
وما لآلِ عَلِيٍّ في إمارَتِكُمْ ... حَقٌّ، وَمَا لَهُمُو في إرْثِكُمْ طَمَعُ
يا أيُّها الناسُ لا تَعْزُبْ عُقُولُكُمُو ... ولا تُضِفْكُمْ إلى أكْنافِها البِدَعُ
العَمُّ أوْلى مِن ابْنِ العَمِّ فاسْتَمِعُوا ... قَوْلَ النَّصِيحِ فإنَّ الحَقَّ يُسْتَمَعُ

ب. التحريض على قتل بني أمية وهجائهم.

اتجه بعض الشعراء إلى التحريض على قتل بني أمية وهجائهم كما يظهر في شعر سُدَيف بن ميمون - محرضاً السفاح على قتل الأمويين وتصفيتهم-:

جَرِّدِ السَّيْفَ وارْفَعِ العفْوَ حتَّى ... لا ترى فوق ظهرها أُمَوِيّا
لا يَغُرَّنْكَ ما ترى من رجالٍ ... إنّ تحت الضُّلوع داءً دَوِيّا
بَطَنَ البُغْضُ في القديم فأضحَى ... ثاوياً في قلوبهم مَطْوِيّا

- ويقول آخر محرضاً على قتل بني أمية وعدم الرأفة بهم:

إيّاكُمُو أنْ تلينوا لاعتذارِهِمُو ... فليس ذلك إلاّ الخَوْفُ والطَّمَعُ
لو أنَّهم أمِنُوا أبْدَوْا عَداوتَهُمْ ... لكنّهم قُمِعُوا بالذلّ فانقمَعُوا

ج. الإشادة بحمايتهم للدين والتنويه بعدالتهم.

أشاد بعض الشعراء بحماية العباسيين للدين ونوهوا بعدلهم. كما يظهر في قول بشار يمدح المهديّ:

ورِثْتُم رسولَ الله بيتَ خلافةٍ ... وعِزًّا على رَغْمِ العَدُوّ وَسُؤْدَدَا
وأَنْتُمْ حُمَاةُ الدِّينِ لَوْلاَ دِفَاعُكُمْ ... لَقَدْ قَذِيَتْ عَيْنَاهُ أَوْ كَانَ أَرْمَدَا

- ويقول ابن هَرْمَة مؤكداً على صفة العدل في العباسيين:

نَفَى الظُّلْمَ عن أهلِ اليَمامةِ عدلُه ... فعاشَوا وزَاح الظُّلْمُ عنهم وباطلُهْ
وناموا بأَمْنٍ بعد خوفٍ وشِدَّةٍ ... بسيرةِ عَدْلٍ ما تُخاف غوائلُه

٢. موقف الشعر السياسي من الأمويين:

الشعراء الذين وقفوا في مجال التأييد للأمويين لا يستندون في الدفاع عن حقّ الأمويين في الخلافة إلى قرابة من الرسول ﷺ كالمؤيدين للعلويين أو العباسيين، وكان الشعراء المؤيدون لهم قلة، وهؤلاء الشعراء كانوا متأثرين بمعروف الأمويين وإحسانهم.

وقد برز في ميدان الشعر السياسي المؤيد للأمويين ثلاثة شعراء، منهم:

- أبو العباس الأعمى، ومما قاله في بني أمية:

آمتْ نساءُ بني أميّة منهمُ ... وبناتُهُمْ بمَضيعةٍ أيتامُ

نامتْ جدودُهم وأُسْقِط نجمهمْ ... والنجم يَسْقُط والجدود تَنام

خَلَتِ المنابرُ والأسرّةُ منهمُ ... فعليهمُ حتى المماتِ سلامُ

- وكذلك آدم بن عبد العزيز من أحفاد الخليفة: عمر بن عبد العزيز، ومما قاله في بني أمية هذه الأبيات التي أظهر فيها همسة نبرتها محبة قومه:

وإنْ قالتْ رجالٌ: قد تولّى ... زمانكمُو، وذا زمنٌ جديدُ

فَمَا ذَهَبَ الزَّمَانُ لَنَا بِمَجْدٍ ... وَلَا حَسَبٍ إِذَا ذُكِرَ الْجُدُودُ

وَمَا كُنَّا لِنَخْلُدَ لَوْ مَلَكْنَا ... وَأَيُّ النَّاسِ دَامَ لَهُ الْخُلُودُ؟!

- والشاعر الثالث، هو: العَبْلي، من المجيدين المخضرمين، وهو من شعراء قريش، وكان شعوره بزوال حكم الأمويين عميقاً.

٣. موقف الشعر السياسي من العلويين:

وقف الشعر السياسي مؤيداً العلويين، وقد تناول هذا الشعر في سبيل تأييدهم محورين:

أ. الاحتجاج لحقهم في الخلافة.

- ويظهر هذا الاحتجاج في قول جعفر بن عفّان الطائي:

أَنَّى يَكُونُ؟ ولَيْسَ ذاك بكائنٍ! ... لِبَنِي البَنَاتِ وِرَاثَةُ الأَعْمامِ؟!

لِلْبِنْتِ نِصْفُ كَامِلٌ مِنْ مَالِهِ ... وَالْعَمُّ مَتْرُوكٌ بِغَيْرِ سِهَامِ

- ويقول دِعبل الخزاعي -مفصحاً عن حقّ العلويين في الخلافة-:

هُمُو أَهْلُ مِيرَاثِ النبيِّ إذا اعتَزُّوا ... وهم خيرُ قادات وخيرُ حماة

وما الناسُ إلاَّ حاسدٌ ومكذبٌ ... ومُضْطَغِنٌ ذو إحنةٍ وترات

ب. تصوير ما أصاب العلويين على أيدي خصومهم من قتل وتشريد، والتفجع عليهم.

وقد صوّر هذا الجانب أبلغ تصوير الشاعر دِعْبِلُ الخزاعي، وأجودُ ما قاله في هذا قصيدته التائية التي يقول فيها، مصوراً تلك المآسي:

مَدَارسُ آيَاتٍ خَلَتْ مِن تلاوة ... ومنزلُ وحْيٍ مقفرُ العرصاتِ

ديارٌ عَفاها جَورُ كلِّ مُنابِذٍ ... ولمْ تَعْفُ للأيامِ والسنواتِ

قفا نسألِ الدارَ التي خفَّ أهلها: ... متى عهدها بالصومِ والصلواتِ ؟!

إلى أن قال:

أرى فيئهمْ في غيرهمْ متقسماً ... وأيديهمو من فيئهم صَفِراتِ

إِذَا وُتِروا مَدُّوا إِلَى واتِريهمُ ... أَكُفّاً عَن الأَوتارِ مُنْقَبِضَاتِ

سأَبْكيهمُ ما ذَرَّ في الأَرْض شَارِقٌ ... ونادى منادي الخيرِ بالصلواتِ

- وهذا ديك الجنّ الحمصي يرقي جعفر بن عليّ ويتفجع عليه:

أَلاَ أَيُّها الرُّكبانُ والرَّدُّ واجبٌ ... قِفُوا حَدِّثُونَا ما تقولُ النَّوادِبُ

إلى أيِّ فِتْيَانِ النَّدَى قَصَدَ الرَّدَى ... وأَيَّهُمُ نابتْ حِمَاهُ النَّوائِبُ

فَيَا لأبي العَبَّاسِ كَمْ رُدَّ راغِبٌ ... لِفَقْدِكَ ملهوفاً وكَمْ جُبَّ غارِبُ

بكاكَ أَخٌ لم تَحْوِهِ بِقَرَابَةٍ ... بَلَى إنَّ إخوانَ الصَّفاءِ أقارِبُ

وأظلمتِ الدُّنْيَا التي كنتَ جارَها ... كأَنَّكَ للدُّنيا أَخٌ ومُنَاسِبُ

يُبَرِّدُ نيرانَ المصائبِ أَنَّني ... أرى زمناً لم تبقَ فيه مصائِبُ

وهناك بعض الموضوعات التي دار حولها الشعر المؤيد للعلويين، ومنها:

- التحريض على الثورة ضدّ العباسيين، والحديث عن مناقب وأئمة الشيعة وإظهار الجزع والبكاء عليهم، وفارسُ هذا الميدان كما ذكرنا هو دعبل الخزاعي.

- وهناك بعض الفرق الأخرى التي أظهر الشعر السياسي صراعاتها السياسية وكشف عن موقعها من الخلافة العباسية كالموالي، والخوارج، وإن كانت قوة الخلافة العباسية قد أخفتت أصواتهم، فلم يصل من شعرهم إلا القليل الذي يعبر عن شخصيتهم السياسية.

ثالثاً: الاتجاه الاجتماعي.

اتجه الشعر الاجتماعي عدّة اتجاهات للتعبير عن بعض المظاهر الاجتماعية.

١. الحديث عن مشكلة الفقر.

اتجه بعض الشعراء إلى تصوير هذه المشكلة، كأبي العتاهية الذي بيّن حالة الفقراء للخليفة عندما ارتفعت الأسعار، وطلب منه التخفيف عنهم، فالأغنياء يستطيعون شراء ما يريدون، أما الفقراء فيقف فقرهم حاجزا بينهم وبين ذلك، وذلك حين قال:

مَنْ مُبْلِغٌ عَنِّي الْإِمَا * مَ نَصَائِحاً مُتَوَالِيَةْ؟
إِنِّي أَرَى الْأَسْعَارَ أَسْـ * ـعَارَ الرَّعِيَّةِ غَالِيَةْ!
وَأَرَى الْمَكَاسِبَ نَزْرَةً * وَأَرَى الضَّرُورَةَ فَاشِيَةْ!
وَأَرَى غُمُومَ الدَّهْرِ رَا * ئِحَةً تَمُرُّ وَغَادِيَةْ!
وَأَرَى الْيَتَامَى وَالْأَرَا * مِلَ فِي الْبُيُوتِ الْخَالِيَةْ!
مِنْ بَيْنِ رَاجٍ لَمْ يَزَلْ * يَسْمُو إِلَيْكَ وَرَاجِيَةْ!
يَشْكُونَ مَجْهَدَةً بِأَصْـ * ـوَاتٍ ضِعَافٍ عَالِيَةْ!
يَرْجُونَ رِفْدَكَ كَيْ يَرَوْا * مِمَّا لَقُوهُ الْعَافِيَةْ

إلى أن قال:

أَلْقَيْتُ أَخْبَاراً إِلَيْـ * ـكَ مِنَ الرَّعِيَّةِ شَافِيَةْ

- وكأبي فرعون الأعرابي الذي صور حالة أولاده الجياع العراة الأجسام، وقد دهمهم الشتاء القارس، وهم بغير غطاء، فلم يجدوا إلا صدر أبيهم وظهره، فالتفوا حوله يلتصقون به التماساً للدفء! وهم يبكون من شدة الجوع والبرد، فيعللهم بطلوع الفجر، قائلا:

وصبيةٍ مثلِ صغارِ الذرِّ ... سودِ الوجوهِ كسوادِ القدر
جاءهم البَرْدُ وهُمْ بِشَرِّ بغيرْ قطفٍ وبغيرْ دُثُرِ
تراهمُو بعدَ صلاةِ العصرِ بعضهمُ مُلتصقٌ بصدري
وبعضهم مُنْحَجِرٌ بحَجْرِي إذا بكوا عَلَّلْتُهُمْ بالفَجْرِ

٢. التعبير عن حياة المجون واللهو والترف.

صور بعض الشعراء المجون واللهو والترف، فتحدثوا عن حانات الخمر ومجالس الشراب، وتعرّضوا لبعض الفحش في أشعارهم، فأظهروا ما كانوا فيه من استهتار أخلاقي وانحلال ديني، وهذا النوع من الشعر يظهر عند بشار بن برد وحماد عجرد وأبي نواس وغيرهم من «عُصْبَةِ الْمُجَّان».

* وممن صور مظاهر الترف الشاعر العماني، أحد رُجّاز القرن الثاني الهجري، وذلك حين كان واصفاً ما أكله على مائدة أحد الأثرياء:

جاؤوا بفُرْنِيٍّ لهم مَلبونِ ... باتَ يُسَقَّى خالصَ السُّمُونِ
مُصَوْمَعٍ أَكْوَمَ ذي غُصونِ ... قد حُشِيَتْ بالسُّكَّرِ المَطحُونِ
ولَوّنوا ما شِئْتَ من تلوينِ ... من باردِ الطَّعامِ والسّخينِ
ومن إِوَزٍّ فائقٍ سَمِينِ ... ومن دَجاجٍ قِيتَ بالعجِينِ
وَفكَّهُوا بعِنَبٍ وتِينِ

٣. الحديث عن فساد الإدارة.

تحدث بعض الشعراء عن فساد الإدارة، وذكروا بعض معايب رجالها، كالاختلاس والظلم وسوء تدبير الأمور، كما يظهر في قول البحتري في رجل كان يتولى بريد الرقة:

إليكَ، أميرَ المُؤمنينَ، رِسَالَةٌ ... منَ الغرْبِ تَسْتَقْرِي فِجاجَ المَشارِقِ
أُعيذُكَ بالنّعْمَى مِنَ الله أنْ تَرى ... قُدَامَى جَنَاحِ المُسْلِمينَ لفَاسِقِ
نَعَى العَدْلَ، شَرْقيَّ البلادِ، بجَوْرِهِ ... عَلَينا، وَبَاعَ النّاسَ ثَمّ بِدانِقِ

٤. وصف المظاهر الحضارية في المجتمع.

وصف بعض الشعراء بعض مظاهر مجتمعهم الحضارية كالقصور والحدائق وغيرها، كقول ابن الجهم واصفاً بعض القصور الفخمة والحدائق الضخمة:

صُحُونٌ تُسَافِر فيها العُيونُ ... وتَحْسَرُ من بُعْدِ أَقْطارِها
وقُبَّةُ مُلْكٍ كأنّ النُّجو ... مَ تُصغِيه إليْهَا بأَسْرَارِها
وفَوَّارَةٍ ثَأْرُها في السَّمَا ... ءِ فَلَيْسَتْ تُقَصِّرُ عَنْ ثَارِها
تَردُّ على المُزْنِ ما أَسْبَلَتْ ... على الأرضِ من فَيْضِ مِدْرَارِها

٥. التغبير عن الفضائل الخلقية:

عبّر بعض الشعراء عن كثير من الفضائل الخلقية، وأشادوا بها وحثّوا على التحلّي بتلك الفضائل؛ لما شعروا به من عظيم فائدة الأخلاق، فهي قوام المجتمع، ومما عبر عنه الشعراء من تلك الفضائل: «الحلم والتسامح»، كما يظهر في قول أبي العتاهية مفصحاً عن حلمه وتسامحه مع من يغضبه:

كم من سفيهٍ غاظَني سَفَهاً ... فشَفَيْتُ نفسي منه بالحِلْم

وكَفَيْتُ نفسي ظلمَ عاديتي ومنحتُ صفوَ مودّتي سِلْمي
ولقد رُزِقتُ لظالمي غِلْظاً ورَحِمتُه إذ لجّ في ظُلْمي

- وكذلك فضيلة التواضع، كما يظهر عند الشاعر «محمود الوراق» مبينا أن الكبر فساد للدين ونقص للعقل وسبيل إلى الذمّ، فعلى المرء العاقل تركه، وبسط وجهه للناس عند العطاء، وذلك في قوله:

التِّيه مَفسدة للدِّين، منقصة للعَقل، مجلبة للذمّ والسخَطِ
مَنْع العطاء وبَسْط الوجه أحسنُ من بَذْل العطاء بوَجْه غير منبسط

- وكذلك تحدث الشعراء عن بعض مكارم الأخلاق العامة، كما يظهر في قول الحسين بن مطير الأسدي:

أُحِبُّ مكارِم الأخلاق جَهْدِي وأَكْره أن أَعيب وأن أُعابَا
وأَصْفَح عن سِباب النَّاس حِلْماً وشرُّ الناس مَن يَهْوَى السِّبابا
وأترك قائل العوراء عمداً لأهلكه، وما أعيا جوابا

- وكذلك عبر بعض الشعراء عن آداب الصداقة والصديق، كما يظهر في قول «الخريمي» متحدثاً عن خلال الصديق، ووجوب الوفاء له، والطريقة المثلى في التعامل التي يحفظ فيها الصديق صديقه:

أسرّ خليلي شاهداً وأبرّه وأحفظه بالغيب حين يغيبُ
وإنِّي لتصفو للخليل سريرتي وإن جعلت أشياءُ منه تريبُ
أعاتبهُ مزحاً وأعرض بالَّتي لها بينَ أثناءُ الضلوع دبيبُ
فإن فاء لم أعدد عليه ذنوبه.. وهل بعد فيئات الرجال ذنوبُ؟
وإن لجّ في هجري صفحت تكرّما لعلّ الحجى بعد الغروب يثوبُ

* مَدْرَسَةُ الطَّبْعِ وَالصَّنْعَة *

بدأ التجديد يظهر في الشعر من أوائل القرن الثاني الهجري، وهو بداية عهد الشعراء المحدثين الذين بدا ظهورهم من عصر بشار بن برد، ومروان بن أبي حفصة، ومطيع بن إياس، وغيرهم من المخضرمين.

وقد ظهرت بسبب ذلك قضية القديم والحديد في الشعر؛ لأن مفهوم الشعر عند المحدثين يختلف عنه عند القدامي، فالشعر عند القدامي كلام يجري على السليقة والفطرة، ومعان توحي إليهم حياتهم. وأهم خصائصها: الوضوح والسهولة بعبارات قوية رصينة جزلة، لا يقصد بها إلا إبراز المعنى وتجديده، وأما عند المحدثين فقد صار الشعر فنا وصنعة، وصارت الألفاظ تتبدل والعبارات تتغير؛ لأن المعنى يكمل بذلك أو يتحلى أو يتجدد، بل ليحدث اللفظ طرباً في السمع، ويتحقق به للشاعر نوع من أنواع البديع.

وقد وقف علماء اللغة ورواة الأشعار كحماد الراوية، وخلف الأحمر، والأصمعي، وأبي عمرو بن العلاء، وغيرهم =موقفاً متشددا تجاه الشعر المحدث، حيث كانوا يرون أن الشعر القديم هو المثل الأعلى الذي ينبغي أن يحتذيه الشعراء، وأن يلتزموا بعموده ولا يخرجوا عليه، وتأكيداً لهذا الهدف جمعوا عيون الشعر القديم منذ عصر الجاهلية حتى عصر الأمويين، ووضعوا بعض المقاييس التي ينبغي التزامها عند اختيار الأشعار.

النثر في العصر العباسي الأول

ازدهر النثر ازدهارا قويا في عصر العباسيين الأول وارتفعت منزلته؛ وذلك بسبب تأثره بالثقافات والمعارف المتنوعة، كالثقافة الدينية واللغوية، والثقافات الأجنبية المختلفة التي تأثرت في أدب هذا العصر وأدبائه.

وقد بلغ النثر الفني منذ مطلع القرن الثالث الهجري منزلة عظيمة من الرقي والازدهار، وكان «الجاحظ» هو حامل لواء النثر في هذا القرن، وصاحب الطريقة الجديدة في النثر الأدبي، تلك الطريقة التي كونت مدرسة جديدة في النثر الفني اتسم أسلوبها بالسهل الممتنع والميل إلى الاستطراد والترف في الألفاظ والعبارات.

وقد ظهر في الأدب في العصر العباسي الأول ألوان أدبية كثيرة، وتعددت موضوعاته، وبرزت خصائصه الواضحة.

فنون النثر الفني:

والنثر الفني هو: الكلام الذي صدر عن عاطفة مؤثرة، وصيغت أفكاره صياغة جيدة، ونظمت تنظيما حسنا، ولم يكن جاريا على وزن من أوزان الشعر .

وهو ينقسم إلى قسمين كبيرين:

١. ما كان عِمَادُهُ اللسان، وأبرز أنواعه الخطابة.

٢. ما كان عِمَادُهُ القلم، وهذا النوع يسمى الكتابة الفنية.

- ومن فنون النثر الفني مايأتي :

أولاً: الخطابة.

فقد ازدهرت الخطابة في بداية عصر العباسيين الأول وبخاصة السياسية، وذلك بسبب استيلاء العباسيين على الخلافة وقيام دولتهم، حيث كان ذلك حدثا عظيما تغيرت بسببه أحوالٌ كثيرة، فتحركت مشاعر الناس وثارت خواطرهم وهاجت نفوسهم، فكثر الجدل وقامت دعوات المناظرة لبني العباس والساخطة على بني أمية المنكرة لسياستهم مع الرعية.

وكانت الخطابة هي خير سلاحٍ استخدمه العباسيون في ميدان الجدل والمناظرة؛ لبيان حقهم في الخلافة، ولذلك أرسلوا دعاتهم وبثوا خطباءهم في كل مكان؛ ليعلنوا للناس بما أوتوا من حجة حقهم في خلافة

المسلمين، وإمامتهم بعد النبي ﷺ، وليردوا على خصومهم الطاعنين في ذلك، والساعين للإطاحة لحكمهم من علويين وخوارج وغيرهم.

كما زادت عناية العباسيين بالخطابة في المواقف الدينية كالأعياد الإسلامية وغيرها؛ لحرصهم على الظهور بالمظهر الديني الذي يكشف عن حبهم للإسلام وغيرتهم عليه والقيام بحق إمامة المسلمين، ولذلك كانوا يخرجون في تلك المناسبات، ويخطبون في الناس ويلقون عليهم العظات البليغة=إقتداءً بالسابقين من الخلفاء الراشدين وغيرهم، ومما أدى إلى ازدهار الخطابة أنها كانت وسيلة العباسيين لبيان سياستهم للرعية، كما كان للفتن التي اشتعلت نارها في هذا العصر أثرٌ قوي في ازدهار الخطابة كفتن الخوارج والشيعة وغيرهم، فقد قيل فيها خطب كثيرة.

كما كان للوعظ الديني أثرٌ قوي في ازدهار الخطابة ورُقِيّها في هذا العصر، وقد شارك فيه الخلفاء العباسيون وغيرهم من الخطباء؛ لأنه يعد أساسا من أسس الدين السامية التي فرضت في صلاة الجمعة والعيدين والحج وهو من باب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.

وكان لسلامة المَلَكات لدى العباسيين وفصاحة ألسنتهم أثر قويٌّ في نهضة الخطابة ورُقِيّها، وكذلك حياة كثير من الخطباء في البادية وهي يومئذٍ مهد الفصاحة والبيان، وكان بعضهم يفد على الخلفاء مع أقوامهم وتكون لهم مواقف خطابية بارزة.

وقد بدأ الضعف يَدِبُّ على الخطابة منذ أن اعتمد بعض الخطباء على إلقاء بعض الخطب المحفوظة، وقلّ شأن الخطابة في أواخر العصر العباسي الأول؛ لقلة الأسباب الداعية إليها=لاستقرار الدولة، ولضعف المَلَكات، ولأن الكتابة قد أغنت عن الخطابة في مواطن كثيرة؛ لتنوع أساليبها واتساع أغراضها، ولم يبق للخطابة سوى مظهرها الديني في الجمع والأعياد وفي موسم الحج من حينٍ لآخر في هذه المواقف.

- **أنواع الخطابة :**

تنوعت الخطابة في هذ العصر، وأبرز أنواعها مايأتي:

أولاً: الخطابة السياسية.

كثرت الخطب السياسية في صدر العصر العباسي الأول، وبلغت مدىً بعيداً من الازدهار والرقي؛ لوجود الأسباب الداعية إليها، والمواقف التي تكثر فيها كالدعوة إلى الإعتراف بحق العباسيين في الخلافة، والرد على خصومهم من علويين وغيرهم.

ولما استقر حكم العباسيين وزالت تلك الأسباب –أوكادت– بالقضاء على الثورات=ضعفت الخطابة السياسية؛ لأنها لا تزدهر إلا عندما ينشط الصراع بين الأحزاب السياسية، وتُعَبِّرَ عن أرائها بصراحة.

ثانياً: الخطابة الدينية.

كان للخطابة الدينية حضورٌ قويٌ في المواقف الدينية الدائمة كالجُمَع والأعياد ومواسم الحج، وكان الخطباء العباسيون وولاتهم يشاركون فيها «كالمنصور، والرشيد، والمهدي» الذين حفظت لهم كتب الأدب والتاريخ كثيراً من الخطب البليغة، وما لبثت الخطابة الدينية أن ضعفت على أيدي الخلفاء والولاة عندما اعتمدوا على الخطابة بكلام غيرهم، وبقيت الخطابة الدينية مزدهرة على أيدي الوُعَّاظِ والزُهَّاد الذين كانوا يعظون الناس في المساجد وغيرها.

كما كان بعضهم يَعِظ الخلفاء عندما يحضروا مجالسهم، وقد يكون ذلك بطلب منهم أحياناً، وكان أولئك الوعاظ يستمدون مواعظهم من كلام الله وكلام رسوله ﷺ ومما قاله الصحابة عنهم، ومن كلام الوعاظ الذين سبقوهم في عصر الأمويين «كالحسن البصري» الذي كان واعظاً مشهوراً، «وابن سيرين» وغيرهم.

وكانت تشيع في مواعظ الوعاظ في عصر العباسيين الأول قوة الإيمان بالله عزوجل، والثقة القوية فيه تعالى، وأن ماعنده خير لمن طلبه مماعند الناس؛ ولذلك أثرت مواعظهم في مجتمعهم، وغرست في النفوس حب الدين والثقة بالله والرغبة فيما عنده؛ لأن ما عند الله خيرٌ وأبقى من عرض الدنيا الزائل.

ثالثاً: الخطابة الحفلية.

ضعفت الخطابة الحفلية كالخطابة السياسية؛ وذلك لانقطاع الوفود عن قصور الخلفاء، وبقيت لها بعض المواقف التي كانت تظهر فيها من حينٍ لآخر، كالتعزية في موت خليفة، أو التهنئة بتولية خليفة جديد، أو الجمع بينهما أحياناً.

سمات الخطابة :

ظهرت الخطابة في عصر العباسيين الأول سمات فنية واضحة في مايلي :

أ. الألفاظ والتراكيب.

تشبه ألفاظ الخطابة وتراكيبها في العصر العباسي الأول ألفاظ وتراكيب الخطابة في عصر الأمويين، وتختلف عنها في الميل إلى العذوبة، ولعل ذلك بسبب تأثرها بالحضارة وبعدها عن البداوة، كما يظهر فيها مناسبة الألفاظ والتراكيب للمعاني وملائمتها لما يقتضي المقام، وكذلك الإكثار من الفقرات القصيرة، وتكرار بعض الألفاظ والتراكيب لتأكيد المعاني.

ب. سمات الصور البيانية.

يظهر في الخطابة في هذا العصر كثير من الصور البيانية (كالتشبيه، والاستعارة، والكناية)، ويكشف ذلك عن عناية الخطباء بها.

ومن أمثلة التشبيه، قول المهدي في خطبة له: «إنكم سَفْرٌ مُجْتَازُون»، وكذلك قول داود بن علي: «الآن يأخذ القوس باريها».

كما ظهر الاختراع والجمال الفني في كثير من الصور البيانيّة.

ج. جمال الأداء الصوتي.

ومما حققه في الخطب: اختيار الكلمات ذات الجرس الصوتي الجميل والازدواج والسجع، وغير ذلك ممايخدم هذا الجانب.

د. المعاني.

مالت المعاني في الخطابة إلى المبالغة والتهويل، وبخاصة فيما يتصل بالحديث عن منصب الخلافة، وظهر فيها كذلك التفنن في المعاني والغوص على عميقها والبحث عن دقيقها، ولعل بعض ذلك يرجع إلى التأثر بما ترجم من الثقافات الأجنبية.

كما نجد المعاني الدينية تشيع في الخطابة في ذلك العصر، ونجد بعض المعاني تميل إلى الوعيد والتهديد.

هـ. العاطفة والإقناع.

تظهر العاطفة الصادقة في كثير من الخطب كالخطب الوعظية وغيرها؛ لأن تلك المواعظ كانت نابعة من نفوس الوعاظ، وتدل على مشاعرهم الصادقة تجاه الناس وحرصهم على إرشادهم إلى الخير وكَفِّهم عن الشر.

ثانياً: الكتابة الفنيّة.

وهي النثر الذي كُتِب بالقلم، وحرص فيه كاتبه على التأنق في الأسلوب وجمال الصورة الفنيّة والأداء الصوتي وتنظيم الأفكار، وسموّها، وأضفى عليها شيئا من مشاعره وأحاسيسه؛ ليحقق بذلك متعة فنيّة للمتلقي وراحة نفسية.

وقد نهضت الكتابة الفنيّة نهضة عظيمة في عصر العباسيين الأول؛ لظهور كتاب ذوي مواهب أدبية عظيمة، ولانتشار الثقافات المختلفة وقوة تأثيرها في الأدباء، كما كان تشجيع الخلفاء وغيرهم من الوزراء والأمراء وتنافس الأدباء في ميدان الكتابة =أثرٌ قويّ في نهضة الكتابة الفنيّة ورقيّ مستواها الفنيّ.

- خصائص الكتابة الفنية :

١. التأنق في استخدام الألفاظ والتراكيب وحسن انتقائها والدقة في استعمالها وميلها إلى السهولة والوضوح، وقوة السبك، والعناية بتجويد الأساليب، وتهذيبها والمزاوجة بين البلاغة في الإيجاز والإطناب حسب ما تتطلبه الأحوال، وإن كان الحرص على الإيجاز هو السمة الظاهرة في الكتابة الفنية.

كما يظهر في الكتابة الفنية بعض المصطلحات العلمية والفلسفية والمنطقية وبخاصة في عصر «الجاحظ»، ويظهر في الكتابة الفنية كذلك: تهويل الخطاب، وتعديل الألقاب، وشيوع بعض التراكيب الدعائية، مثل: «أطال الله بقائك»، و«وأكرمك الله»، و«أعزك الله» وغير ذلك.

٢. ظهور كثير من الصور المبتكرة ويبدو في بعضها التأثر بمختلف الثقافات.

٣. العناية بجمال الآداء الصوتي.

ويتجلى في حرص الكتّاب على اختيار الألفاظ ذات الجرس الصوتي الجميل وإكثارهم من استخدام المحسنات البديعية -ولكن من غير تكلف أو إفراط بخلاف ما حصل بعد هذا العصر-، كما تظهر عناية الكتّاب بالتوازن بين العبارات لما لها من أثر قوي في الأداء الصوتي.

٤. عمق المعاني واستقصائها وتنوعها وابتكارها وسلامتها من عيوب المعاني وتأثرها بالثقافات المختلفة، وتظهر ملامح ذلك في استخدام العلم والفلسفة والمنطق في استخراج البراهين والنتائج والأحكام في سبيل الإقناع.

- ومن السمات الواضحة في جانب المعاني والأفكار: (التأثر العميق بالإسلام) .

٥. العاطفة.

ظهرت العاطفة في النثر الفني وتميزت بالصدق والقوة في كثير منها، وبخاصة في أغلب الرسائل الإخوانية والخطب الوعظية والتعازي .

٦. بناء الرسالة.

نوّع الكتّاب في بدايات رسائلهم وتفننوا في اختراع المقدمات التي صدور بها تلك الرسائل، وأكثروا من التحميدات في بداياتها، وظهرت استفادتهم في بعض المقدمات التي كانوا يفتتحون بها بعض رسائلهم الطويلة من الفرس، وكذلك نوّع الكُتّاب في خواتيم الرسائل، وتراوحت رسائلهم بين الطول والقصر، وذلك حسب مقتضيات الأحوال، كما تميزت الرسائل بترابط الأفكار وتسلسلها.

* أنواع الكتابة الفنيّة *

تنوعت الكتابة الفنيّة، وأبرز أنواعها ما يأتي:

١. الرسائل.

وهي نوعٌ أدبي جميل يكتب في بعض الشئون العامة والخاصة، ولذلك فلها عدّة أنواع تبعا لتنوع موضوعاتها التي تعالجها، وأظهر تلك المعاني ما يأتي:

أ. الرسائل الديوانية.

ويقال لها: «الرسائل الرسمية»، وهي: الرسائل التي تصدر من ديوان الدولة أو الولاية، وتتناول بعض الشئون الإدارية والسياسية، وقد كثرت الدووابن في الدولة العباسية لاتساعها وكثرة أعمالها، ومن تلك الدووابن:

- ديوان الخراج والنفقات.
- وديوان الجيش.
- وديوان المظالم والشرطة.
- وديوان القضاء... إلخ.

ودرة هذه الدواوين، هو: «ديوان الرسائل»؛ لأنه أهمّ ديوان في الدولة، ولذلك لا يتولى أمر الكتابة في إلا كبار الكتاب، وكانت الكتابة التي تصدر فيه وترد إليه في ذلك العصر تعتمد على الأسلوب الجميل المتأنق، والاحتفال بالمعنى وإبرازه في صورة تجعله واضحاً مقبولاً لدى متلقّيه.

أما الدووابن الأخرى فالكتابة فيها تقتصر على ضبط الحسابات وتقييد النفقات والإيرادات، وغير ذلك من التي لا تكون موطناً لبيان، ولا مظِنّةً لفصاحة لسان!

ب. الرسائل الإخوانية.

وربّما كانت تسميتها بـ«الشخصية» أدقّ من تسميتها بـ«الإخوانية»؛ لأنه قد يرد في بعضها ما يتنافى مع روح الأخوة والمودة، والرسائل الإخوانية هي التي يتبادلها الأشخاص فيما بينهم، ويتناولون فيها بعض الموضوعات الخاصة كالتهنئة أو التعزية أو الشفاعة أو العتاب أو الشكوى أو الاعتذار، أو غير ذلك مما يمكن أن يصلح موضوعاً لها.

وكانت هذه الموضوعات فيما سبق ميداناً للشعر، ولكن النثر زاحمه فيها في عصر العباسيين الأول؛ لمرونته في تناول الموضوعات المختلفة، وقدرته في التعبير عنها، وتصويرها واستيعاب معانيها؛ لأنه غير مقيّد

بالوزن والقافية، ولظهور طبقة من الكتاب أصحاب مواهب عظيمة وثقافة واسعة=استطاعت أن تطوّع النثر لتناول الموضوعات المختلفة.

وقد ازدهرت الرسائل الشخصية في عصر العباسيين الأول وكثرت كثرة لافتة، وهي تتبوأ منزلة عالية في ميدان الأدب؛ لأنها تتصف بسعة الموضوعات، والقدرة على التفنن في تناولها، وعذوبة البيان في التعبير عنها، وقوة الإبانة عن أفكار كاتبها ومشاعره، والكشف عن أخلاق الناس وميولهم المتنوعة.

ومن نماذج هذه الرسائل، رسالة «إبراهيم بن أبي يحيى الأسلمي» إلى «المهدي» يعزّيه في وفاة ابنته:

«أما بعد... فإن أولى من عرف حق الله عليه فيما أخذ منه، مِنْ عِظَم حَقِّ الله جل وعز عنده فيما أبقى له.

واعلم أن الماضي قبلك الباقي لك، وأن الباقي بعدك هو المأجور فيك، وأن أجر الصابرين فيما يصابون به أعظم من النعمة عندهم فيما يعافون منه».

ج. الرسائل الأدبية.

تعدّ الرسائل الأدبية ثمرة من ثمرات الرسائل الإخوانية؛ لأن الكتاب قد تفننوا فيها ومالوا إلى الإطالة في بعضها، فأدى ذلك تحويلَها إلى رسائل أدبية خالصة.

والرسائل الأدبية هي الرسائل التي يكتبها بلغاء الكتاب ويصورون فيها ما يعرض لهم من خواطر وآراء في الشؤون الاجتماعية أو الفكرية أو الأدبية، وقد تكون تلك الرسائل ترويحاً من النفس أو تأييدا لفريق آخر أو تصويرا لأهواء النفس وخصائصها، وتوضيح طريقٍ أكبر منها حتّى لا تقع في مسالك الشرّ.

ومن تلك الرسائل، رسالة الجاحظ: «التربيع والتدوير»، و«الحاسد والمحسود»، و«مناقب الترك».

ورسالة يحيى بن زياد التي ردّ بها على رسالة عبد الله بن المقفّع عندما طلب منه أن يكون بينهما مودة وإخاء، وغير ذلك...

* مدارس النثر الفني *

للنثر الفني في هذا العصر عدة مدارس جعلها بعض الدارسين أربعاً وبعضهم جمعها في مدرستين أو في طبقتين وهما :

الأولى: «مدرسة ابن المقفع»، وهو زعيم هذه المدرسة، وتتسم طريقته في الكتابة بما يأتي:

أ- تنويع العبارة وتقطيع الجملة .

ب - المزاوجة بين الكلمات .

ج - توخي السهولة .

د- العناية بالمعنى .

هـ - الزهد في السجع .

وقد تحدث ابن المقفع عن البلاغة فقال: «هي التي إذا سمعها الجاهل ظن أن يحسن مثلها».

كما أوصى بعض الكُتّاب بقوله : «إياك وأن تتبع الوحشي من الكلام طمعا في نيل البلاغة؛ فإن ذلك هو العي الأكبر».

وقال كاتب آخر: (عليك بما سهل من الألفاظ، مع التجنب لألفاظ السّفَلة).

ومن أعلام هذه المدرسة:

١/ يعقوب بن داوود.

٢/ جعفربن يحيى.

٣/ الحسن بن سهل.

٤/ عمرو بن مَسْعَدة.

٥/ الحسن بن وهب.

الثانية: «**مدرسة الجاحظ**»، وهو يعد إماماً لها، وطريقته وطريقته في الكتابة تشبه طريقة ابن المقفع في سهولة العبارة وجزالتها، وتمتاز بتقطيع الجملة إلى فقرات كثيرة مقفاة أو مرسلة، وزيادة الإطناب في الألفاظ والجمل، والاستطراد ومزج الجد بالهزل لرفع سآمة القارئ، وتحليل المعنى واستقصائه، وتحكيم العقل والمنطق، والاعتراض بالجمل الدعائية.

ومن أعلام هذه المدرسة : «ابن قتيبة، والمبرد، والصولي، ... وغيرهم».

* التوقيعات *

التوقيعات من أنواع الكتابة الفنية، ويقصد بالتوقيع في اللغة عدة معاني. منها:

١. التقدير والتنزيل، يقال: «وقع ظنه على الشيء» أي: قدره وأنزله.

٢. الإصابة والتأثير.

٣. والتوقيع في الكتاب: إلحاق شيء في آخره بعد الفراغ منه.

وفي الاصطلاح: قولٌ موجزٌ بليغٌ، يوقعه الخليفة أوالأمير أوالوزير أوكاتب الديوان في أسفل الكتب رداً على مايصله من شكاوى أورجاء أو اسشارة أوغير ذلك، وقد نشأ هذا الفن عن الرسائل الديوانية للحاجة إليها؛ لذلك فهو يعد رسالة موجزة.

وقد شاع في العصر العباسي الأول ونال شهرة واسعة واهتم به الخلفاء و الوزراء والأمراء لتميزه بالبلاغة والإيجاز.

- **أصالة فن التوقيعات في الأدب العربي :**

أشاع بعض الشعوبين أن فن التوقيعات فن فارسي لم يعرفه العرب ولم يهتدوا إليه إلا بعد أن اختلطوا بالفرس بعد فتح بلادهم، وقد تبنى هذا الرأي ودافع عنه بعض المستشرقين جريا على عادتهم فيما يسيء للأمة العربية المسلمة، وتابعهم في ذلك بعض الدارسين من أمثال: «أحمد أمين»، وهذا الرأي باطل لعدة أسباب:

١. أن العرب قد عرفوا التوقيعات منذ عهد مبكر، وقبل أن يتسع اختلاطهم بالفرس. ومما يدل على ذلك: ماورد في الكتب من توقيعات الخلفاء منذ عهد عمر بن الخطاب ﷺ.

ولاشك أن الفارسية لم تكن معروفة في صدر الإسلام وعصر الأمويين كما عرفت في عصر العباسيين الأول، كما أن الترجمة لم تكن بدأت.

٢. الإيجاز من أخص سمات التوقيعات، ولذلك ندرك أنها فن عربي؛ لأن العرب كانوا يحبون الإيجاز، ويمدحون به، وقد كان الإيجاز هو السمة الغالبة على الأدب العربي وخاصة في عصوره الأولى، ولا شك أن الذين استعربوا كانوا يجارون العرب في هذا المجال، ورأوا أن فن التوقيعات خير مايثبت قدرتهم على الإيجاز فأثر عنهم توقيعات كثيرة.

٣. ومما يؤكد أن فن التوقيعات فن عربي من الأمثال العربية التي عرفها العرب قبل البعثة، والأمثال جملٌ موجزةٌ تشبه إلى حد كبير التوقيعات ،ولذلك يمكن عدها فن المجذور التاريخية لهذا الفن.

- **ومن التوقيعات الجميلة في عصر العباسيين الأول :**

- توقيع (لأبي العباس السفّاح) في كتاب لجماعة من بطانته يشكون إليه احتباس أرزاقهم: «من صبر في الشدة، شارك في النعمة».

- وتوقيع الرشيد لوالي خراسان: «داوِ جرحك لايتسع».

- وتوقيع المأمون على شكاية متظلم: «ليس بين الحق والباطل قرابة».

ويقال إن من أبلغ كتّاب التوقيعات: «جعفر البرمكي»، حيث كانت توقيعاته تنسخ وتدرس لطلاب الأدب والبلاغة ويتنافسون في تحصيلها، كما أن «الفضل بن يحيى» قد اشتهر بتوقيعاته البليغة، وكثيرا ما كانوا يوقعون بآيات من القرآن الكريم أو الحديث الشريف أو بِمَثَل أو ببيتٍ من الشعر.

جـ – اتجاهات الشعر في العصر العباسي :

بدأ العصر العباسي بظهور اتجاهين شعريين متباينين : الأول ينهج نَهْج القدماء و يسلك طريقتهم ، و الثاني يحاول الظهور بنهج شعري جديد مختلف يُعبِّر عن عصره و مشاعر أصحابه.

أولاً : الاتجاه القديم :

و نعني به المحافظة على طريقة القدماء في نَظْم الشعر ، حيث يقوم الشاعر بنظم قصيدته بلغة و صور مستمدّة من النموذج الجاهلي القديم ، محاكياً إياه محاكاة تامة.

و قد كان لعلماء اللغة تأثير في دفع الشعراء إلى النظم على طريقة القدماء ، فقد جمعوا لهم اللغة و الشعر الجاهلي و الإسلامي ، و وضعوا لهم قواعد يسيرون عليها ، و كأنهم بهذا الصنيع يريدون من الشعراء ألا يَحِيدوا عن ذلك النهج ، بل إنهم ظلّوا طوال العصر يعتقدون فيهم الإيمان بأن الشعر القديم هو القدوة المُثلى ؛ و لعلّ هذا ما دعاهم إلى أن يُسْقِطوا كثيراً من شعر المُحْدَثين لا لسبب إلا لكونه حديداً ، خرج عن المثل الشعري القديم الذي يتمسك به اللغويون تمسكاً شديداً .

و لم يكن الباعث على تلك المحافظة لغويًّا فحسب بل دينيًّا أيضًا ، فقد خاف علماء الدين و علماء اللغة معاً أن تَستغْلِق دلالات ألفاظ القرآن الكريم و الحديث الشريف على إفهام الناس ؛ و خاصة أن كثيراً منهم كانوا حديثي عهد بالدين الإسلامي و اللغة العربية .

كذلك وقف الخلفاء العباسيون موقف علماء الدين و اللغة ، فقد حثّوا العلماء على دراسة العربية و التعمّق فيها ، و كانوا لا يَستوزِرون و لا يستكتبون إلا من حذقها ، و قد كان كبار اللغويين أساتذة لمعظم الخلفاء العباسيين ، و كان هؤلاء الأساتذة يَمْثلون أمام الخلفاء حين يمدحهم الشعراء ، فكان لا بدَّ للشعراء أن يَروُقهم حتى ينالوا استحسانهم ، و يرى الخلفاء ذلك منهم فيجزلوا للشعراء العطاء .

لذا بدأ هذا العصر بظهور طائفة من الشعراء تحتذي النموذج القديم من الشعر ، و تنهج نهج قصائده من الشعراء ذوي السليقة الفطْرية الشعرية ، الذين استمرت البادية تمدُّ بهم الحاضرةَ كابن الدُّمَيْنة و ابن ميَّادة ، و أبي حَيَّة النميري و غيرهم .

بل إن بعض الشعراء الذين حملوا شعلة التجديد كانوا يتكلَّفون الأسلوب الأعرابي في مدحهم للخلفاء كبشار بن بُرْد وأبي نواس .

ثانيًا : الاتجاه الجديد:

ظهر الشعراء المجددون (المولّدون) في بداية العصر العباسي بنهج شعري جديد ، و ثقافة واسعة ، و رغبة في التعبير عن عصرهم و مشاعرهم ، و كانت الحضارة التي يعيشونها ، و الازدهار العلمي و الرقي الفكري دافعًا لهم للبحث عن الجديد في موضوعات الشعر و أسلوبه . و قد غلب هذا التيار على الشعر في العصر العباسي إذا قارناه بالتيار القديم ، فمنذ بداية هذا العصر نجد بشار بن برد و أبا نواس و أبا العتاهية ، و مسلم بن الوليد القديم و أبا تمام و غيرهم يحاولون هذا الجديد ، و إذا كان النقاد اللغويون قد وقفوا ضدَّ هذا الاتجاه فقد ظهرت طبقة من النقاد شجَّعته و وقفت إلى جانبه .

و على هذا النحو دفع التحضُّر شعراء العصر العباسي إلى استحداث أسلوب مولَّد جديد ، و هو أسلوب يعتمد على الألفاظ الواسطة بين لغة البدو الزاخرة بالكلمات الوحشية ، و لغة العامة الزاخرة بالكلمات المبتذلة ، أسلوب وسط بين الغرابة و الابتذال ، يحافظ على مادة اللغة و مقوِّماتها التصريفية و النحوية ، و يلائم بينها و بين حياة العباسيين المتحضرة ..

و بشار في طليعة من أرْسَوا هذا الأسلوب المولد الجديد ، و أسلوبه يتميز بالرصانة و الصفاء و الرونق . و تلاه جيل من الشعراء ، توزعوا بين من يُؤثرون الجزالة و قوة البناء ، مثل مسلم بن الوليد و أبي تمام ، و من يؤثرون الليونة و السهولة ، مثل أبي العتاهية و أبي نواس عدا شعره الرسمي (شعر المديح) فكان يحتفظ فيه بالأسلوب القديم .

دراسة حياة وشعر الشعراء

بشار بن برد

ولد بشار بن برد بن يرجوخ بالبصرة لأوائل العقد العاشر من القرن الأول للهجرة وجدّه يرجوخ من طخارستان ممّن سباهم المهلب بن أبي صفرة والي خراسان . ومن أجل ذلك نشأ ابنه برد على الرقّ . وكان أولا في عداد رقيق (خيرة القشيرية) أمرأة المهلّب ، ثم وهبته لامرأة من بني عقيل ، فولد له بشار على الرّقّ ، ولم تلبث العقيلية أن أعتقت بردا ، وبذلك عدّ هو وابنه في موالي بني عقيل ،وقد نسب نفسه من جهة أمّه الى الروم، إذ قال :

وقيصرّ خالي إذا عددتُ يوماً تَسَبي

وإنّ صحّ ذلك كان فارسيّ الأب رومي الأمّ ، وقد ولد أعمى ، وفي ذلك يقول :

عميتُ جنيناً والذكاءُ مِنَ العَمَى فجئتُ عجيبَ الظّنّ للعلمِ موئِلا

وكان أبوه طيّانا يعيش من ضرب اللّبن معيشة تقوم على الشظف ، وحدّدت آفة بشار حياته منذ نعومة أظفاره ، فاتّجه الى المساجد والى مسجد البصرة ينهل من حلقات العلم والشعر ، وأعانته نشأته في بني عقيل على أن يتمثّل السليقة العربية .

ولم يكد يبلغ العاشرة حتّى أخذ ينبوع الشعر يسيل على لسانه . وكان الهجاء أوّل موضوع نظم فيه ، إذ كان مضطرماً بين الشعراء جميعا ، ولاسيّما بين جرير والفرزدق واشتدّ ببشار طموحه الى إتقان العربية ، فيمّم نحو البادية ، فأقام فيها مدّة مكّنت له في عربية لسانه وفقهه الدقيق باللغة وشؤون البادية . وعاد الى البصرة يكثر من الاختلاف الى حلقات المتكلمين ومجالسهم ، وكانت بينه وبين (واصل بن عطاء) رأس المعتزلة صلة قوية فكان يحضر مجالسه ويستمع الى محاوراته مع من يعتنقون مذاهب الثنويّة المجوسيّة والدهرية الهندية ، وأكبر الظّنّ أنّه تسرّب اليه من هذه المجالس شيء من الفلسفة والمنطق .

ويقال إنّ بشارا كان ملحداً فهو يشيد بعبادة النار ويفضلها على الارض بقوله:

الأرضُ مظلمةٌ والنّارُ مُشرقةٌ والنّارُ معبودةٌ مُذْ كانت النارُ

وتمادى يفضّل ابليس على آدم بقوله :

إبليسُ أفضلُ من أبيكم آدمِ فتنبّهوا يا معشرَ الفُجّارِ

النارُ عُنصُرُهُ وآدمُ طِينةٌ والطينُ لايسمو سموَّ النارِ

ومضى بشار يعلن زندقته مصرّحا بأنه لايؤمن إلابالعيان وما شهده الحسّ ، فهولا يؤمن بجنة ولا نار ولاببعث ولاحساب ، ذلك كلّه أدّى الى نهاية العلاقة بينه وبين واصل بن عطاء ، ليس هذا فحسب ، بل راح واصل يثور عليه ثورة شديدة ،وكان مما زاد هذه الثورة في نفسه أن رآه يكثر من الغزل المادي الذي يعدّ خطرا على شباب البصرة ونسائها ، لذا كان واصل وجماعته المعتزلة يدعون الى قتله .

ويمضي بشار في غزله الفاجر ،وكان كلّ شيء فيه ينفّر المرأة ، إذ كان قبيح المنظر مجدور الوجه جاحظ العينين قد تغشّاهما لحم أحمر ، وكان فظّا غليظ القلب ، وكان جافي الطبع ، ولعلّ هذا القبح ونفور النساء منه هو الذي كان يثير عنده الغريزة الجنسية ويدفعه الى الافراط من غزله المكشوف.

وأمره المهدي أن يكفّ عن ذلك ، وكفّ بشار على مضض ، وأخذ يردد في أشعاره أنّه ترك الغزل والنسيب نزولاً على ارادة الخليفة ، مثل قوله:

ونهاني الملكُ الهُما مُ عن النَّسيب وما عَصَيْتُهْ

وفي سنة (١٦٦ هـ) يتعقب المهدي الزنادقة ويقتل منهم خلقا كثيرا ، وأخذ بشار يرثي أصدقاءه الذين يقتلون على الزندقة ، ويهجو المهدي ووزيره يعقوب بن داود هجاء مقذعا ، ويقدم المهدي الى البصرة في سنة (١٦٨ هـ) فيشهد أمامه شهود موثقون بأنّ بشارا زنديق ، فيأمر بضربه حتى الموت ، فيضرب سبعين سوطا يموت على إثرها ويرمى به في البطيحة ، ويأتي بعض أهله فيحملونه ويدفنونه .

وفيما يأتي قصيدة لبشار يفخر فيها بـ (قيس) مواليه وما يذيقون به أعداءهم من بأسهم الشديد حتّى ليمحقونهم محقا، يقول فيها :

إذا الملكُ الجبّارُ صعّرَ خدَّهُ مشينا إليه بالسيوفِ نُعاتبُهْ

وكنّا إذا دبّ العدوُّ لِسُخطِنا وراقَبنا في ظاهرٍ لا نراقبُهْ

ركبنا له جَهْرًا بكلّ مثقّفٍ وأبيضَ تستسقي الدِّماءَ مضاربُهْ

وجيشٍ كُجنحِ اللّيلِ يزحفُ بالحَصى وبالشّوكِ والخَطّيِّ حُمْرٌ ثعالبُهْ

غَدونا له والشمسُ في خِدْرِ أمّها تطالعنا والظّلُّ لم يجرِ ذائبُهْ

بضربٍ يذوقُ الموتَ مَنْ ذاقَ طَعْمَهُ وتُدرِكُ مَن نجّى الفرارُ مثالبُهْ

كأنّ مُثارَ النقعِ فوق رؤوسنا وأسيافَنا ليلٌ تُهاوى كواكبُهْ

بعثنا لهم موتَ الفجاءةِ إنّنا بنو المُلكِ خفّاقٌ علينا سبائبُهْ

صعّر خدّه : تكبّر، دبّ : مشى في استخفاء ، المثقف : الرمح المقوّم ، الخطيّ : الرماح، ثعالبه : أطرافه ، مثالبة : معايبه ، النقع : غبار الحرب ، سبائبه : أعلامه ورايته.

لقد تمسّك بشار بالتراث الفني وأصوله التقليدية وأخذ ينمّيه ويلائم بينه وبين حياته العقلية الخصبة وما عاش فيه من حضارة ماديّة حفّ بها المجون ، وقد حاول أن يجدّد في شكل القصيدة ، فنظم في الرباعيّات وفي المزدوج والمسمّطات ، غير أنّه ظلّ محتفظاً للغة الشعر بأساليبها الجزلة الرصينة ، وقد يرقّ ويلين، ولكن من دون أن يصيب أساليبه ضعف أو وهن ، إذ كان يفقه أسرار اللغة فقها دقيقا وكلّ ما يتّصل بتلك الأسرار من رونق وبهاء وجمال.

العباس بن الأحنف

هو العباس بن الأحنف بن الأسود بن طلحة ، وهناك رواية أوردها الخطيب البغدادي في تاريخه دون إسناد يصل فيها نسب العباس بن الأحنف بنزار بن معد بن عدنان .

وبخصوص تاريخ مولده لا نملك غير إشارة واحدة تقول إنّ العباس مات وعمره أقلّ من ستّين سنة، وأكثر الظنّ أنّه مات بين سنة ١٩٣ و ١٩٤ هـ ، وعلى هذا يكون مولده ما بين عام ١٣٣ و ١٣٤ هـ.

أمّا مسقط رأسه فمجهول أيضاً ، ولعلّه ولد في البصرة ، وكانت نشأته في بغداد.

أبو نُوَاس

نسبه ونشأته :

هو أبو علي الحسن بن هانئ المعروف بأبي نواس فارسي الأصل عربي بالولاء، كان جده من موالي الجراح بن الحكم والي خرسان من قبل عمر بن عبدالعزيز رحمه الله ولذلك يقال الحكمي نسبه إلى هذه القبيلة اليمنية ، والروايات مختلفة في تاريخ مولده ، وهي تهبط به إلى سنة ١٣٦هـ ، وترتفع به أحيانا إلى سنة ١٤٩هـ ، وتذكر سنوات أخرى بينهما ، كذلك أختلف في وفاته من١٩٥إلى١٩٩هـ لكن قصيدته في رثاء الأمين الذي قتل في عام ١٩٨هـ ترجح سنة ١٩٩ لوفاته .

كان أبوه من جند مروان الثاني ، قدم الأهواز مع الجيش المرابط فتزوج من فارسية اسمها "جُلبَان" ، ثم توفي والده وهو في السادسة من عمره ، فانتقلت به أمه إلى البصرة ، وكان في صغره يبري أعواد البخور ، ويختلف إلى مجالس العلم في البصرة ، فتأدب على يد أستاذه خلف الأحمر ، وقرأ القرآن على يعقوب الحضرمي ، وفي العشي كان يذهب إلى حلقات المسجد الجامع فيسمع من أبي عبيدة أخبار العرب وأيامهم ، ومن أبي زيد غرائب اللغة ، ثم ساقه القدر ليتعرف على وَالِبة بن الحُبَاب أحد مجان الكوفة المشهورين ، فحثه على مرافقته إلى الكوفة ومضى معه ، وهكذا وقع في خبائل شيطان كبير ، غمسه فيما كان فيه من خطايا وآثام مع عصبه من مجان الكوفة مثل: مطيع بن إياس وحماد عجرد ، وثاب قليلاً إلى رشده فخرج إلى بادية بني أسد وظل بينهم حولاً كاملاً يتزود من ينابيع اللغة ، ثم عاد للبصرة حيث كان يلقى في المِرْبَد الأعراب الفصحاء ، وحثه أستاذه خلف الأحمر على حفظ الشعر القديم ، فحفظ مئات الأراجيز والقصائد ، كما طلب علم الكلام واستظهر مصطلحاته ، ثم رحل إلى بغداد وقد زاد عمره على الثلاثين ، فمدح الرشيد ونال جوائزه التي أنفقها في الحانات والأديرة ، ووصل ذلك إلى سمع الرشيد فحبسه مراراً ، وحين تولى الأمين الخلافة اتخذ أبا نواس نديماً له يمدحه واستغل ذلك المأمون في حربه مع الأمين ، فحبسه الأمين ثم أطلقه حين أستعطفه الشاعر و لم يلبث أن قتل الأمين ١٩٨هـ فتوفي الشاعر بعده بسنه .

مذهبه في الحياة :

لم يكن لشاعرنا مذهب يعتمده إلا اللذة ، ويظهر هذا في خمرياته ومجونه ، ومع أنه مسلم يؤمن بالله ورسوله لكنه مستهتر عابث تحكمه نفسيه صبيانية لازمته طوال حياته ، وكان شديد الاتكال على عفو الله ، وكان هذا هو الحل لديه للتوفيق بين اللذة والدين ، فلديه ثقة مطلقة بعفو الله تفضي به إلى الظلال والمنكرات دون حياء ، من مثل قوله :

غَادِ المدامَ، وإنْ كانتْ مُحَرَّمَةً ، فَلِلْكَبائِرِ عِندَ اللهِ غُفْرانُ

مكانته :

امتزجت في شخصية أبي نواس تأثيرات عديدة من ثقافة واسعة ، وملكة شعرية ، وعيش في بيئة حضارية مترفة ، وفوق كل ذلك مزاجه الذي يميل إلى الهزل والفكاهة والتندر بكل شيء ، قال عنه الجاحظ "ما رأيت أحد أعلم باللغة من أبي نواس"

شعوبيته:

لم يكن أبو نواس يفضل الفرس على العرب من حيث الدم والعنصر إذ تلك أمور لا تهمه ولكنه يفضل عيش الحضر كما عرفه الفرس على عيش الأعراب وحياتهم البدوية القاسية ،من مثل قوله:

دعِ الرّسْمَ الذي دثَرَا، يقاسي الرّيحَ والمطَرَا

ألمْ ترَ ما بنى كسرَى ، وسابورا لمن غبـــرا

وربما كان ذلك من أسباب دعوته إلى بدء القصائد بالخمريات بدل الوقوف على الأطلال يقول :

صِفَــةُ الطّــلولِ بلاغَــةُ القِــدْمِ فاجْعَلْ صفاتِكَ لابنَــةِ الكَرْمِ

وقوله :

عاجَ الشقيّ على رسمٍ يُسائِلُه وعُجتُ أسألُ عن خمّارَةِ البلدِ

ولكننا نلحظ أن في شعره شيء من شعوبية الدم والعنصر مثل قوله:

يبكي على طلل الماضين من أسد لا در درك قُل لي من بنو أسد ؟

ومن تميم ؟و من قيـــس؟ ولفّهما ليس الأعاريب عند الله من أحد

نظرة في ديوانه :

يلاحظ المتأمل في ديوانه مجيء العديد من القصائد المنسوبة إلى أبي نواس وهي ليست له ولذا علينا التأني في إصدار الأحكام على شخصيته لأن :

١ لأن كثير مما قاله في شعره قاله تظرفا وعبثا .

٢ البعض الآخر من شعره نظمه أثناء معاقرته للخمر .

٣ كثرتْ ما حمل عليه من شعر الخمر و المجون يقول ابن المعتز:" إن العامة الحمقى قد لهجت أن تنسب كل شعر المجون إلى أبي نواس وكذلك تصنع في أمر مجنون بني عامر كل شعر فيه ليلى تنسبه إلى المجنون ".

٤ نذكر أن قصائد بعض المجان التي فقدت قد دخلت في ديوان أبي نواس مثل: الحسين بن الضحاك والوليد بن يزيد ، ومن ذلك القصيدة المشهورة :

إصْدَعْ نَحيَّ الْهُمومِ بالطّرَبِ، و انعمْ على الدّهرِ بابنةِ العنبِ

وهي خمسة عشر بيتا وهي في الحقيقة للوليد بن يزيد.

فنون شعره :

شخصية أبي نواس نمت في اتجاهين :

اتجاه يحافظ على التقاليد الفنية وذلك في المدح والرثاء و الأراجيز .

واتجاه يجدد فيه تجديدا واسعا في الغزل والهجاء والخمريات وكل ما يتصل بالعبث واللهو .

الفن الأول : المدح:

اضطر ابي نواس للتكسب بشعره ، فسار في المديح على طريقة القدماء فوقف على الطلل ، وذكر الرحيل ، ووصف الناقة ، ولكن دون أن يطل حتى يبلغ الممدوح فيسبغ عليه صفات الكرم والشجاعة وشرف النسب ويظهر هذا النوع الرسمي في القصائد التي مدح بها الرشيد و البرامكة والخصيب والي مصر في زمنه .

أما إذا أنس من ممدوحه شيء من الألفة والمودة فتجيء مدائحه بألفاظ أرق ، مثل مدحه لمحمد الأمين الذي كان صديقا له ، و من مثل قصيدته التي كان مطلعها :

يـــا دارُ مـــا فَـــعَلَت بِكِ الأَيّامُ ضـــامَتكِ وَالأَيّـــامُ لَـــيسَ تُضامُ

والتي قال فيها :

وَإِذا الـــمَطِيُّ بِـــنا بَـــلَغنَ مُحَمَّداً فَـــظُهورُهُنَّ عَـــلى الرِجالِ حَرامُ

قَـــرَّبنَنا مِن خَيرِ مَن وَطِئَ الحَصى فَـــلَها عَـــلَينا حُـــرمَةٌ وَذِمـــامُ

رُفِـــعَ الـــحِجابُ لَنا فَلاحَ لِناظِرٍ قَـــمَرٌ تَـــقَطَّعُ دونَـــهُ الأَوهـــامُ

مَـــلِكٌ إِذا عَـــلِقَت يَداكَ بِحَبلِهِ لا يَـــعتَريكَ الـــبُؤسُ وَالإِعـــدامُ

الفن الثاني: الرثاء :

الرثاء قليل جدا في ديوانه له بعض المقطوعات في خلف بن الأحمر، ووالبة بن الحباب ، و أبيات مشهورة في رثاء الأمين مثل قوله :

طَوَى الموت ما بَيْني وبين محمد وليس لما تَطْوِي المنيّة ناشر

وكنتُ عليه أحذر الموتَ وحدَه فلم يَبْق لي شيءٌ عليه أحاذر

لئن عَمَرت دُورٌ بمن لا أحبّه لقد عَمَرت ممّن أحبّ المقابر

الفن الثالث: الهجاء:

هجاء ابي نواس متين التركيب محشن لاذع فيه روح النكتة لا يتعفف عن ذكر ما يقبح ولكنه لا يحمل ذلك الحقد على البشر وهو على نوعين :

أ -هجاء قومي قبلي :

يهجو عرب الشمال أو عرب الجنوب أو العرب جميعا (سكان البادية) فيعيب طريقة حياتهم ويميل إلى الحياة المتحضرة .

ب-الهجاء الشخصي:

وعند ذلك يجعل من الهجو أضحوكه بين الناس مثل قوله:

رأيت الفضل مكتبا ... يناغي الخبز والسمكا

فأسبل دمعه لمـــا ... رآني قادما وبكـــى

فلما أن حلفت لـــه ... بأني صائم ضحكا

وقال في هجاء رجل اسمه سعيد :

رغيفُ سعيدٍ عنده عِدْلُ نفســـه ... يقلّبُهُ طورًا وطورًا يلاعبُهْ

ويُخرجهُ من كمّه فَيشمّـــــــه ... ويُجلِسُه في حِجْرِهِ ويخاطبُهْ

وإنْ جاءهُ المسكينُ يطلبُ فَضْلَهُ ... فقـــــد تكلتْه أمّهُ وأقاربُهْ .

يكرّ عليه السّوْطُ من كلّ جانبٍ ... وتُكْسَرُ رِجْلاهُ، ويُشْقُ شاربُهْ

٤-الطرديات :

هي الأشعار التي تصف الصيد وآلاته وأدواته كالكلاب والصقور والسهام، وكان أبو نواس يخرج مع الأمراء للصيد فيصف ما يرى وتتسم طرديات بـــ :

١ ينظمها في أراجيز .

٢ على روي واحد .

٣ يكثر فيها الغريب .

٤ يفصل أوصاف الكلاب والطيور والأسلحة .

٥ تتسم بالجد وليس الهزل .

٥-الخمريات :

هذا أبو نواس شاعر الخمر سبق إلى معاني في الخمر لم يأتِ بها أحد قبله دون تقليد ولا تكلف وصف الخمر قبلة كثيرون ولكن كان وصفا سطحيا ولم يكن غرضا مستقلا .

وقد وجدت مجموعة الخصائص في شعر الخمر عند أبي نواس ،هي :

١ جعلها موضوعا كاملا بتفاصيل محددة .

٢ أدخل القصص على شعره الخمري وهو ما عرف((بالقصص الخمري)) .

٣ لم يترك فيها وصف إلا أحاط به وتلمسه بكل حواسه منظورا ومشموما ومذاقا وتأثيرا في النفس ، حيث يسجل مفعولها في النفس مثل قوله :

ألا فاسقِني خمراً، وقل لي: هيَ الخمرُ، ولا تسقني سرّاً إذا أمكن الجهرُ

٤ أطال الحديث عن أصولها وكرومها وطريقة صنعها وحاناتها وآنيتها المزينة بالرسوم الفارسية ومجالسها وما فيها من الندماء والمغنيات .

٥ تشخيص الخمر أي : استنطاقها ومخاطبتها مثل الإنسان فيجعلها حينا أمه وحينا صاحبته .

٦ ما يتسم به شعر الخمر من ظُرف وخفة روح وصراحة .

٧ العاطفة الصادقة المشبوبة .

٨ الألفاظ الرشيقة السهلة السلسة التي لا صعوبة فيها .

٩ الأوزان المطربة والقوافي الخفيفة .

١٠ -

٦ الغزل :

كان أبو نواس منذ حداثته ميّالا إلى العبث والمجون طروب النفس له شعر كثير في الغزل من ذلك قوله : حامِلُ الهَوى تَعِبُ يَستَخِفُّهُ الطَرَبُ

إن بَكى يُحَقُّ لَهُ لَيسَ ما بِهِ لَعِبُ

تَضحَكينَ لاهِيَةً وَالمُحِبُّ يَنتَحِبُ

تَعجَبينَ مِن سَقَمي صِحَّتي هِيَ العَجَبُ

كُلَّما اِنقَضى سَبَبٌ مِنكِ عادَ لي سَبَبُ

٧- الزهد :

جاء أبو نواس هذا الفن في آخر حياته ومع قلة شعره في ذلك إلا أنه من أحسن وأجود ما قال ، لأنه كان صادقا في التعبير عن نفسه حين تاب توبة صادقة فنشعر في كل بيت بخشية تروعك ورهبة تستولي على نفسك ، وقد كان أبو العتاهية شاعر الزهد شديد الحسد لأبي نواس على أقواله في الزهد كان يقول :" سبقني أبو نواس إلى ثلاثة أبيات وددت أني سبقته إليها بكل شعري فإنه أشعر الناس فيها ، وهي قوله :

يا كبير الذنب عفو ... الله من ذنبك أكبر

وقوله : من لم يكن لله متهمـــــا ... لم يمس محتاجا الى أحـــــــد

وقوله : إذا امتحن الدنيا لبيب تكشّفت ... له عن عدوّ في ثياب صديـــق

ومن أروع ما قال:

يا رَبِّ إن عَظُمَت ذُنوبي كَثرَةً ... فَلَقَد عَلِمتُ بِأَنَّ عَفوَكَ أَعظَمُ

إِن كانَ لا يَرجوكَ إِلّا مُحسِنٌ ... فَبِمَن يَلوذُ وَيَستَجيرُ المُجرِمُ

أَدعوكَ رَبِّ كَما أَمَرتَ تَضَرُّعاً ... فَإِذا رَدَدتَ يَدي فَمَن ذا يَرحَمُ

ما لي إِلَيكَ وَسيلَةٌ إِلّا الرَجا ... وَجَميلُ عَفوِكَ ثُمَّ أَنّي مُسلِمُ

نموذج شعري من خمريات أبي نواس : دع عنك لومي فإن اللوم إغراء

من ينظر في ديوان أبي نواس يلاحظ أنه لا يمتاز بالمدح ولا بالهجاء ولا بغير هذه الفنون، بل إنّه يمتاز بشعره الخمري، الذي اقترن ذكره به وبقي اسمه ملازماً له حتّى يومنا هذا. قيلَ: إنّه شاعر الخمر وقيل: إنّه مؤسس مدرسة الخمر، واعتبره الكثيرون زعيماً بلا منازع للخمريات في الأدب العربي .

والقصيدة التي بين أيدينا نموذج لهذا الشعر الذي عرف به أبي نواس ، وهي قصيدة منطلقة من اللوم الذي تعرض له الشاعر من صديقه إبراهيم النّظام زعيم المعتزلة الذي قال له – بحسب رأي المعتزلة – إن شارب الخمر إذا مات و لم يتب فهو خالد مخلد في نار جهنم ، لذلك نصح أبي نواس وطلب منه ترك شرب الخمر والتوبة إلى الله ، فاعتبر أبو نواس ذلك تعريضا به ، وبأن إبراهيم النظام متطرف مسيء إلى الدين لأنه ألغى العفو منه .

النص الشعري :

دَعْ عَنْكَ لَوْمي فإنّ اللّوْمَ إغْرَاءُ ... ودَاوِني بالّتي كانَتْ هيَ الدّاءُ

صَفراءُ لا تَنْزِلُ الأحزانُ سَاحَتها ... لَوْ مَسّها حَجَرٌ مَسّتْهُ سَرّاءُ

قامَتْ بِإبْرِيقِها ، والليلُ مُعْتَكِرٌ ... فَلاحَ مِنْ وَجْهِها في البَيتِ لألاءُ

فأرْسَلَتْ مِنْ فَمِ الإبْرِيقِ صافِيَةً ... كأنّما أخذَها بالعينِ إغفاءُ

رقّتْ عَنِ الماءِ حتى ما يلائمُها ... لَطافَةً ، وَجَفَا عَنْ شَكْلِها الماءُ

فَلَوْ مَزَجْتَ بها نُوراً لَمَازَجَها ... حتى تَوَلّدَ أنْوارٌ وأضواءُ

دارتْ على فِتْيَةٍ دانَ الزمانُ لهمْ ... فَما يُصِيبُهُمُ إلاّ بِما شاؤوا

لِتِلْكَ أبْكِي ، ولا أبكي لمنزلةٍ ... كانتْ تَحُلُّ بها هندٌ وأسماءُ

حاشا لِدُرّةَ أن تُبْنَى الخيامُ لها ... وَأنْ تَرُوحَ عَلَيْها الإبْلُ وَالشّاءُ

فقلْ لِمَنْ يدّعِي في العلمِ فلسفةً ... حفِظْتَ شَيئًا ، وغابَتْ عنك أشياءُ

لا تَحْظُرِ العفوَ إن كنتَ امرأً حَرِجًا ... فإنّ حَظْرَكَهُ في الدّينِ إزْراءُ

شرح الأبيات :

دَعْ عَنْكَ لَوْمي فإنّ اللّوْمَ إغْرَاءُ ودَاوِني بالّتي كانَتْ هيَ الدّاءُ

بدأ الشاعر قصيدته برفض اللوم رفضًا تامًّا صارمًا بفعل الأمر الذي وجهه لإبراهيم النظام (دع عنك لومي) ، ثم تبعه بتبرير فلسفيّ لعدم جدوى اللوم بعامّة؛ إذ يراه الشاعر ذا مفعول عكسيّ، لأن اللوم يغري المَلُوم بالتصلّب في موقفه وسلوكه، ثم كان فعل الأمر من جديد متوجه إلى المخاطب (وداوني بالتي كانت هي الداء) ليطلب منه أن يداويه بالخمرة نفسها التي يلومه فيها لأنها دائه ودوائه ، وقوله هذا مستقى من قول الأعشى :

وكأس شربت على لذة وأخرى تداويت منها بها

صَفراءُ لا تَنْزلُ الأحزانُ سَاحَتها لَوْ مَسّها حَجَرٌ مَسّتْهُ سَرّاءُ .

وانتقل بعد ذلك مباشرةً إلى تحديد هذا الدواء الذي يراه اللائم داءً، فإذا هو الخمرة -سبب اللوم ودافعُ النظم-، فوصفها ووصف مجلسها، وذكر لونها وأثرها في النفس، فهي خمرة صفراء اللون تبعث السرور ؛ لأن الأحزان لا تنزل مجالس الخمر ، فالخمر والحزن لا يلتقيان كما يرى ، ثم عمد إلى المبالغات التي تبلغ حد الغلو ، وذلك حين زعم أنه لو حصل تماس بين الخمر والحجر لتملكه الفرح ، ولسرت فيه نشوة السرور .

قامَتْ بإبْرِيقِها ، والليلُ مُعْتَكِرٌ فَلاحَ مِنْ وَجْهِها في البَيْتِ لألاءُ

معتكر : شديد الظلام . فلاح : ظهر . لألاء : ضوء لامع .

بعد وصفه للون الخمرة وأثرها ، ذكر عنصرًا جماليًّا مهمًّا في مجالس الشرب تُمثّله الساقية ذات الوجه المتوهّج ألقًا ، وقد أحسن الشاعر في تحديده للوقت وفي وصفه له (والليل معتكر) لأنه ناسب مبالغته في وصف أثر وجه الساقية الذي شع في البيت فأضاء أرجائه .

فأرْسَلَتْ مِنْ فَمِ الإبْرِيقِ صافِيَةً كأنّما أخذَها بالعَيْنِ إغفاءُ

أرسلت : صبت . صافية : أي خمرة صافية . أخذها بالعين : نظر العين إليها .

ثم انطلق في وصف محبوبته التي صنعها هذه الساقية ، خمرة صافية تسطع حتى لا تستطيع العين التحديق بها فيصيبها إعشاء ، لأن أثر هذه الخمرة الصافية أشبه بأثر النعاس في إطباق الجفن وإغماض العينين .

رقَّتْ عَنِ الماء حتى ما يلائمُها ... لَطافَةً ، وَجَفا عَنْ شَكْلِها الماءُ

وهذا الصفاء ليس الصفة الوحيدة التي رآها الشاعر في محبوبته ، فللخمرة لطافة متناهية جعلتها أرق من الماء وألطف منه ، حتى أن الماء جفا عنها و لم يعد يمتزج بها لهذه الرقة التي فاقته بها ، فالشاعر يجعل الخمرة أرق من أرق السوائل ؛ حتى تكون ألطف الأشياء المادية . وقد أستخدم الشاعر التكرار في قوله : (ما يلائمها ، وجفا) ليؤكد على هذه الفكرة .

فلَوْ مَزَجْتَ بها نُوراً لَمَازَجَها ... حتى تَوَلدَ أنْوارٌ وأضْواءُ

وهذه الخمرة التي تفوق الماء رقة ولطافة جعلها الشاعر ذات طبيعة نورانية ، فهي لا تمتزج إلا بالنور لأنه من طبيعتها ، وهذا الامتزاج يتولد بفيض من الأنوار والأضواء ، وهو بهذا يقرب بها من الروحانية .

دارتْ على فِتْيَةٍ دانَ الزمانُ لهمْ ... فما يُصيبُهُمُ إلاّ بما شاؤوا

ثم بعد وصفه للخمر يذكر الشاعر ندماءه جاعلاً إياهم رجالاً طافحين فتوّة، يعرفون كيف ينهلون من نبع اللذّة، مثبتين أنّه في مستطاعهم أن يتحكّموا بمصائرهم ، وحضورهم في مجالس الخمرة هو التعبير عن ذلك. حضورهم ذاك هو اقتناصُ متْعٍ وقطْفُ أفراحٍ.

لِتِلْكَ أبْكي ، ولا أبكي لمنزلةٍ ... كانتْ تَحُلُّ بها هِنْدٌ وأسماءُ

والخمرة التي تتوافر فيها مواصفاتٌ عظيمة إلى هذا الحدّ -كما تتبدّى في وصف الشاعر لها-، خمرةٌ كهذه جديرةٌ أن يتعلّق القلب بها والروح -وَفْقَ منطق أبي نواس- لهذا جعل بكائه لها بعد أن أشار إليها (لتلك أبكي) في دلالة على قربها منه ، أما البكاء الذي اعتاده العرب في بداية قصائدهم على أطلال المحبوبات التي كنى عنهن بهند وأسماء ، فهذا الأمر لا يستحق البكاء في نظر أبي نواس ، وهنا تتبدى النزعة الشعوبية التي عرف بها الشاعر تجاه العرب .

حاشا لِدُرَّةَ أن تُبْنَى الخيامُ لها وَأنْ تَرُوحَ عَلَيْها الإبْلُ والشّاءُ

حاشا : اسم يراد به التنزيه . الدرة : اللؤلؤة العظيمة .

والشاعر الذي أظهر شعوبيته في البيت السابق يحدد سبب هذه الشعوبية عبر تنزيهه للخمرة التي استعار لها الدرة لبيان قيمتها العظيمة ، وهو تنزيه عن أن تعيش في البادية وسط الخيام تصيبها الروائح الكريهة التي تنبعث من الإبل والشاة ، وهي ذات الرائحة الطيبة الجميلة ، وهذه الشعوبية تظهر أن شعوبية أبي نواس منطلقة من باب تفضيل الحضارة على البداوة التي كان يعيشها بعض العرب في عصره

فقلْ لمنْ يدَّعِي في العلمِ فلسفةً حفِظْتَ شَيْئًا ، وغابَتْ عنك أشياءُ

لا تَحْظُرِ العفوَ إن كنتَ امرأً حَرِجًا فإنّ حَظْرَكَهُ في الدّين إزْراءُ

تحظر : تمنع . حرجا : مضيقا . حظركه : حظرك إياه أي : منعك إياه . إزراء : تغييب وتحقير .

بعد هذا الوصف التبريري للخمر ، يعود الشاعر إلى ذكر لائمه النظّام، فيتّهمه بادّعاء المعرفة الدينيّة أو الإيمانيّة، وبالتزمّت والإساءة إلى جوهر الدين (وجوهره التسامح والرحمة والمغفرة)، حين يزعم أنّ المغفرة الإلهيّة لن تكون لمن هم على شاكلة أبي نواس من ذوي المجون والتهتّك .

أسلوب الشاعر ، اعتمد على :

١. توليد صورة ذهنيّة تقوم على تركيب لُغويّ شَرطيّ تعجيزيّ (عبْرَ "لو") في مبالغاته التي رسمت صورة لا حضور لها في واقع الحياة ، ("لو مسّها حجر مسّته سرّاء"، "فلو مزجت بها نورًا لمازَجَها"...) ، وهذا يظهر شدة انفعال الشاعر بالخمرة ، إذ يكشف هذه المبالغات ، التي تحاول تجاوُزَ الواقع المحسوس والتفوّقَ عليه، يكشف عن شوق إليها دائم عارم، وعن تقديرٍ لها يحدو به إلى اعتبارها حالة من العجب والسحْر.

٢. استعمال الحواس في وصفها وفي بيان أثرها ، فلونها الأصفر الذي تدركه الأبصار ، وضيائها المتوهج الذي يصيب العين بالإغشاء ، والفرح والسرور الذي يُصيب الحجر بملامستها ، هو من باب التبرير الذي يدافع من خلاله عن تعلقه بهذه المحبوبة .

٣. إكساب الخمرة صفات الأنوثة ، فقد كساها الشاعر رداء الأنوثة والنعومة –من حيث يدري أولا يدري – فهي امرأة كاملة الأنوثة والرقة (رقت عن الماء حتى ما يلائمها ... لطافة وجفا

عن شكليها الماء) ، وهي جوهرة عظيمة نفيسة (حاشا لدرة أن تبنى الخيام لها) ، ليجعل منها أنثى قادرة على منافسة حبيبات الشاعر العربي في مقدماته .

٤ ـ حمّل الشاعر نصه الكثير من أفكار وثقافة عصره ، فالشعوبية الأدبية التي انتشرت عند بعض الشعراء تظهر في قوله : لِتِلكَ أَبْكِي ، ولا أبكي لمنزلةٍ **** كانتْ تَحُلُّ بها هندٌ وأسماءُ

والشعوبية الاجتماعية التي تقوم على تفضيل حياة الحضر على حياة البدو برزت في هذا العصر وعكسها قوله :

حاشا لِدُرَّةَ أن تُبْنَى الخيامُ لها **** وأنْ تَرُوحَ عَلَيْها الإبْلُ وَالشَّاءُ

أما الفلسفة فتظهر في التحليل النفسي السريع في مطلع القصيدة ، حيث يُظهر الشاعر دراية بطبيعة البشر، إذ يَعتبر المعاندةَ طبعًا متأصّلاً في النفس البشريّة، ومن ثَمّ فاللوم لجهد مضيَّع، وبخاصّة إذا كان على الملأ؛ فهو عند ذاك -وإن ارتدى كساءَ الحرص والنصح والإرشاد والتوجيه - لا يختلف عن التقريع.

وللفكر المرجئيّ أثرٌ في النصّ (في ختامه). فاتّكال الشاعر على رحمة الله مردُّه أنّه أخذ بالفكرة المرجئيّة (نسبةً إلى فرقة المرجئة) ، الفكرة التي مفادها أنّ المؤمن المرتكب للكبيرة يعاقَب في الجحيم بمقدار خطيئته، ثمّ يحظى بثواب الجنّة، وقد يُعفى عنه كلّيًا سلفًا؛ وتلك فكرة لاقت لدى أبي نواس قبولاً وراقت له، فمن خلالها حلّل لنفسه معاقرة الخمرة دون خشية من عقاب.

وأخيرا ، فإن قصيدة الخمر عروس شعر أبي نواس ، وفيها تجلت عبقريته المجددة التي رفعته فوق السابقين واللاحقين، فكان من أشهر من قالوا فيها، وقد جعل لها في الأدب العربي بابا مستقلا كاملا. لكن هذا الجمال الأدبي كان قائم على فساد في الموضوع ، فالخمر أم الخبائث ، وقد نهى عنها الرحمن بقوله : (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّمَا الْخَمْرُ وَالْمَيْسِرُ وَالْأَنْصَابُ وَالْأَزْلَامُ رِجْسٌ مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ فَاجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ (٩٠) إِنَّمَا يُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَنْ يُوقِعَ بَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ فِي الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ وَيَصُدَّكُمْ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ وَعَنِ الصَّلَاةِ فَهَلْ أَنْتُمْ مُنْتَهُونَ (٩١) سورة المائدة .

أبو تمام ومذهب البديع

أبو تمام من أشهر شعراء العربية ، وهو صاحب مذهب شغل الباحثين في عصره وبعد عصره ، وأثار كثيرا من الجدل والخلاف حوله ، وهو ذلك المذهب الجديد الذي طلع به على الناس في عصره ، فمنهم من أعجب به ومضى يؤيده ويدافع عنه ، ومنهم من أنكره ورفضه وراح يهاجمه . فأبو تمام هو زعيم المذهب التجديدي في القرن الثالث ، وهو المذهب الذي يضعه النقاد بإزاء المذهب التقليدي الذي سار عليه معاصره وتلميذه البحتري . فالشاعران يمثلان مذهبين مختلفين في تاريخ الشعر العربي ، وهو اختلاف يرجع إلى اختلاف الشاعرين حول المفهوم الفني للشعر ، فأبو تمام يمثل مذهب الخروج على عمود الشعر والتحرر من تلك التقاليد الفنية الموروثة التي تلقاها الشعراء عن الشعر القديم ، في حين يمثل مذهب البحتري التمسك بعمود الشعر والحرص عليه واحتذاء تلك النماذج الفنية الموروثة .

وأبو تمام هو : حبيب بن أوس الطائي ولد في قرية جاسم قرب دمشق واختلف في سنة ولادته كما امتد هذا الإختلاف إلى سنة وفاته ، عمل في نشأته في حياكة الثياب و في سقاية الماء للمصلين عند المساجد ، كما كان يختلف إلى حلقات العلم في المساجد وعندما شب كان كثير الترحال فرحل إلى حمص ثم مصر ثم عاد إلى دمشق ثم بلاد ما بين النهرين ثم اتجه إلى بغداد وقربه المعتصم وصار شاعره المقدم وتولى بريد الموصل حتى مات .

مقومات عبقريته الأدبية :

١ عامل فطري : يتمثل في الموهبة والذكاء النادر ، فقد كان أبو تمام شاعرا موهوبا بالفطرة ، يُقال أنه حين مدح المعتصم بسينيته التي يقول فيها :

إقدام عمرو في سماحة حاتم في حلم أحنف في ذكاء إياس

اعترض الكندي كيف تشبه أمير المؤمنين بأعراب أجلاف فأطرق قليلا ثم رفع رأسه ، فقال:

لا تنكروا ضربي له من دونه مثل شرودا في الندى والباس

فالله قد ضرب الأقل لنوره مثلا من المشكاة والنبراس

ثم تابع إنشاد القصيدة ولما أخذت القصيدة من يده لم يجدوا فيها هذين البيتين فقال أحد الفلاسفة إن هذا الفتى يموت شابا لأن ذكاءه ينحت عمره كما يأكل السيف الصقيل غمده.

٢ عوامل مكتسبة :

تتمثل في الثقافة المتنوعة والرحلات المتعددة فقد كان متشربا لثقافة عصره بكل أطيافها الفكرية ، فثقافته ثقافة واسعة ، لذا وصفه القدماء بالشاعر العالم ، فهو يستغل الثقافات المختلفة التي اتصل بها ويعتمد عليها في شعره، ومن هنا أصبح شعره مستغلق في بعض جوانبه على أصحاب الثقافة السطحية ، وأصبح يحتاج في فهمه إلى مثل ثقافته الواسعة حتى يسهل فهمه وتذوقه والنفاذ إلى أغواره البعيدة .

المذهب الفني لأبي تمام:

يمتاز أبو تمام عن شعراء عصره بأنه صاحب مذهب جديد في الشعر، يقوم على الغوص في المعاني البعيدة التي لا تُدْرَك إلا بإعمال الذهن، والاعتماد على الفلسفة والمنطق في عرض الأفكار وإلباسها صورًا من التشبيهات والاستعارات والكنايات. ويقوم فن أبي تمام على الصنعة البديعية. و لهذا تكثر المحسنات البديعية في شعره كما تكثر الألفاظ الغريبة. يصف الحسن بن بشر الآمدي صاحب كتاب الموازنة شعر أبي تمام بأنه "لا يشبه أشعار الأوائل ولا على طريقتهم" بأنه مليء بـ "المعاني الغامضة التي تستخرج بالغوص والفكرة"

و يرجع اختلاف مذهب أبي تمام الشعري عن غيره إلى قضيتين فنيتين. الأولى هي اختلاف مفهوم الشعر عنده عن مفهوم الشعر عند غيره. و الثانية هي اختلاف تصوره للغاية من الشعر.

- مفهوم الشعر عند أبي تمام:

أبو تمام يفهم الشعر على أنه صناعةٌ عقلية، يمتزج فيها العقل بالشعور. أو الفكر بالعاطفة. فالشعر لديه يستمد مادته من الفكر كما يستمدها من العاطفة. و في سبيل تحقيق هذه المزاوجة فإنه يحمل اللغة أكثر مما تطيق مما يصعب فهمها على أصحاب الثقافة العامة الذين لم يصلوا إلى مستواه.

- تصوره للغاية من الشعر:

كان أبو تمام مؤمنًا بأن الشعر للخاصة لا للعامة، و الخاصة عنده ليسوا أفراد الطبقة الاجتماعية المترفة إنما هم الطبقة المثقفة المستنيرة.

و على أساس هاتين الفكرتين خرج أبو تمام بمذهب فني جديد وصفه النقاد بأنه يميل إلى الدقة و فلسفة الكلام و اتهموه بأنه يقول مالا يُفهم. و على الرغم من هذا فشعره يمتاز بقوة العاطفة وحرارتها، مما جعل شعره محببًا إلى النفوس. لكنه يتفاوت سموًا ودنوًا مما حدا بتلميذه البحتري أن يقول: "جيد أبي تمام خير من جيدي، ورديئي خير من رديئه". وقد نشأت دراسات كثيرة تناولت فن أبي تمام في أغراض شعره أو مذهبه الأدبي أو في مؤلفاته أو في الحركة النقدية التي تبلورت حوله.

و قد دافع أبو تمام عن مذهبه الفني ، و مِنْ القصص التي تُذكر في هذا الباب أنَّ البعض عابوا على أبي تمام وسخروا من قوله:

لا تسقني ماء الملام فإنني صب قد استعذبت ماء بكائي.

فأخذ أحدهم وعاء وذهب يطلب من أبي تمام بسخرية قطرات من (ماء الملام) فكان أبو تمام ذكياً فطلب منه أنْ يأتيه بريشة من (جناح الذل) قبل أنْ يعطيه قطرات من ماء الملام، وفي هذا إشارة إلى قوله تعالى: (واخفض لهما جناح الذل من الرحمة).

قصيدة فتح عمورية

إضاءة تاريخية عن فتح عمورية :

قال أبو تمام هذه القصيدة في مدح المعتصم ، وذكر فيها انتصاره على الروم في موقعة عمورية سنة٢٢٣هـ، وكان الشاعر فيها يصف ما رأى بعينه ويجعل شعره حاكما للواقع من غير تزييف له ، فتكاد تكون كل حوادث هذا الفتح وارده في القصيدة، ذكر ابن الأثير في حوادث ٢٢٢ هـ أنه: ظهر عن يسار القبلة كوكب ، فبقي يُرى أربعين ليلة وله شبه الذنب ،وكان أول ما طلع نحو الغرب، ثم رأي بعد ذلك نحو المشرق وكان طويلا جدا ، فهال الناس ذلك وعظم عليهم ، وفي سنة ٢٢٣ هـ خرج توفيل بن ميخائيل ملك الروم إلى بلاد الإسلام ، وأوقع بأهل زبطره في مئة ألف من الجنود ،فقتل من بها من الرجال وسبى الذرية والنساء ، وأغار على أهل ملطيه ، وسبى المسلمات، ومثّل بمن صار في يده من المسلمين، وقطع أنوفهم وآذانهم ،وسمل أعينهم ، فخرج إليه أهل الثغور من الشام والجزيرة ، وضج الناس واستغاثوا في المساجد والديار ، ثم بلغ الخبر المعتصم فاستعظم ذلك وكبر عليه وبلغه أنّ امرأه صاحت وهي أسيرة في أيدي الروم بـ :" وا معتصماه " فأجاب وهو جالس :" لبيك لبيك " ، ونهض من ساعته فصاح في قصره:"النفير النفير" ، وسأل المعتصم أي بلاد الروم أمنع وأحصن، فقيل: عمورية ، لم يعرض لها أحد منذ كان الإسلام ، وهي عين النصرانية، وهي أشرف عندهم من القسطنطينية فسار المعتصم بجيشه ، وقد تجهز بالسلاح والعدة ، وكان المنجمون قد زعموا أنهم يجدون في كتبهم أن هذه المدينة لا تفتح إلا بعد نضج التين أو العنب ، فلم يسمع لهم وسار نحو المدينة ووصل إلى أنقرة ، وقد فر من فيها فدمر من وجد في طريقه ، حتى وصل عمورية وحاصرها ، فلمّا رأى ملك الروم حصار عمورية حاول أن يدفع الحرب بالمال، وأن يعيد بناء زبطرة ، فرفض المعتصم ، وطال الحصار ، حتى أقبل رجل من المسلمين قد أسروه الروم فتنصر فلما رأى المسلمين خرج إليهم ، وأخبر المعتصم عن موضع ضعيف في السور ، فضرب المسلمون تلك الناحية بالمنجنيق، حتى تصدع السور بين البرجين ودخل المسلمون المدينة ، وأخذوا الروح بالسيف ، ونالوا الأسرى والسبيا ، ثم أمر المعتصم بعمورية فهدمت وأحرقت ، وكان نزوله لستٍ خلون من رمضان، وأقام عليها ٥٥يوما ثم قفل راجعا.

شرح القصيدة :

السَّيْفُ أَصْدَقُ أَنْبَاءً مِنَ الكُتُبِ فِي حَدِّهِ الحَدُّ بَيْنَ الجِدِّ واللَّعِبِ

بدأ الشاعر بالسيف من أجل الدليل على القوة بالقوة أصدق من كتب المنجمين فالسيف الذي هو أداة القوة فاصل بين الجد والهزل فالسيف تمجيد للقوة وإضعاف لزيف ويظهر في هذا البيت أن الشاعر لم يبدأ بما كان عليه النهج العربي القديم من المقدمة الطللية والرحلة ومن ثم الغرض الأساسي لكنه بدأ بالغرض الأساسي مباشرة وربما يعود ذلك إلى انفعال الشاعر النفسي الذي جعله يبدأ به وكذلك أراد الشاعر البدء بالمنجمين لأنهم كانوا أمام اضطراب نفسي أيصدقون أقوال المنجمين أم يكذبونهم وهل ستقع بهم الواقعة أم لا لذلك بدء بهم لما أحدثوه من رجفة وتخذيل داخل البلاد الإسلامية.

وقد ظهر في هذا البيت نوع من ألوان البديع في قوله ... "حده الحد" جناس و" الجد واللعب " طباق

بِيضُ الصَّفَائِحِ لاَ سُودُ الصَّحَائِفِ فِي مُتُونِهِنَّ جِلاَءُ الشَّكِّ وَالرِّيَبِ

يعيد الشاعر في هذا البيت المعنى الذي بدأه فهو يقول أن الحديدة العريضة لسيف غير الكتب لأن في متن السيف رفع للغطاء وكشف للحق عن الباطل ففيه جلاء لشك وهو أقل مرتبة من الريب والريب هو أكثر من الشك وعندما كرر المعنى أراد تأكيد المعنى الذي وصل إليه ، ويظهر اتصال وثيق بين " في حده الحد بين الجد واللعب " وبين قوله " في متونهن جلاء الشك والريب "

وَالعِلْمُ فِي شُهُبِ الأَرْمَاحِ لاَمِعَةً بَيْنَ الخَمِيسَيْنِ لاَ فِي السَّبْعَةِ الشُّهُبِ

يرد الشاعر في هذا البيت على المنجمين ولكنه قدم الظفر على حكمهم مع أن حكمهم صدر قبل النصر في المعركة وهو يقول أن الحقيقة مع العلم اليقين في أسنة الأرماح وشبه الأسنة بالشهب في لمعانها وهذه الصورة هي في داخل الجيش وهي صورة لمعان السيوف بالحقيقة لا في الشهب السبعة وهي الطوالع

أَيْنَ الرِّوَايَةُ بَلْ أَيْنَ النُّجُومُ وَمَا صَاغُوهُ مِنْ زُخْرُفٍ فِيهَا وَمِنْ كَذِبِ

في هذا البيت يستخف الشاعر بالمنجمين ويقول لهم: أين الرواية التي قلتموها وأين النجوم التي ادعيتم بها وما صغتموه من كذب وتلفيق أين ؟ وقد كان استفهاما لغرض الاستخفاف والسخرية والتحقير.

تَخَرُّصَاً وَأَحَادِيثاً مُلَفَّقَةً لَيْسَتْ بِنَبْعٍ إِذَا عُدَّتْ وَلاَ غَرَبِ

تخرصا : كذبا

يكمل الشاعر ما بدأه في البيت " ٤ " حين يقول ما صاغوه إنما هو تخرص و كذب و تلفيق ،و من بعد ذلك يأتي بعبارة مجازية في قوله النبع إذا عدت ولا غرب فإنه يقول أن كلامهم غير مفيد ليس مثل شجر النبع الذي فيه قوة أو شجر الغرب الذي فيه ضعف فهو كلام غير مفيد مثل الشجر الذي لا قوة فيه ولا ضعف.

عَجَائِباً زَعَمُوا الأَيَّامَ مُجْفِلَةً عَنْهُنَّ فِي صَفَرٍ الأَصْفَارِ أَوْ رَجَبِ

يتعجب الشاعر من كلامهم الذي زعموه في أن الأيام تهرب وتجفل من شهر صفر ومن رجب بمعنى أن المصائب تزل في هذين الشهرين وهذا من أجل أن يحبطوا المسلمين وهذا هو أول زعمهم .

وخَوَّفُوا النَّاسَ مِنْ دَهْيَاءَ مُظْلِمَةٍ إِذَا بَدَا الكَوْكَبُ الغَرْبِيُّ ذُو الذَّنَبِ

دهياء : مصيبة عظيمة .

ثم زعموا أيضا –

وهو زعمهم الثاني – أن مصيبة سوداء مظلمة سوف تقع عندما يظهر الكوكب الغربي المذنب فخوفوا الناس بمزاعمهم وقد جاءت فكرتهم هذه من الكوكب من أجل أن يمنعوهم من الخروج فجاء الطائي وهو " أبو تمام " فقلب الحكم عليهم.

وَصَيَّرُوا الأَبْرَجَ العُلْيَا مُرَتَّبَةً مَا كَانَ مُنْقَلِباً أَوْ غَيْرَ مُنْقَلِبِ

جاء الشاعر بهذا البيت في مساق السخرية و الاستهزاء والتحقير من شأن المنجمين مع الكواكب سواء كانت ثابتة أو مقلبة وتدور حين يتقولون على الكواكب.

يقضون بالأمرِ عنها وهْيَ غافلةٌ ماذا في فلكٍ منها وفي قُطُبِ

يقول أنهم يقضون بالأمر عن هذه الكواكب وهي غافلة واو الحال هنا جاء ليدل على حال هذه الكواكب الغافلة وهذا يعتبر من الكذب والزور عليها .

لو بيَّنت قطّ أمراً قبل موقعِه لم تُخْفِ ما حلَّ بالأوثانِ والصُّلُبِ

يقول مستهزأ إذا كانت الأبراج تعلم فلماذا لم تخبركم به إذا كانت تعلم قبل ذلك وأخفت عليكم أحداث القضاء على الصلب و الأوثان وهذا هو الدليل القاطع .

الفكرة الأساسية في الأبيات السابقة : تكذيب المنجمين وتحميد القوة . وهذه الثنائية قامت على المقابلة

فَتْحُ الفُتُوحِ تَعَالَى أَنْ يُحِيطَ بِهِ نَظْمٌ مِنَ الشِّعْرِ أَوْ نَثْرٌ مِنَ الخُطَبِ

ينشد الشاعر النصر بقوله فتح الفتوح فهو في أعلى مرتبة فلا يستطيع بيان أن يحيط بعظمته سواء شعراً أو نثراً فاللسان والقلم يعجزان عن الإحاطة بعظمة هذا الفتح وهذا يدل على أنه امتلأ بروح النصر فعجز عنه مع أنه من سادة البيان ، فيه مقابله في نظم من الشعر ونثر من الخطب .

فَتْحٌ تَفَتَّحُ أَبْوَابُ السَّمَاءِ لَهُ وَتَبْرُزُ الأَرْضُ فِي أَثْوَابِهَا القُشُبِ

تبرز : تظهر . القشب : المزخرفة .

يقول الشاعر أن كل من في الكون يحتفلون بهذا النصر وعبر عن الكون بالسماء و الأرض فقال : إن أبواب السماء تفتح فرحا بهذا النصر و الأرض ترتدي أجمل الثياب وهذه الثياب جديدة كأنها في يوم

عيد ، وجعل الأرض كالمرأة التي ترتدي ثيابا جديدة على سبيل الاستعارة المكنية ،وفيه طباق بين السماء و الأرض.

يَـا يَـوْمَ وَقْعَـةِ عَمُّوريَّـةَ انْصَرَفَـتْ مِنْـكَ المُنَـى حُفَّـلاً مَعْسُولَـةَ الحَلَـبِ

في هذا البيت يخاطب الشاعر يوم عمورية فكأنه إنسان ينادى فيقول له : كانت هناك أمنيات النصر و الغنائم والتنكيل بالأعداء في قلوب المسلمين ، فتحققت هذه الأمنيات بالنصر الحلو وعبر عن النصر الحلو بصوره من البادية وهي صورة ضرع الناقة المليء بالحليب وهذا الحليب في طعمه حلاوة تشبه حلاوة العسل

أبقَيْتَ جِدَّ بَنِـي الإِسْـلامِ فِـي صَعَـدٍ والمُشْرِكِينَ وَدَارَ الشِّـرْكِ فِـي صَبَـبِ

جد : حظ . صبب : صعود .

الأمنية الأولى التي تحققت بهذا النصر هي إبقاء حظ بني الإسلام في صعود وبني المشركين في انحدار وكل هذا عن طريق سواعد المسلمين الأقوياء ويظهر في هذا البيت نشوته بالنصر وذلك لأنه لم يفصل ولكنه أجمل الحدث ككل. ويظهر في هذا البيت مقابله بين "بني الإسلام في صعد " و "المشركين ودار الشرك في صبب"

أُمٌّ لَهُـمْ لَـوْ رَجَـوْا أَن تُفْتَـدَى جَعَلُـوا فِدَاءَهَـا كُـلَّ أُمٍّ مِنْهُـمُ وَأَبِ

في هذا البيت عاد إلى التفصيل فأخرج عمورية بصورة المرأة فهي مثل الأم لمن سكن فيها فهي أصلهم ولخلائها يفدونها بأمهاتهم وآبائهم وذلك لكونها في نفوسهم الأم الأصلية .

وبِرْزَةِ الوَجْـهِ قَـدْ أَعْيَـتْ رِيَاضَتُهَـا كِسْرَى وصَدَّتْ صُدُوداً عَنْ أَبِي كَـرِبِ

في هذا البيت يقول الشاعر أنها " أي عمورية" مثل المرأة التي تبرز وجهها وتكشفه نتيجة لثقتها من منزلتها ومناعة قومها فهي واثقة من أن يدا لن تمتد إليها ما دام قومها في هذه المناعة فكأنه يشير إلى موقع عمورية الجغرافي في كونها منطقة عالية ومنيعة في نفس الوقت بحصونها وجبالها ورجالها، ثم عبر عنها بأنها مثل الفرس الجموح التي أتعبت كسرى فلم يستطع ترويضها أو الوصول إليها وكذلك فإن هذه الفرس صدت وأعرضت بقوة وصلف عن أبي كرب اليماني الأصل ، في هذا البيت إظهار لتاريخ المدينة .

البحتري والاتجاه المحافظ

إذا كان أبو تمام يمثل المذهب الجديد في العصر العباسي ، وإذا كان النقاد والباحثون يرون فيه رأس مدرسة البديع في هذا العصر ، والقمة التي وصلت إليها بعد أن بدأ الطريق مسلم بن الوليد ، فإن البحتري يمثل المذهب التقليدي ، ويعد عند النقاد والباحثين رأس مدرسة المحافظين في الشعر العباسي ، والقمة التي وصلت إليها هذه المدرسة في هذا العصر.

وقد شغل الخلاف بين المدرستين اللتين يمثلهما هذان الشاعران الكبيران أذهان الناس في عصرهما ، كما شغل النقاد والباحثين في تاريخ الشعر العربي بعد هذا العصر . ويقوم هذا الخلاف بين النقاد القدماء على أساس فكرة "عمود الشعر" ، فأبو تمام يمثل الخروج على عمود الشعر والثورة عليه ، والبحتري يمثل المحافظة عليه والتمسك به .

والمراد بعمود الشعر التقاليد الفنية التي ورثها الشعراء المحدثون من الشعر القديم ، أو مجموعة الأصول الفنية التي كان الشعراء القدماء يقيمون شعرهم على أساسها ، والتي كان النقاد المحافظون في العصر العباسي يرون أن من الضروري أن يحرص الشعراء المعاصرون عليها ، لأنها أصول موروثة عن أولئك الرواد الأوائل الذين وضعوا الأسس الأولى للشعر العربي . ومن هنا كان الخارجون على هذه التقاليد من أمثال أبو تمام يعدون عندهم خارجون على عمود الشعر، أما المتمسكون بهذه التقاليد المحافظون عليها من أمثال البحتري فإنهم يمثلون المدرسة المقابلة المحافظة على عمود الشعر .

والبحتري شاعر عربي ، لا يشك أحد في صحة عروبته ، فهو من صميم طيئ ، ويكنى بأبي عبادة ، و يعرف بالوليد بن عبدالله بن يحيى البحتري ، ولد بمَنْبِج عام ٢٠٦هـ (على أرجح الروايات) ، وقضى أيام صباه الأولى في بادية منبج بين العرب الطائيين الذين كانوا منتشرين بها ، وليس من شك في أن نشأته المبكرة بين البدو في هذه البادية كان لها أثر واضح في اتجاهاته الفنية ، ولعلها كانت أحد العوامل التي اتجهت به إلى الحرص على أساليب العرب ، والمحافظة على مذاهبهم الفنية التقليدية .

نشأ البحتري نشأة فقيرة ، وأخذت موهبته الفنية تتفتح منذ وقت مبكر من حياته ، فبدأها بامتداح الباعة المتجولين أمام مسجد منبج ، ولكن أهم حدث مرّ به البحتري في هذه الفترة الأولى من حياته هو اتصاله بأبي تمام ، الذي كان شاعرا مشهورا ، وكان له مجلس في حمص يجلس فيه ، ويجتمع إليه شباب الشعراء والأدباء ليستمعوا إلى شعره ، ويعرضوا عليه أعمالهم الفنية ، ويتلقوا منه التوجيهات ، وعن ذلك يقول البحتري : كان أول أمري في الشعر ونباهتي أن صرت إلى أبي تمام وهو بحمص فعرضت عليه شعري — وكان الشعراء يعرضون عليه شعرهم — فأقبل علي وترك سائر من حضر فلما تفرقوا ، قال لي : " أنت أشعر من أنشدني ، فكيف بالله حالك ؟" فشكوت إليه حالي ، فكتب إلى أهل مَعَرَّة النُعْمان ، وشهد لي بالحذق في الشعر وقال لي : " امتدحهم " فصرت إليهم فأكرموني بكتابه ، ووظفوا لي أربعة آلاف درهم ، فكان أول مال أصبته.

وقضى البحتري فترة من حياته في معرة النعمان ، ثم رحل إلى العراق حاضرة الخلافة ومطمع الشعراء الطامحين في الغنى والثراء . وفي طريقه إلى العراق نزل بكثير من الأسر الطائية في الشام ، ومدح رؤساءها ونال جوائزهم ، ثم انتهى به المطاف إلى بغداد ، فاتصل بسادتها وقوادها وأمرائها ، ثم تحقق له أخيرا أمله الذي كان يسعى إليه ، فاتصل بالقصر العباسي وأخذ يمدح خلفاءه .

وقد عاصر البحتري سبعة من الخلفاء العباسيين : الواثق والمتوكل والمنتصر والمستعين والمعتز والمهتدي والمعتمد . ولكن الخليفة الأساسي في حياته هو المتوكل الذي اتصل به اتصالا وثيقا ، ولازمه ملازمة طويلة استمرت أكثر من اثنتي عشرة سنة ، ولم تنقطع إلا حين قطعها الموت بمقتل المتوكل .

فلما قتل المتوكل ، واضطربت الأمور السياسية من بعده ، رحل البحتري بعيدا عن العراق إلى بلاد فارس، ونظم هناك أشهر قصائده ، سينيته الرائعة التي يصف فيها إيوان كسرى ، ويبكي دولة الفرس الزائلة ، وكأنما وجد في زوال هذه الدولة وتداعي هذا الديوان مجالا للتخفيف من أحزانه الطاحنة التي كانت تملأ نفسه بعد مصرع المتوكل ، وكأنما كان يرمز بهذه القصيدة إلى زوال ملك المتوكل وتداعي عرشه وخراب قصره بعد مصرعه .

ثم عاد البحتري بعد ذلك إلى منبج ، وقضى فيها فترة غير طويلة في عزلة بعيدا عن السياسة والسياسيين ، ولكن يبدو أنه أدرك أن هذه العزلة لن تجديه شيئا ، وستلقي به في منطقة الظل والنسيان ، فشد رحاله مرة أخرى إلى العراق واتصل بالخلفاء من جديد .

وفي أواخر خلافة المعتمد عاد البحتري عودته الأخيرة إلى منبج ، وبقي فيها حتى أدركته المنية عام ٢٨٤هـ وهو شيخ كبير في الثمانين من عمره ، وهكذا صمت البلبل الغرّيد بعد أن ظل يصدح بألحانه العذبة الصافية أكثر من نصف قرن من الزمان .

مذهبه في الشعر :

يؤمن البحتري بأن الشعر لا يمكن أن يكون صناعة عقلية تقوم على المزاوجة بين العقل والشعور أو الامتزاج بين الفن والثقافة كما كان هذا الأمر عند أبي تمام ، فهو يرى أن الشعر عملية فنية تعتمد على العاطفة والشعور ، ولا صلة لها بالمنطق ، ولا دخل لها بالثقافة . وقد صرح بمذهبه الفني في قوله

كلّفتمونا حدودَ منطقكمْ ... والشِّعـــــرُ يُغْنى عن صدقه كَذِبُهْ
ولم يكن ذو القُروح يَلْـــ ... ـــهَجُ بالمنطق ما نوعُهُ وما سَبَبُهْ
والشعر لَمْحٌ تكفي إشارتُه ... وليـــــــــسَ بالهَذْرِ طُوِّلَـــتْ خُطَبُهْ

فالشعر عنده ـــ كما يعلن في هذه الأبيات ـــ تعبير عن العاطفة والشعور ولا دخل للمنطق فيه ، فهو فن جميل . وهو يؤمن بالفكرة القديمة التي ترى أن أعذب الشعر أكذبه . ومعنى هذه الفكرة في ضوء مذهب البحتري أن الشعر لا يقوم على أساس عقلي ولا يخضع لمقاييس المنطق . وهو يدافع عن هذه

الفكرة بأمرين : الأول أن رواد هذا الشعر الذين رسموا للشعر طريقه لم يكونوا يعرفون المنطق ولا ضرب لهم مثلا بذي القروح (امرؤ القيس) ، والثاني أن طبيعة الشعر لا تحتمل الأدلة والبراهين ، لأن هذه العناصر العقلية من طبيعة النثر وليست من طبيعة الشعر ، فطبيعة الشعر رمزية تعتمد على اللمحة السريعة التي تسجل اللحظة الشعورية التي تومض في نفس الشاعر . ومن هذا قال أبو العلاء عبارته المشهورة : " البحتري هو الشاعر وأما أبو تمام والمتنبي فحكيمان "

٢ بقدر ما تقل العناية بالمنطق في شعر البحتري ، تشتد العناية باللفظ ، فالبحتري في كل شعره حريص أشد الحرص على الملاءمة بين اللفظ والموضوع ، مع جنوح واضح إلى اللفظ القريب إلى الفهم ، البعيد عن الإغراب والتعقيد .

٣ كما أن أسلوب البحتري يتميز بالموسيقى التي يرتفع رنينها في شعره ارتفاعا ربما لم يعرفه الشعر العربي إلا عند الأعشى (صناجة العرب) في العصر الجاهلي . فالموسيقى عنصر أساسي في شعره يعتمد عليه اعتمادا كبيرا ، وقد قامت موسيقاه على أساسين هما : تنسيق ألفاظه وتوزيعها موسيقيا ، ثم مطابقة هذه الألفاظ من الناحية الصوتية للمعاني التي تدل عليها .

فالبحتري يعنى أشد العناية بالتوزيع الموسيقي لألفاظه حتى لتتحول عنده إلى أدوات موسيقية تؤدي دورها في تناسق وانسجام كامل . كما يحرص على أن يكون الجرس الصوتي لألفاظه معبرا عن معانيه وموحيا بها ، فإذا أراد أن يعبر عن المعنى العنيف اختار له الألفاظ ذات الرنين الصوتي القوي ، وإذا أراد أن يعبر عن المعنى الرقيق اختار له الألفاظ ذات الرنين الصوتي الهادئ الناعم .

على هذا النحو كان البحتري يصوغ شعره معتمدا على البساطة في المعنى ، والموسيقى في اللفظ ، والمحافظة على أصالة الصياغة ، والحرص على التقاليد الفنية الموروثة عن الشعراء القدماء .

والواقع أن البحتري قد ارتفع بالصنعة الفنية في الشعر العربي التي تلقاها عن الشعراء الذين سبقوه إلى الذروة التي وصلت إليها هذه الصنعة في مفهومها العربي الأصيل . وبحق ما أطلقه القدماء على شعره وما وصفوه به من أنه " سلاسل الذهب " .

وصف بركة المتوكل للبحتري

عُرف الوصف منذ بداية الشعر العربي ، وقد أصبح في العصر العباسي فنا مستقلا بفعل الطبيعة الغنية بالجمال ، ومظاهر الحضارة الجديدة التي عُني بوصفها الشعراء ، والبحتري من الشعراء الذين برعوا في غرض الوصف وقصيدته في وصف بركة المتوكل نموذج يظهر عنايته بتفاصيل وجزئيات الموصوف الذي ينقله عبر شعره ليصبح رأيَ العين بالصور المختلفة التي يستعملها ، غير أن هذه القصيدة لم تكن في غرض الوصف وحده ، فقد استهل الشاعر قصيدته بالمقدمة الطللية التي ذكر فيها الشوق إلى الحبيب وكان مطلعها :

ميلوا إلى الدار من ليلى نحيِّيها *** نعم ونسألها عن بعض أهليها

ثم كان وصف البركة بعد ذلك بدأً من قوله :

يا من رأى البركة الحسناء رؤيتها *** والآنسات إذا لاحت مغانيها

إلى أن انتقل بعد ذلك إلى مدح الخليفة المتوكل من قوله :

كأنها ، حين لجّت في تدفقها *** يد الخليفة لما سال واديها

ليصل بهذا المدح إلى نهاية القصيدة .

لكن الجزء الذي سنركز عليه بالدراسة هو الجزء الخاص بوصف البركة لما للوصف من حضور جمالي في شعر البحتري ، فقد اتخذ له طريقة خاصة في وصفه تقوم على اختيار التفاصيل الطريفة المحسوسة لتأليف لوحات متناسقة تروع بائتلافها ، وتؤثر بما فيها من حياة وحركة، وبما يجعل فيها من موسيقى رائعة . يقول البحتري في وصف بركة المتوكل :

يا مَنْ رأى البِرْكَةَ الحَسْنَاءَ رُؤيَتَها،

والآنِسَاتِ، إذا لاحَتْ مَغَانِيها

بَحَسْبِهَا أنّها، في فَضْلِ رُتْبَتِها،

تُعَدُّ وَاحِدَةً والبَحْرُ ثَانِيها

ما بَالُ دِجْلَةَ كالغَيْرَى تُنَافِسُها

في الحُسْنِ طَوْراً وأطْوَاراً تُبَاهِيهَا

أمَا رَأَتْ كالِئَ الإسلامِ يَكْلَؤُهَا

مِنْ أنْ تُغَالَبَ، وَبَانِي المَجْدِ يَبْنِيهَا

كَأَنَّ جِنَّ سُلَيْمَانَ الَّذِينَ وَلَوْا

إِبْدَاعَهَا، فَأَدَقُّوا فِي مَعَانِيهَا

فَلَوْ تَمُرُّ بِهَا بَلْقِيسُ عَنْ عَرَضٍ

قَالَتْ هِيَ الصَّرْحُ تَمْثِيلاً وَتَشْبِيهَا

تَنْحَطُّ فِيهَا وُفُودُ الْمَاءِ مُعْجِلَةً،

كَالْخَيْلِ خَارِجَةً مِنْ حَبْلِ مُجْرِيهَا

كَأَنَّمَا الْفِضَّةُ الْبَيْضَاءُ، سَائِلَةً،

مِنَ السَّبَائِكِ تَجْرِي فِي مَجَارِيهَا

إِذَا عَلَتْهَا الصَّبَا أَبْدَتْ لَهَا حُبُكاً

مِثْلَ الْجَوَاشِنِ مَصْقُولاً حَوَاشِيهَا

فَرَوْنَقُ الشَّمْسِ أَحْيَاناً يُضَاحِكُهَا،

وَرَيْنُ الْعَيْثِ أَحْيَاناً يُبَاكِيهَا

إِذَا النُّجُومُ تَرَاءَتْ فِي جَوَانِبِهَا

لَيْلاً حَسِبْتَ سَمَاءً رُكِّبَتْ فِيهَا

لَا يَبْلُغُ السَّمَكُ الْمَحْصُورُ غَايَتَهَا

لِبُعْدِ مَا بَيْنَ قَاصِيهَا وَدَانِيهَا

يَعُمْنَ فِيهَا بِأَوْسَاطٍ مُحَنَّجَةٍ

كَالطَّيْرِ تَنْقَضُّ فِي جَوٍّ خَوَافِيهَا

لَهُنَّ صَحْنٌ رَحِيبٌ فِي أَسَافِلِهَا،

إِذَا انْحَطَطْنَ، وَبَهْوٌ فِي أَعَالِيهَا

صُوَرٌ إِلَى صُورَةِ الدِّلْفِينِ، يُؤْنِسُهَا

مِنْهُ الْزِوَاءُ بِعَيْنَيْهِ يُوَازِيهَا

شرح الأبيات :

يا مَنْ رَأى البِرْكَةَ الحَسْناءَ رُؤيَتَها،

والآنِسَاتِ، إذا لاحَتْ مَغَانِيها

الآنسات : جمع آنسة ، وهي الجارية الطيبة النفس . مغانيها : منازلها . الحسناء : الجميلة . لاحت: ظهرت

يبدأ الشاعر وصفه للبركة بالنداء الذي وجهه إلى كل محظوظ شاهد هذه البركة الجميلة التي تشبه الفتاة الفاتنة في حسنها ، وهذه الصورة هي على سبيل الاستعارة المكنية فقد شبه البركة بالفتاة الفاتنة وحذف المشبه به وأتى بشيء من لوازمه (الحسناء) ، ويزيد من جمال هذه البركة وبهائها انتشار الآنسات في مقصورا تهن حولها وكأنها أميرة حسناء يحيط بها وصيفات لها .

بِحَسْبِهَا أنَّها، في فَضْلِ رُتْبَتِها،

تُعَدُّ وَاحِدَةً والبَحْرُ ثانِيها

بحسبها : يكفيها . واحدة : الأولى .

وللمزيد من الإغراء أو المبالغة في الوصف يؤكد أن هذه البركة يكفيها جمالا وبهاء في مرتبتها بين البحار والأنهار أنها متميزة منفردة بخصائص لا توجد في غيرها ، لذا تعد واحدة أي : الأولى ، ثم البحر تاليا لها في المرتبة الثانية ، فالبركة في جمالها وبهائها تفوق جمال البحر وروعته ، وهذا من قبيل المبالغة في المدح ، لأن البحر من صنع الله تعالى ، والبركة من صنع البشر ، ولا يمكن مهما بلغت قوة البشر وإبداعهم أن يصلوا إلى أن تكون البركة في مستوى البحر جمالا وبهاء .

ما نَالُ دِجْلَةَ كالغَيْرَى تُنَافِسُها

في الحُسْنِ طَوْراً وأطْوَاراً تُبَاهِيها

الغيرى : التي تغار من غيرها . تباهيها : تفاخرها بمحاسنها .

وبعد هذا الوصف لفضل هذه البركة في الجمال والحسن ، أظهر الشاعر تعجبه من نهر دجلة الذي أصبح مثل المرأة التي تغار وتنافس غيرها في الحسن والجمال ، وهذا التعجب يعكس مكانة البركة التي يراها الشاعر ، فهو عندما يعجب من هذه الغيرة التي رسمها النهر دجلة ؛ يقدم بركة المتوكل على نهر دجلة ويجعل منها شيء منقطع النظير يفوق حسن كل ذي حسن ، حتى إن هذا الأمر يصبح مدعاة للتعجب لأن كل جميل عليه ألا يطمح ولا يباهي هذه البركة لأنه سينتهي إلى الإخفاق .

أَمَا رَأَتْ كالِئَ الإسلامِ يَكْلَؤُهَا

مِنْ أَنْ تُعَابَ، وَبَانِي المَجْدِ يَبْنِيهَا

الكالئ : الحارس ، وأراد بكالئ الإسلام الخليفة المتوكل .

لكن الشاعر لم يقف عند التعجب من فعل دجلة بل وجه سؤلا استنكاريا يقول فيه : أما رأت دجلة أن الذي يرعى ويقوم على هذه البركة هو خليفة الإسلام وأمير المؤمنين ، وكيف لها أن تعاب والخليفة المتوكل الذي بنى المجد هو الذي بناها ، فهي أقرب للكمال لذا سيكون الفوز في هذه المنافسة من نصيب البركة إذ لا عيب في بنائها لأن يد الخليفة تتعهدها .

كَأَنَّ جِنَّ سُلَيْمَانَ الذينَ وَلُوا

إبْداعَهَا، فأدَقّوا في مَعَانِيهَا

ونظرا لأن جمال البركة وصفائها تعتبر من الأمور غير المألوفة لدى البشر على عادة العرب ، وعلى عادة العرب حيث كانوا ينسبون الأعمال الخارقة للجن ؛ خص جن سليمان عليه السلام بتولي إبداعها لدقة صنعها .

ثم لما ذكر سيدنا سليمان ذكر بلقيس التي بنى لها قصرا ممرادا هو الصرح فقال :

فَلَوْ تَمُرُّ بِهَا بَلْقِيسُ عَنْ عَرَضٍ

قالَتْ هيَ الصَّرْحُ تَمثيلاً وَتَشبيهَا

يقول : لو أن الملكة بلقيس مرت بها لتوهمت أنها صرحها لصفائها ولتمام إتقانها ، وبين تمثيلا وتشبيها تكرار غرضه التأكيد على المشابهة بين الصرح والبركة .

تَنْحَطُّ فيها وُفُودُ الماءِ مُعْجِلَةً،

كالخَيلِ خَارِجَةً من حَبْلِ مُجرِيهَا

يقول : تنصب في هذه البركة جداول من الماء بسرعة وقوة لأن هذه الجداول منطلقة مثل الخيل في مضمار السباق ، حيث كانت الخيل تنطلق عند سحب الحبل الذي ينبئ ببدء السباق بسرعة شديدة وهذا يدل على نقاء هذه المياه وكثرتها .

كأنّما الفِضّةُ البَيضاءُ، سَائِلَةً،

مِنَ السّبائِكِ تَجْرِي في مَجَارِيها

بعد أن وصف جريان هذه الوفود الكثيرة من الماء ، بدأ الشاعر يصف طبيعة هذا الماء ، فقال : كأن الذي يجري ليس ماء بل فضة سائلة ، ووجه الشبه الصفاء ، وأختار الفضة السائلة من السبائك لأنها أشد صفاء في هذه الحالة .

إذا عَلَتْهَا الصَّبَا أبدَتْ لَهَا حُبُكاً

مثلَ الجَوَاشِنِ مَصْقُولاً حَوَاشِيهَا

الصبا : الرياح الشرقية الليّنة . حُبُكا : تكسر الماء وتعرجه مثل الطرائق التي تكون في الرمال عندما تهب عليها الرياح . الجواشن : الدروع .

هذه البركة من شدة نقائها وصفائها كانت رقيقة المياه بحيث إذا أصابتها الصّبا أظهرت في سطح الماء تعرجات مثل الطرائق التي تتكون في الرمل عندما تهب عليها الرياح ، وقد خص الصّبا لأنها ريح هينة لطيفة ليدلل على رقة مياه البركة ، وهذه الرقة تعكس صفاء الماء الذي أشبه الدروع التي صقلت حواشيها فأصبحت لامعة اللون صافية من كل كدر .

فَرَوْنَقُ الشّمسِ أحْيَاناً يُضَاحِكُها،

وَرَيْقُ الغَيْثِ أحْيَاناً يُبَاكِيهَا

والشمس بهائها وإشراقها تعكس أشعتها على سطح البركة ، كأنها تضاحكها ، والغيث كأنه يباكيها بانسكاب قطرات الماء الصافية عليها .

والشاعر في هذا البيت :

- شبه الشمس في انعكاسها على الماء بالإنسان الذي يشارك بالضحك ، فكأن الأشعة المنعكسة ابتسامة مشرقة ، وهذا على سبيل الاستعارة المكنية .
- وشبه المطر الصافي بالإنسان الذي يشارك البركة البكاء ، على سبيل الاستعارة المكنية .
- كما استعار للغيث ريق الإنسان على سبيل الاستعارة المكنية أيضا .

بالبرّ صمت وأنت أفضل صائم ... وبسنة الله الرضية تقطر
فانعم بيوم الفطر حينا إنه ... يوم أغر من الزمان مشهّر
أظهرت عزّ الملك فيه بمحفل ... يجب يحاط الدين فيه ويبصر
فالخيل تصهل والفوارس تدّعي ... والبيض تقرع والأسنة تزهر
والأرض خاشعة تميس بنقلها ... والطير معتكر الجوانب أغبر
والشمس طالعة توقّد في الضحى ... طوراً ويطفئها العجاج الأكدر
حتى طلعت بنور وجهك فانجلى ... ذاك الدجى وانجاب ذاك العثير
فالقلب فيك الناظرون فإصبع ... يومى إليك بها بعين تنظر
ذكروا بطلعتك النبيّ وهالوا ... لما طلعت من الصفوف وكبروا
حتى انتهيت إلى المصلّى لابسا ... نور الهدى يبدو عليك ويشهر
ومشيت مشية خاشع متواضع ... لله لا يزهى ولا يتكبر
فلو أن مشتاقا تكلف فوق ما ... في وسعه لسعى إليك المنبر
أبديت من فصل الخطاب بحكمة ... تنبى عن الحق المبين وتخبر
ووقفت في بركم النبي مذكراً ... بالله تنذر تارة وتبشر

ومن قوله في الطيف :

إنما ما الكرى أهدى إلى خياله ... شفى قربه التبريح أو نقع الصدى
إذا انتزعته من يدى النائمة ... حسبت حبيبا راح منى أو غدا
لم أر مثليْنا ولا مثل شأننا ... نعذّب أبقاظا وننعم رُقّدا

المتنبي

٣٠٣ — ٣٥٤ هـ

نشأته وعبادته

أبو الطيب أحمد بن الحسين المتنبي ولد بالكوفة من أبوين فقيرين . كان

أبوه سقاء بالكوفة . ثم سافر به وهو صغير إلى الشام متنقلا من البادية إلى الحاضرة يسلمه إلى المكاتب ، ويردده فى القبائل ، وتخايله نواطق بفضله ، فتوامن لنجعه ، حتى توفى أبوه وقد ترعرع الشاعر ونال حظه من علوم اللغة والأدب فأخذ يضرب فى الأرض ابتغاء الرزق واكتسابا للمجد .

وكان المتنبى منذ نشأته كبير النفس عالى الهمة طموحا إلى المجد . بلغ من كبر نفسه أن دعا إلى بيعته[1] بالخلافة وهو لدن العود حديث السن . وحين كاد يتم له الأمر تأدى خبره إلى والى البلدة فأمر بحبسه . فكتب إليه من السجن قصيدة منها :

أمالِكَ رِقّى ومَن شأنه هباتُ اللُّجَين وعتقُ العبيد
دعوتك عند انقطاع الرجا ء والموت منى كحبل الوريد
دعوتك لما برانى البِلى وأوهن رجلىَّ ثقلُ الحديد
تعجّل فىَّ وجوبَ الحدود وحدّى قبل وجوب السجود[2]

فأطلقه . ولكن حب الرياسة لم يزل متمكنا من قلبه إلى أن أخلق بُرد شبابه وتضاعفت عقود عمره . وفى سنة ٣٢٣ ادعى النبوة فى الشام وفتن شرذمة من الناس بقوة أدبه وسحر بيانه . ولما سئل عن النبى صلى الله عليه وسلم قال : إنه بشر بمجيئى وأخبر بنبوتى . فقال : لا نبىَّ بعدى ، وأنا اسمى فى السماء (لا) . وصنف كلاما عارض به القرآن . فلما اشتهر أمره قبض عليه لؤلؤ أمير حمص نائب الأخشيدية ، فأوثقه ثم أطلقه بعد أن استتابه . وتفرق عنه أصحابه . فطفق يتجشم أسفارا أبعد من آماله ، ولا زاد إلا صبره ، ولا عدة إلا بأسه ، كما يتجلى ذلك فى مثل قوله :

وجيد من اخلاق فى كل بلدة إذا عظم المطلوب قل المساعد

وقوله :

---

(١) اليتيمة ١ ص ٢٩ .

(٢) يريد : إنى صبى لم أبلغ الحلم فيجب على السجود ، فكيف تجب على الحدود ؟

ضاق صدرى وطال فى طلب الرز ق قيامى وقل عنه قعودى
أبداً أقطع البلاد ونجمى فى نحوس وهمتى فى سعود

ولم يزل هكذا حتى اتصل بأبى العشائر وإلى أنطاكية من قبل سيف الدولة وامتدحه ، فأكرم مثواه وقدمه إلى سيف الدولة وعرفه بمنزلته من الشعر والأدب فضمه الأمير إليه وحسن موقعه عنده ، فسلمه إلى الرواض فعلموه الفروسية والطراد حتى لا يفارقه فى الحرب ولا فى السلم . وأفهم وطابه ودربت له أخلاق الدنيا على يده ، حتى كان من قوله فيه :

تركت الشرى خلفى لمن قل ماله وأنعلت أفراسى بنعلك عسجدا
وقيدت نفسى فى هواك محبة ومن وجد الإحسان قيداً تقيداً

ولم يزل معه فى حال حسنة حتى حدثت بينهما حقود ففارقه[1] إلى مصر فى سنة ٣٤٦ . ومدح كافوراً الإخشيدى وأبا شجاع . وأقام بمصر ردحاً من الزمن يرقب الفرصة من كافور فيصعد المجد على كاهله . فلما لم يأته قال :

أبا المسك ، هل فى الكأس فضل أناله فإنى أغنى منذ حين وتشرب

وقال :

وهل نافعى أن ترفع الحجب بيننا ودون الذى أملت منك حجاب
وفى النفس حاجات وفيك فطانة سكوتى بيان عندها وخطاب

حتى أوجس كافور منه خيفة ، لتعاليه فى شعره وطموحه إلى الملك فقوى عنه وجهه ، فهجاه وقصد بغداد . ولم يمدح الوزير المهلبى لأنه كان يترفع عن مدح غير الملوك ، فشق ذلك على الوزير فأملى عليه شعراء بغداد قتالوا من عرضه ومن شعره : ولكنه لم يجبهم ، وذهب قاصداً أرجان لزيارة الصاحب فى العيد فكتب إليه الوزير الصاحب بن عباد يستزيره بأصبهان طامعاً أن يمدحه فلم يقم له وزناً ، وأم عضد الدولة بشيراز . فأوغر عليه قلب الصاحب وأخذ يتتبع هفواته : وهو أعلم

(١) أثر هذا الفراق فى أبى الطيب فاضطرب أمره وتتابع شعره . ولما هرب فى آخر أيامه على ذلك قال : قد عجوزت فى قولى ، وأقعيت طبعى ، واغتنمت الراحة منذ تركت آل حمدان .

الناس بحسناته — وشين عليه هو وأشياعه حرباً قاسية ، وألفوا الكتب فى نقده ورموه بالسرقة والخروج عن الأساليب العربية ، وهو لا يأبه لهم ذهاباً بنفسه وإعجاباً بشعره .

* * *

ولما حصل عند عضد الدولة أسبغ عليه نعمته ووصله بثلاثة آلاف دينار وخيول وثياب ؛ ثم دس عليه من يسأله : أين هذا العطاء من عطاء سيف الدولة؟ فقال له : هذا أجزل إلا أنه متكلف ، وسيف الدولة كان يعطى طبعاً . فغضب عضد الدولة من ذلك . ويقال إنه جهز عليه فاتكاً الأسدى فى قوم من بنى ضبة ، فعرض له بالصافية من سواد بغداد واقتتلا . فلما رأى الدائرة عليه هم بالفرار . فقال له غلامه : لا يتحدث الناس عنك بالفرار وأنت القائل :

الخيل والليل والبيداء تعرفنى والسيف والرمح والقرطاس والقلم

فقاتل حتى قتل هو وولده وغلامه فى أواخر رمضان من سنة ٣٥٤ هـ .

شعره

المتنبى شاعر من شعراء المعانى ؛ وفق بين الشعر والفلسفة ؛ وجعل أكثر عنايته بالمعنى ؛ وأطلق الشعر من القيود التى قيده بها أبو تمام وشيعته ، وخرج به عن أساليب العرب التقليدية . فهو إمام الطريقة الابتداعية[1] فى الشعر العربى . ولقد حظى فى شعره بالحكم والأمثال ، واختص بالابداع فى وصف القتال ، والتشبيب بالأعرابيات ، وإجادة التشبيه ، وإرسال المثلين فى بيت واحد ، وحسن التخلص ، وصحة التقسيم ، وإبداع المديح ، وإيجاع الهجاء . وأخص ما يميز المتنبى

(١) الابتداعية كما قلنا من قبل ترجمة معنوية لكلمة Romantique لأن أهل هذه الطريقة من الألمان والإنجليز والفرنسيين قد خرجوا على الطريقة الاتباعية Classique بابتداع أسلوب جديد للشعر فى أوربا بعد عناء طويل وجدال عنيف بين أرباب الطريقتين . وإن فى خروج أبى الطيب المتنبى وابن هانىء الأندلسى وأبى العلاء المعرى وأضرابهم على أساليب العرب المخصوصة وإطلاقهم الشعر من قيود الصناعة ما يشبه تلك الطريقة .

بروز شخصيته فى شعره ، وصدق إيمانه برأيه ، وقوة اعتداده بنفسه ، وصحة تعبيره عن طبائع النفس ومشاغل الناس وأهواء القلوب وحقائق الوجود وأغراض الحياة ؛ ولذلك كان شعره فى كل عصر مدداً لكل كاتب ، ومثلا لكل خاطب .

عيوب شعره

بيت المتنبى يضيق أحياناً بمعناه فيعسر فهمه ، وتبعد غايته فيطيش سهمه ، وقد بلغ من إهماله اللفظ أن وقع فى بعض المساوىء ، كاستكراه اللفظ ، وتعقيد المعنى ، واستعمال الغريب ، وقبح الطالع ، ومخالفة القياس ، وكثرة التفاوت فى شعره ، والخروج فى المبالغة إلى الإحالة ، كقوله :

ولا الضعف حتى يبلغ الضعف ضعفه ... ولا ضعف ضعف الضعف بل مثله ألف

وقوله :

أنى يكون أبا البرايا آدم ... وأبوك والثقلان أنت محمد (١)

وقوله :

لو لم تكن من ذا الورى التى منك هو ... عقمت بمولد نسلها حواء

والاستشهاد على كل ذلك يخرج بنا إلى التطويل فنرجع إلى بقية الدهر للثعالبى .

نموذج من شعره

قال يشكو الزمان :

لم يترك الدهر من قلبى ولا كبدى ... شيئاً تتيمه عين ولا جيد

ياساقيى أخمرٌ فى كؤوسكما ... أم فى كؤوسكما همٌّ وتسهيد ؟

أصحوة أنا ؟ مالى لا تفيوق ... هذى المدام ولا تلك الأناشيد ؟

إذا أردت كميت الخمر صافية ... وجدتها وحبيب النفس مفقود

(١) تقديره : أنى يكون آدم أبا البرايا وأبوك محمد وأنت الثقلان .

ماذا لقيت من الدنيا ؟ وأعجبها ... أنى بما أنا باكٍ منه محسود !

وقال يتفلسف :

نحن بنو الموت فما بالنا ... نعاف مالا بد من شربه ؟
تبخل أبدينا بأرواحنا ... على زمان هن من كسبه
فهذه الأرواح من جوه ... وهذه الأجسام من تربه
لو فكر العاشق فى منتهى ... حسن الذى يسبيه لم يسبه
لم يُرَقْ نُ الشمس فى شرقه ... فشكت الأنفسُ فى غربه
يموت راعى الضأن فى جهله ... موتة جالينوس فى طبه
وربما زاد على عمره ... وزاد فى الأمن على سربه
وغاية المفرط فى سلمه ... كغاية المفرط فى حربه

وقال :

نصيبك فى حياتك من حبيب ... نصيبك فى منامك من خيال
رمانى الدهرُ بالأرزاء حتى ... فؤادى فى غشاء من نبال
فصرت إذا أصابتنى سهام ... تكسرت النصال على النصال
وهان فما أبالى بالرزايا ... لأنى ما انتفعت بأن أبالى

وقال :

صحب الناسُ قبلنا ذا الزمانا ... وعناهم من أمره ما عنانا
وتولوا بغصة كلهم منـ ... ـه وإن سرّ بعضهم أحيانا
ربما تحسن الصنيع لياليـ ... ـه ولكن تكدر الإحسانا
وكأنا لم يرضَ فينا بريب الدهـ ... ـر حتى أعانه من أعانا
كلما أنبتَ الزمانُ قناة ... ركّب المرء فى القناة سنانا
ومُرادُ النفوس أصغر من أن ... نتعادى فيه وأن نتفانى
غير أن الفتى يلاقى المنايا ... كالحات ولا يلاقى الهوانا
ولو أن الحياة تبقى لحى ... لعددنا أضلنا الشجعانا

وإذا لم يكن من الموت بُدٌّ فمن العجز أن تموت جبانا

وقال أيضاً :

زوديلنا من حسن وجهك ما دا م فحسن الوجوه حالٌ تحول

وصليلنا نصلك في هذه الدا رِ فإن المقام فيها قليل

أبو فراس الحمداني

٣٢٠ — ٣٥٧ هـ

نشأته وحياته

هو أبو الحارث بن أبي العلاء ابن عم سيف الدولة . ولد بمنبج وربي في حجر النعيم بين أبهة الملك وعزة السلطان . فنشأ على خلال العظماء شجاعاً أبي النفس سليم الطبع ، كريم الخلق ، جامعاً بين أدبي السيف والقلم . وكان سيف الدولة معجباً بمحاسنه مؤثراً له على سائر قومه ، فاصطنعه لنفسه ، واصطحبه في غزواته ، واستخلفه في أعماله ؛ فكان الدرة الفريدة في تاج سيف الدولة ، يقود جيوشه في الحرب ، ويرأس كتابه في السلم . وكان النصر حليفه في كل وقائعه ، فمالت إليه القلوب وطابت به كرة الألسن ، وانطلق لسانه يراع الشعر في الفخر والحماسة ووصف الحروب ، حتى خانه القدر فأسره الروم في بعض الوقائع وهو جريح قد أصابه سهم في نحره ، فسيقوه مخرشنة ، ثم نقلوه إلى القسطنطينية . وتعذرت الفداء فلبث في الأسر أربع سنين ظهرت فيها أشعاره الرومياتية ملأى بعواطف الحب والحنين إلى أهله وأحبابه ، مثلة ما يكن صدره من لواعج الشوق لأمه العجوز وابنته الوحيدة ، وعوامل الحب لسيف الدولة . ولم يزل أبو فراس يعالج مرارة الأسر ولوعة الشوق حتى توفي في الحدث والأسرى فأطلقه الروم بعد أن أكرموه وبجلوه .

وقال يمدحه ويذكر بناءه ثغر الحدث سنة ثلاث وأربعين وثلاثمائة:[١٦٢]

عَلَى قَدْرِ أَهْلِ الْعَزْمِ تَأْتِي الْعَزَائِمُ ... وَتَأْتِي عَلَى قَدْرِ الْكِرَامِ الْمَكَارِمُ[١٦٣]
وَتَعْظُمُ فِي عَيْنِ الصَّغِيرِ صِغَارُهَا ... وَتَصْغُرُ فِي عَيْنِ الْعَظِيمِ الْعَظَائِمُ[١٦٤]
يُكَلِّفُ سَيْفُ الدَّوْلَةِ الْجَيْشَ هَمَّهُ ... وَقَدْ عَجَزَتْ عَنْهُ الْجُيُوشُ الْخَضَارِمُ[١٦٥]
وَيَطْلُبُ عِنْدَ النَّاسِ مَا عِنْدَ نَفْسِهِ ... وَذَلِكَ مَا لَا تَدَّعِيهِ الضَّرَائِمُ[١٦٦]
يُعَدِّي أَتَمُّ الطَّيْرِ عُمْرًا سِلَاحُهُ ... نُسُورُ الْمَلَا أَحْدَاثُهَا وَالْقَشَاعِمُ[١٦٧]
وَمَا ضَرَّهَا خَلْقٌ بِغَيْرِ مَخَالِبٍ ... وَقَدْ خُلِقَتْ أَسْيَافُهُ وَالْقَوَائِمُ[١٦٨]
هَلِ الْحَدَثُ الْحَمْرَاءُ تَعْرِفُ لَوْنَهَا ... وَتَعْلَمُ أَيَّ السَّاقِيَيْنِ الْغَمَائِمُ؟[١٦٩]
سَقَتْهَا الْغَمَامُ الْغُرُّ قَبْلَ نُزُولِهِ ... فَلَمَّا دَنَا مِنْهَا سَقَتْهَا الْجَمَاجِمُ[١٧٠]
بَنَاهَا فَأَعْلَى وَالْقَنَا تَقْرَعُ الْقَنَا ... وَمَوْجُ الْمَنَايَا حَوْلَهَا مُتَلَاطِمُ[١٧١]
وَكَانَ بِهَا مِثْلُ الْجُنُونِ فَأَصْبَحَتْ ... وَمِنْ جُثَثِ الْقَتْلَى عَلَيْهَا تَمَائِمُ[١٧٢]
طَرِيدَةُ دَهْرٍ سَاقَهَا فَرَدَدْتَهَا ... عَلَى الدِّينِ بِالْخَطِّيِّ وَالدَّهْرُ رَاغِمُ[١٧٣]
تُفَيِّتُ اللَّيَالِي كُلَّ شَيْءٍ أَخَذْتَهُ ... وَهُنَّ لِمَا يَأْخُذْنَ مِنْكَ غَوَارِمُ[١٧٤]
إِذَا كَانَ مَا تَنْوِيهِ فِعْلًا مُضَارِعًا ... مَضَى قَبْلَ أَنْ تُلْقَى عَلَيْهِ الْجَوَازِمُ[١٧٥]
وَكَيْفَ تُرَجِّي الرُّومُ وَالرُّوسُ هَدْمَهَا ... وَذَا الطَّعْنُ آسَاسٌ لَهَا وَدَعَائِمُ؟![١٧٦]
وَقَدْ حَاكَمُوهَا وَالْمَنَايَا حَوَاكِمٌ ... فَمَا مَاتَ مَظْلُومٌ وَلَا عَاشَ ظَالِمُ[١٧٧]
أَتَوْكَ يَجُرُّونَ الْحَدِيدَ كَأَنَّهُمْ ... سَرَوْا بِجِيَادٍ مَا لَهُنَّ قَوَائِمُ[١٧٨]
إِذَا بَرَقُوا لَمْ تُعْرَفِ الْبِيضُ مِنْهُمُ ... ثِيَابُهُمُ مِنْ مِثْلِهَا وَالْعَمَائِمُ[١٧٩]
خَمِيسٌ بِشَرْقِ الْأَرْضِ وَالْغَرْبِ زَحْفُهُ ... وَفِي أُذُنِ الْجَوْزَاءِ مِنْهُ زَمَازِمُ[١٨٠]
تَجَمَّعَ فِيهِ كُلُّ لِسْنٍ وَأُمَّةٍ ... فَمَا تُفْهِمُ الْحُدَّاثَ إِلَّا التَّرَاجِمُ[١٨١]
فَسَائِلْهُ وَقْتَ ذَوَّبَ الْغَشُّ نَارُهُ ... فَلَمْ يَبْقَ إِلَّا صَارِمٌ أَوْ ضُبَارِمُ[١٨٢]
تَقَطَّعَ مَا لَا يَقْطَعُ الدِّرْعَ وَالْقَنَا ... وَفَرَّ مِنَ الْأَبْطَالِ مَنْ لَا يُصَادِمُ[١٨٣]
وَقَفْتَ وَمَا فِي الْمَوْتِ شَكٌّ لِوَاقِفٍ ... كَأَنَّكَ فِي جَفْنِ الرَّدَى وَهْوَ نَائِمُ[١٨٤]
تَمُرُّ بِكَ الْأَبْطَالُ كَلْمَى هَزِيمَةً ... وَوَجْهُكَ وَضَّاحٌ وَثَغْرُكَ بَاسِمُ[١٨٥]
تَجَاوَزْتَ مِقْدَارَ الشَّجَاعَةِ وَالنُّهَى ... إِلَى قَوْلِ قَوْمٍ: أَنْتَ بِالْغَيْبِ عَالِمُ[١٨٦]
ضَمَمْتَ جَنَاحَيْهِمْ عَلَى الْقَلْبِ ضَمَّةً ... تَمُوتُ الْخَوَافِي تَحْتَهَا وَالْقَوَادِمُ[١٨٧]
بِضَرْبٍ أَتَى الْهَامَاتِ وَالنَّصْرُ غَائِبٌ ... وَصَارَ إِلَى اللَّبَّاتِ وَالنَّصْرُ قَادِمُ[١٨٨]

حَقَرْتَ الرُّدَيْنِيَّاتِ حَتَّى طَرَحْتَهَا ... وَحَتَّى كَأَنَّ السَّيْفَ لِلرُّمْحِ شَاتِمُ ١٨٩
وَمَنْ طَلَبَ الْفَتْحَ الْجَلِيلَ فَإِنَّمَا ... مَفَاتِيحُهُ الْبِيضُ الْخِفَافُ الصَّوَارِمُ ١٩٠
نَثَرْتَهُمُ فَوْقَ الْأُحَيْدِبِ كُلِّهِ ... كَمَا نُثِرَتْ فَوْقَ الْعَرُوسِ الدَّرَاهِمُ ١٩١
تَدُوسُ بِكَ الْخَيْلُ الْوُكُورَ عَلَى الذُّرَا ... وَقَدْ كَثُرَتْ حَوْلَ الْوُكُورِ الْمَطَاعِمُ ١٩٢
تَخُصُّ فِرَاخَ الْفَتْحِ أَنَّكَ زُرْتَهَا ... بِأُمَّاتِهَا وَهِيَ الْعِتَاقُ الصَّلَادِمُ ١٩٣
إِذَا رَكِفَتْ مَشَّيْتَهَا بِبُطُونِهَا ... كَمَا تَتَمَشَّى فِي الصَّعِيدِ الْأَرَاقِمُ ١٩٤
أَفِي كُلِّ يَوْمٍ ذَا الدُّمُسْتُقُ مُقْدِمٌ ... قَفَاهُ عَلَى الْإِقْدَامِ لِلْوَجْهِ لَائِمُ ١٩٥
أَيُنْكِرُ رِيحَ اللَّيْثِ حَتَّى يَذُوقَهُ ... وَقَدْ عَرَفَتْ رِيحَ اللُّيُوثِ الْبَهَائِمُ؟! ١٩٦
وَقَدْ فَجَعَتْهُ بِابْنِهِ وَابْنِ صِهْرِهِ ... وَبِالصِّهْرِ حَمَلَاتُ الْأَمِيرِ الْغَوَاشِمُ ١٩٧
مَضَى يَشْكُرُ الْأَصْحَابَ فِي قَوْتِهِ الطُّبَا ... بِمَا شَغَلَتْهَا هَامُهُمْ وَالْمَعَاصِمُ ١٩٨
وَيُقْدِمُهُمْ صَوْتُ الْمَشُورَقِيَّةِ فِيهِمِ ... عَلَى أَنَّ أَصْوَاتَ السُّيُوفِ أَعَاجِمُ ١٩٩
يُسَرُّ بِمَا أَعْطَاكَ لَا عَنْ جَهَالَةٍ ... وَلَكِنَّ مَغْنُومًا نَجَا مِنْكَ غَانِمُ ٢٠٠
وَلَسْتَ مَلِيكًا هَازِمًا لِنَظِيرِهِ ... وَلَكِنَّكَ التَّوْحِيدُ لِلشِّرْكِ هَازِمُ ٢٠١
تَشَرَّفُ عَدْنَانٌ بِهِ لَا رَبِيعَةٌ ... وَتَفْتَخِرُ الدُّنْيَا بِهِ لَا الْعَوَاصِمُ ٢٠٢
لَكَ الْحَمْدُ فِي الدُّرِّ الَّذِي لِيَ لَفْظُهُ ... فَإِنَّكَ مُعْطِيهِ وَإِنِّيَ نَاظِمُ ٢٠٣
وَإِنِّي لَتَعْدُو بِي عَطَايَاكَ فِي الْوَغَى ... فَلَا أَنَا مَذْمُومٌ وَلَا أَنْتَ نَادِمُ ٢٠٤
عَلَى كُلِّ طَيَّارٍ إِلَيْهَا بِرِجْلِهِ ... إِذَا وَقَعَتْ فِي مَسْمَعَيْهِ الْغَمَاغِمُ ٢٠٥
أَلَا أَيُّهَا السَّيْفُ الَّذِي لَيْسَ مُغْمَدًا ... وَلَا فِيهِ مُرْتَابٌ وَلَا مِنْهُ عَاصِمُ ٢٠٦
هَنِيئًا لِضَرْبِ الْهَامِ وَالْمَجْدِ وَالْعُلَا ... وَرَاجِيكَ وَالْإِسْلَامِ أَنَّكَ سَالِمُ ٢٠٧
وَلِمْ لَا يَقِي الرَّحْمَنُ حَدَّيْكَ مَا وَقَى ... وَتَفْلِيقُهُ هَامَ الْعِدَا بِكَ دَائِمُ؟! ٢٠٨

وقال: وقد ورد قوساق الخور ومعهم رسول ملك الروم يطلب الهدنة، وأنشده إياها بحضرتهم وقت دخولهم لثلاث عشرة بقين من المحرم سنة أربع وأربعين وثلاثمائة:

أَرَاحَ كَذَا كُلَّ الصُّرُوفِ هُمَامُ ... وَسَحَّ لَهُ رُسْلَ الْمُلُوكِ غَمَامُ؟! ٢٠٩
وَدَانَتْ لَهُ الدُّنْيَا فَأَصْبَحَ جَالِسًا ... وَأَيَّامُهَا فِيمَا يُرِيدُ قِيَامُ؟! ٢١٠
إِذَا زَارَ سَيْفُ الدَّوْلَةِ الرُّومَ غَازِيًا ... كَفَاهَا لِمَامٌ لَمْ كَفَاهُ لِمَامُ ٢١١
فَتًى تَتْبَعُ الْأَزْمَانُ فِي النَّاسِ خَطْوَهُ ... لِكُلِّ زَمَانٍ فِي يَدَيْهِ زِمَامُ ٢١٢

كذاك الوداد المحض لا يرتجى له ثواب ولا يُخشى عليه عقاب
وقد كنت أخشى الهجر والشمل جامع وفى كل يوم لقيتنى وخطاب
فكيف وفيما بيننا ملك قيصر وللبحر حولى زخرة وعباب
أمن بعد بذل النفس فيما تريده أثاب بمر العتب حين أثاب ؟
فليتك تحلو والحياة مريرة وليتك ترضى والأنام غضاب !
وليت الذى بينى وبينك عامر وبينى وبين العالمين خراب !
إذا صح منك الود فالكل هين وكل الذى فوق التراب تراب

أبو العلاء المعرى

٣٦٣ — ٤٤٩ هـ

نشأته وصباه

هو أحمد بن عبد الله بن سليمان التنوخى نسبة إلى تنوخ إحدى قبائل اليمن. ولد هذا الفيلسوف الحكيم بالمعرة من أبوين شريفين . فقد كان أبوه من أفاضل العلماء وجده قاضياً بالمعرة . فلما بلغ الرابعة من عمره أصيب بالجدرى فذهب ببصرى عينيه وابيضت اليمنى ؛ فنشأ ضريراً لا يعرف من الألوان إلا الحمرة لأنهم ألبسوه ثوبا معصفرا وهو مريض فكان هذا اللون أول ما عرف وآخر ما رأى . ولما أدرك سن التعلم أخذ أبوه يلقنه علوم اللسان العربى فتعلمها . وتلمذ بعد ذلك لنفر من علماء بلده فضم إلى صدره ما حوته صدورهم . ولم ير بعد ذلك فيمن حوله من سبقه إلى علم ، أو اختص دونه بفهم ، فانتهى إلى بيته وقد ناهز العشرين من عمره ، وأخذ يدرس اللغة والأدب وينقب عن دقائق اللسان وخواص التركيب حتى تفوق فى ذلك وبلغ منه مالم يبلغه أحد . وفى سنة ٣٩٢ هـ غادر المعرة إلى بلاد الشام . فزار مكتبة طرابلس ، وعاج على اللاذقية ، وكان بها دير للرهبان فنزل به وأقام بين أهله حتى درس العهدين القديم والجديد . وبعد أن طوف فى

بلاد الشام عزم الرحلة إلى بغداد مبعث العلم ومستقر العلماء ليدرس الحكمة اليونانية والفلسفة الهندية . وما أحس بمقدمه البغداديون حتى تقاطروا إلى لقائه ظماء إلى أدبه . فأقام بينهم يأخذون عنه العلم والأدب ويبحث هو فى علوم الفلسفة حتى جرى فيها شوطا بعيدا . ووجد أبو العلاء فى بغداد بيئة صالحة وأرضا زكية لبحث المسائل وغرس المبادىء . فأخذت آراؤه تظهر وتذيع . واتصلت أسبابه هناك بجماعة من الفلاسفة الأحرار كانوا يجتمعون كل جمعة فى دار أبى أحمد عبد السلام بن الحسن البصرى أحدهم فأثر خلاطها فى عقله وأدبه . وما كادت علاقته تتوثق بالبغداديين حتى فوجىء على بعد المزار بنعى أمه ، وكان أبوه قد توفى قبلها ، فوجد عليها وجدا شديدا ، ونالت منه هذه الفاجعة . وكان الأمراء والعلماء قد أخذوا يرتابون فى عقيدته ويشكون فى أمره ، فاضطربت حياته ، واختلفت أطواره وأعوزه المشتق والتصبر . فنظر إلى العالم بمنظار أسود ، وقرر فى نفسه العزلة والخروج عن الدنيا . وعاد إلى المعرة سنة ٤٠٠ فاعتقل عن الناس إلا عن تلاميذه . وسمى نفسه رهن المحبسين : العمى والمنزل . وظل عاكفا على التعليم والتأليف عازفا عن ملذات الحياة لا يأكل الحيوان ولا مما ينتج منه ، قانعا من الطعام والحلوى بالعدس والتين ، ومن المال بثلاثين دينارا موقوفة عليه فى كل عام ، راضيا من اللباس والفراش بغليظ القطن وحصير البردى . وحرم على نفسه الزواج ضنا بنسله على لؤم الناس ودوس الحياة . ولم تزل تلك حاله حتى استأثر به الله سنة ٤٤٩ ، وقد أوصى أن يكتب على قبره هذا البيت :

هذا جناه أبى علىّ (م) وما جنيت على أحد[1]

وللمعات وقف على قبره زهاء ثمانين ومائة شاعر فيهم الفقهاء والمحدثون والمتصوفون .

مواهبه وعبقريته

كان أبو العلاء إنسىّ الولادة وحشى الغريزة كما وصف نفسه ؛ رقيق القلب

(١) اقرأ ترجمته مفصلة فى كتاب (ذكرى أبى العلاء) للدكتور طه حسين . أو كتاب (أبو العلاء وما إليه) للراجكوتى . طبع بالقاهرة .

سخيا وفيا ، قامعا لشهواته ، سيء الظن بالناس ، شديد الحذر منهم ، قوى الذاكرة ، سريع الحفظ ، وقد رووا عنه فى ذلك الأعاجيب ؛ فزعموا أنه كان يحفظ ما يفهم وما لا يفهم ، وقد قال الشعر لإحدى عشرة سنة . ولم يمنعه ذهاب بصره من إجادة التشبيه ومشاركة المبصرين فى ألعابهم : فقد كان يجيد لعب النرد والشطرنج ويدخل فى كل باب من أبواب الهزل والجد .

وقد اختلف الناس فى عقيدته ، فمنهم من قال إنه ملحد يرى رأى البراهمة . وغيرهم يقول : إن شعره كـكلام الصوفية له باطن وظاهر . وبعضهم يقول : إن هذه الأشعار الضالة مدسوسة عليه من أعدائه . وأكثر الناس يرجح أنه كان شاكا ، فتارة يثبت وأخرى ينفى ، ولذلك كثر التناقض فى شعره (١) .

شعره

ينقسم شعر أبى العلاء إلى قسمين : شعر الشباب ويجمعه سقط الزند ؛ وشعر الكهولة وقد وعته اللزوميات . فأما شعره فى الشبيبة فكثير المبالغة ، واضح التقليد بيّن التكلف ، قلد فيه المتنبى واستمد منه أكثر معانيه ، واستخف بقواعد اللغة ، وجارى شعراء عصره فى البديع . بيد أنه استعمل الغريب وأكثر فى شعره

(١) فبينما يقول مثلا :

عجبت لكسرى وأشياعه ... وغسل الوجوه بسول البقر
ونول النصارى إله بغام ... وإظلم حيا ولا يستتر
ونول اليهود إله يحب ... رشاش الدماء وريح القتر
وقوم أتوا من أقاصى البلاد ... لرمى الجمار ولثم الحجر
فوا عجبا من مقالاتهم ... أيعمى عن الحق كل البشر ؟

ويقول : هفت الحنيفة والنصارى ما اهتدت ... ويهود حارت والمجوس مضللة
اثنان أهل الأرض : ذو عقل بلا ... دين ، وآخر دين لا عقل له

ويقول : ضحكنا وكان الضحك منا سفاهة ... وحق لسكان البرية أن يبكوا
تحطمنا الأيام حتى كأننا ... زجاج ولكن لا يعاد له سبك

إذ به يقول : خلق الناس للبقاء فضلت ... أمة يحسبونهم للنفاد
إنما ينقلون من دار أعمال إلى دار شقوة أو رشاد

من اصطلاحات العلوم ، وقال فى أكثر أغراض الشعر الأخرى والحزن والصيد والهجاء . وقد سلم له فى هذا الطور جملة من القصائد المختارة فى الرثاء والمدح والفخر .

وأما شعره فى الكهولة فقليل المبالغة والتكلف ؛ قد عارض فيه المتقدمين من العرب ، فآثر اللفظ الجزل والأسلوب البدوى ، وركب القوافى الصعبة ، والتزم ما لا يلزم ، وتشدد فى اتباع القياس ، وأكثر من البديع والجناس ، وأودع شعره فى هذا الطور فلسفته وآراءه . ولكنه حشاه بالألفاظ الغريبة والتراكيب الغامضة كأنما خاف شر الناس على تلك الثمرات الفكرية فغلفها بأشواك من الكلمات حتى لا يمتد إليها بنان ولا يتذوقها لسان . وقد ابتدع فى شعره مناجاة الحيوان كمحاورة الديك والحمامة ، ومناظرة الذئب والشاة . وهو أحكم الناس بعد أبى الطيب . ويختص دونه بالخيال الدقيق ، وتصريف القول فى الفلسفة والاجتماع وأخلاق البشر وأنظمة الحكومات والقوانين والأديان ، وهو واحد الشعراء فى هذه السبيل .

نثره

نثر أبى العلاء كشعره ، يختلف فى كهولته عنه فى شبيبته . فقد كان كثير المبالغة ، مفعما بالغريب ، متكلف السجع ، كثير الاصطلاحات العلمية . ثم حكم فلسفته فى نثره فقلت المبالغة ، وفاضت الجمل بالمعانى . ولم تخل كتابته من غموض يُعنى القارىء وتطويل يمله ؛ فربما كتب الرسالة إلى بعض أصدقائه فيمعن فيها ويستطرد حتى تكون كتاباً ضخماً غريب المسائل كثير الفوائد .

مؤلفاته

أكثر مؤلفاته ذهبت بها ريح الحروب الصليبية ، فلم يبق إلا سقط الزند ، واللزوميات ، والدرعيات ، والفصول والغايات ، وديوان رسائله ، ورسالة الملائكة ،

«رسالة الغفران» ، وهى شديدة الشبه بالملهاة الإلهية لدانتى[1] ، والفردوس المفقود لملتن[2] لأنه تخيل رجلا صعد إلى السماء ووصف ما شاهده هناك ، وانتقد فيها الشعراء والرواة والنحاة بأسلوب روائى بديع . ثم عبث الوليد . وهو شرح ديوان البحترى وقد طبع فى دمشق . وقد فقد كتاب الأيك والغصون فى مائة مجلد ، وهو دائرة معارف فى العلم والأدب ؛ ومعجز أحمد ، وهو شرح ديوان المتنبى ؛ وذكرى حبيب ، وهو شرح ديوان أبى تمام ، وغير ذلك كثير .

نموذج من شعره

قال ينعى على الحكام استبدادهم بالرعية وعبثهم بمصالحها :

مُلِّ المَقام فكم أعاشر أمة ... أمرت بغير صلاحها أمراؤها

ظلموا الرعية واستجازوا كيدها ... وغدَوا مصالحها وهم أجراؤها

وقال فى أحكام الحظ وأوهام الحياة :

تباركتَ أنهارُ البلاد سوانح ... بعذب وخُصَّت بالملوحة زمزم !

هو الحظ ، عيرُ البيدِ ساف بأنفه ... خزامى وأنف العود بالذل يخزم

توهمت خيراً فى الزمان وأهله ... وكان خيالاً لا يصح التوهم

فما النُّور نوّار ولا الفجر جدول ... ولا الشمس دينار ولا البدر درهم

ومن قصيدة له فى الرثاء :

صاح ! هذى قبورُنا تملأ الرُّحْـ ... ـبَ فأين القبورُ من عهد عاد ؟

خفف الوطء ما أظن أديم الـ ... أرض إلا من هذه الأجساد

وقبيحٌ بنا وإن بَعُد العهـ ... ـد هوانُ الآباء والأجداد

---

(١) دانتى (Dante) زعيم الشعر الإيطالى وحبيب بياتريس (Beatriz) وملهمة اللهاة الإلهية (La divine Comedie) ولد سنة ١٢٦٥ وتوفى سنة ١٣٤١ م .

(٢) ملتن (Milton) شاعر انجليزى شهير كان ناموساً لكرومويل فلما مات تضعضع أمره وخمل ذكره ، ثم كف بصره ، فكان يملى على زوجته وابنته قصيدته الخالدة الفردوس المفقود (le paradis perdu) وهى ركن من أركان الشعر الانجليزى وإحدى روائع الخيال البشرى . ولد سنة ١٦٠٨ وتوفى سنة ١٦٧٤ .

سر إن استطعت فى الهواء رويداً ... لا اختيالا على رفات العباد
رُبَّ لحد قد صار لحداً مراراً ... ضاحكاً من تزاحم الأضداد
فاسأل الفرقدين عمن أحسَّا ... من قبيل وأنسا من بلاد
كم أقاما على زوال نهار ... وأناروا لليدلج فى سواد
تعبٌ كلها الحياة فما أعـ ... ـجب إلا من راغب فى ازدياد
إن حزناً فى ساعة الموت أضعا ... فُ سرور فى ساعة الميلاد

وقال يبكى على المتزهدين المراتين من أهل الدين :

رُوَيدك قد غُرِرتَ وأنت حرّ ... بصاحب حيلة يعظ النساء
يُحرِّم فيكم الصهباء صُبحاً ... ويشربها على عَمدٍ مساء
يقول لكم غدوت بلا كساء ... وفى لذاتها رهنَ الكساء
إذا فعل الفتى ما عنه يَنْهى ... فمن جيبين لاجهة أساء

وقال :

يحسن مرأى لبنى آدم ... وكلهم فى الذوق لا يعذبُ
ما فيهمَ برٌّ ولا ناسكٌ ... إلا إلى نفع له يجذب
أفضل من أفضلهم صخرة ... لا تظلم الناس ولا تكذب

وقال :

خفْ دَنيًّا كما تخاف سَرِيًّا ... صال ليث الشرى بظفر وناب
والضَّلالُ التى تخاف رداها ... شرّها فى الرءوس والأذناب

وقال :

عجبى للطبيب يُلحد فى الخا ... لق من بعد درسه التشريحا
رُبَّ روح كطائر القفص المسـ ... ـجون ترجو بموتها التسريحا

المقامات

المعنى اللغوي والاصطلاحي :

قال ابن منظور : المقامة ، بالفتح ، المجلس ، والجماعة من الناس(١٣٥٦) . وكلا المعنيين نجدهما في شعر ماقبل الاسلام ، اذ جاءت بمعنى المجلس في قول زهير بن ابي سلمى :

وفيهم مقامات حسانٌ وجوههم وأندية ينتابها القولُ والفعلُ(١٣٥٧)

ووردت بمعنى الجماعة من الناس التي يضمُّها المجلس في قول لبيد :

ومقامة غُلبِ الرِّقابِ كأنَّهمْ جِنُّ لدى طَرَفِ الخَصيرِ قيامُ(١٣٥٨)

والمجلس في الغالب تدور فيه احاديث للمسامرة ، وقد كانت للعرب قبل الاسلام مجالس سمر يتحدَّثون فيها بقصص الجن والحيوان ويتحدثون بالمواعظ والامثال (١٣٥٩) . « وتتقدم في العصر الاسلامي فنجد الكلمة تستعمل بمعنى المجلس يقوم فيه شخص بين يدي خليفة او غيره ويتحدَّث واعظاً ، وبذلك يدخل في معناها الحديث الذي يصاحبها ، ثم نتقدم اكثر من ذلك فنجدها تستعمل بمعنى المحاضرة(١٣٦٠) » وقد عقد ابن قتيبة (ت ٢٧٦ هـ) فصلاً في كتابه عيون الاخبار بعنوان « مقامات الزهاد عند الخلفاء والملوك » اورد فيها عشر مقامات ، وهي مواعظ يقف فيها الراوي امام الخليفة لنصحه وارشاده ، من ابرزها مقام محمد بن كعب القرظي بين يدي عمر بن عبدالعزيز ، ومقام الاوزراعي بين يدي المنصور ، ومقام

(١٣٥٦) لسان العرب ١٢ : ٤٩٨ .

(١٣٥٧) قال الاعلم الشنتمري : المقامات المجالس ، سميت بذلك لان الرجل كان يقوم في المجلس ليحضَّ على الخير ويصلح بين الناس ، واراد بالمقامات اهلها ولذلك قال « حسان وجوههم » . والاندية : جمع نديّ ، وهو المجلس والمتحدث ، وقوله « ينتابها القول والفعل » اي : يثبت فيها الجميل من القول ويعمل به (شعر زهير بن ابي سلمى ص ٢٨) .

(١٣٥٨) شرح ديوان لبيد ص ٢٩٠ . الحصير : الملك

(١٣٥٩) ينظر : فن المقامات بين المشرق والمغرب ص ٩

(١٣٦٠) المقامة ، للدكتور شوقي حنيف ص ٧

صالح بن عبدالجليل بين يدي المهدي(١٣٦١) . وورد ذكرها عند ابن عبد ربه (ت ٣٢٨ هـ) في كتابه العقد الفريد بعنوان « مقامات العباد عند الخلفاء » . من ابرزها مقام ابن السمّاك عند الرشيد .(١٣٦٢)

نخلص مما تقدم إن المقامات كانت تُعنى ـ قبل ان تتخذ مدلولها الاصطلاحي ـ بأحاديث بالنصح والارشاد والوعظ والتقويم الخلقي ، وللاستدلال على ذلك نأخذ جزءاً قصيراً من مقام رجل من الزهاد بين يدي المنصور ، « بينما المنصور يطوف ليلاً اذ سمع قائلاً يقول ، اللهم اني اشكو اليك ظهور البغي والفساد في الارض ، وما يحول بين الحقّ واهله من الطمع ، فخرج المنصورُ فجلس ناحيةً من المسجد ، وارسل الى الرجل يدعوه ، فصلّى الرجلُ ركعتين ، واستلم الركن ، واقبل مع الرسول ، فسلّم عليه بالخلافة ، فقال المنصور : ماالذي سمعتكَ تذكرُ من ظهور البغي والفساد في الارض وما يحول بين الحق واهله من الطمع ؟ فو الله لقد حشوت مسامعي ماأرمضني(١٣٦٣) ، قال : ياأمير المؤمنين ان امْنتني على نفسي انبأتك بالامور من اصولها ، والا احتجزتُ منك واقتصرت على نفسي ففيها لي شاغلٌ ، فقال ، انت آمنٌ على نفسك فقُل ، فقال : انَّ الذي دخله الطمعُ حتى حال بينه وبين ماظهر من البغي والفساد لأنت ، قال : ويحك وكيف يدخلني الطمع ، والصفراءُ والبيضاء في قبضتي ، والحلو والحامض عندي ! قال : وهل دخل احدٌ من الطمع مادخلك ! انَّ الله تبارك وتعالى استرعاك المسلمين واموالهم ، فأغفلت امورهم ، واهتممت بجمع اموالهم ، وجعلت بينك وبينهم حجاباً من الجَصِ والآجرّ وابواباً من الحديد وحجبةً معهم السلاحُ ثم سجنت نفسك فيها عنهم ، وبعثت عُمالك في جباية الاموال وجمعها وقويتهم بالرجال والسلاح والكُراع(١٣٦٤) ، وامرت بالاّ يدخل عليك من الناس الاّ فلان وفلان نفرٌ سميتهم ، ولم تأمر بايصال المظلوم والا الملهوف ولا الجائع العاري ولا الضعيف الفقير ... فكيف تصنع بالملك الذي خولك مُلكَ الدنيا وهو لا يعاقب من عصاه بالقتل ! ولكن بالخلود في العذاب الاليم ... هل يغني عنك ماتحت يديك من ملك الدنيا اذا انتزعه من يديك ودعاك الى الحساب . فبكى المنصور وقال : باليتني لم أخلق ... »(١٣٦٥) .

(١٣٦١) عيون الاخبار ٢ : ٣٣٣ ـ ٣٤٣ .

(١٣٦٢) العقد الفريد ٣ : ١٨٨ ـ ١٩٤

(١٣٦٣) ارمضني : اوجعني وآلمني

(١٣٦٤) الكراع : الخيل

(١٣٦٥) عيون الاخبار ٢ : ٣٣٣ ، العقد الفريد ٣ : ١٥٩

واصبحت المقامة فيما بعد مصطلحاً ادبياً تطلق على نوع من الكتابة الفنية على شكل اقصوصة منمقة في الفاظها واسلوبها ، فيها شيء من الحوار ، وتعتمد في الغالب على راوٍ واحد وبطل اديب متحايل ، يراد بها وصف حالة نفسية ، او مفارقة ادبية ، او مسألة دينية ، او قضية علمية .. وتنطوي على لون من الوان النقد ، او التهكم والسخرية ، او التصحيح والتقويم ، او الثورة ... ويعد بديع الزمان اول من اعطى كلمة مقامة معناها الاصطلاحي بين الادباء .

نشأتها :

اختلف الذين أرخوا للادب من المحدثين وتضاربت آراؤهم في تعيين مبتدع المقامات إذا نجد رأياً يقول : إن أبا عثمان عمر بن بحر الجاحظ (ت ٢٥٥ هـ) هو المنشيء الأول للمقامات في رسالته « التربيع التدوير » أو في رسالته « صناعات القواد » . ويذهب رأي ثانٍ الى أن أبا بكر محمد بن الحسين الأزدي (ت ٣٢١ هـ) هو مبتكرها والسابق لها ، استناداً الى نص أورده الحصري القيرواني في زهر الآداب يُشير فيه الى أن بديع الزمان عارض ابن دريد في أحاديثه الأربعين .. وثالث الآراء يقول ، إن المبتكر الأول لها هو أحمد بن فارس اللغوي (ت ٣٩٠ هـ) أستاذ بديع الزمان . ورابع الآراء يرى أنا أبا حيان التوحيدي (ت ٤١٤ هـ) ابتدعها وأنشأها(١٣٦٦) ... واذا احتكمنا الى القاسم بن علي الحريري صاحب المقامات المشهورة (ت ٥١٦ هـ) نجده يقول « قد جرى ببعض أندية الأدب الذي ركدتْ في هذا العصر ريحُهُ ، وخبتْ مصابيحهُ ، ذكرُ المقامات التي ابتدعها بديعُ الزمان ، وعَلَّامةُ همذان ، رحمهُ الله تعالى ، فأشار مَنْ إشارتُهُ حُكْمٌ ، وطاعتُه غُنْمٌ ، الى أنْ أنشيء مقاماتٍ أتلو فيها تلو البديع ، وإن لم يُدرك الظالع(١٣٦٧) شأو الضليع(١٣٦٨) لبيتُ دعوته تلبيةَ المطيع ، وبذلتُ في مطاوعته جهد المستطيع ، وأنشأتُ على ماأعانيه من قريحة جامدة ، وفطنةٍ خامدة ، وروية ناضبة ، وهموم ناصبة ، خمسين مقامة »(١٣٦٩) . ويقول القلقشندي : « إعلم أنَّ أول من من فتح باب عمل المقامات ،

(١٣٦٦) تنظر تفاصيل هذه الآراء في بحث الدكتور محسن غياض (مقامات بديع الزمان الهمذاني) المنشور في مجلة الطليعة الأدبية ، العدد ٦ سنة ١٩٧٧ .

(١٣٦٧) الظالع : العائل عن الطريق القويم ، الذي يعرج في مشيته

(١٣٦٨) الضليع : السمين القوي ، والضلاعة : قوة الاضلاع .

(١٣٦٩) مقامات الحريري ص ١١

عَلَّامة الدهر ، وإمام الأدب ، البديع الهمذاني ، فعمل مقاماته المشهورة المنسوبة إليه ، وهي في غاية من البلاغة ، وعُلوّ الرتبة في الصنعة »(١٣٧٠) .

وخلاصة القول عندنا أن بديع الزمان كان أديباً عالماً ، مثقفاً بثقافة كبيرة مستوعباً أغلب الكتابات التي أنشاها السابقون ، وفكرة المقامات بصيغتها وشكلها المعروف هو صاحبها ، ويعود له الفضل في إعطائها المعنى الاصطلاحي بين الفنون النثرية في الادب العربي .

أصحاب المقامات :

انتشرت مقامات بديع الزمان انتشاراً واسعاً بين الشرق والغرب (١٣٧١) ، وأقبل الكتّاب على قراءتها وتدبيج المقامات على هديها وإن اختلفت في الأساليب والمضامين ، وقد أشار بلاشير الى ستة وسبعين كاتباً من كتّاب المقامات ، منهم سبعة ورد ذكرهم من بديع الزمان الى الحريري (١٣٧٢) ، وهم :

١ ـ أبو الفضل أحمد بن الحسين بن يحيى بن سعيد الهمذاني المتوفى سنة ٣٥٨هـ .
٢ ـ أبو الاصبع عبد العزيز بن تمام المراقي .
٣ ـ أبو نصر عبد العزيز بن عمر المعروف بابن نباتة السعدي المتوفى سنة ٤٠٥هـ .
٤ ـ أبو الحسن المختار بن الحسن بن عبدون بن سعدون بن بطلان المتوفى سنة ٤٦٠ هـ
٥ ـ أبو النصر عبدالله بن محمد بن الحسين بن داود بن ناقيا المتوفى سنة ٤٨٥هـ .
٦ ـ أبو حميد محمد بن محمد الغزالي المتوفى سنة ٥٠٥ هـ .
٧ ـ أبو محمد القاسم بن علي بن محمد الحريزي المتوفى سنة ٥١٦ هـ (١٣٧٣) .

(١٣٧٠) صبح الأعشى في صناعة الانشا ١٤ ، ١١٠ .

(١٣٧١) ينظر : فن المقامات بين الشرق والغرب ص ١٣٧ ـ ٣٦٦ ، تاريخ الأدب الاندلسي عصر الطوائف والمرابطين ص ٣٠٢ ـ ٣٢٦ .

(١٣٧٢) المقامة ، بلاشير ـ المشرق عدد ٤٧ سنة ١٩٥٣ ، وينظر ، بديعيات الزمان ص ١٢٩ ـ ١٣٧ ، راى في المقامات ص ٣٣ ـ ٣٥

(١٣٧٣) ينظر الى اصحاب المقامات بعد الحريري في كتاب فن المقامات بين الشرق والغرب ص ١٣٦ ـ ١٤٦ .

موضوع المقامات :

ساءت الأوضاع السياسية والاجتماعية والاقتصادية بعد القرن الثالث للهجرة ، ولاسيما بعد ضعف مركز الخليفة ، وسيطرة الأعاجم على شؤون الدولة ومرافقها العامة ، وتفشي الظلم الى جانب الفقر والعوز ، وأصبح الكثيرون في المجتمع آنذاك منهم علماء وأدباء في ضيق وحرج حتى اضطر بعضهم الى الاحتيال والتحاذق والاستجداء .(١٣٤) . وقد صوّر بديع الزمان هذا الواقع المرير والوضع المزري خير تصوير بأسلوب تطغى عليه روح الدعابة والمرح والفكاهة والاضحاك على لسان راو اسمه عيسى بن هشام ومحتال ذكي في صورة شحاذ يدعى أبا الفتح الاسكندري .

والى جانب الموضوع الذي يصور المجتمع في فقره وبؤسه وحرمانه من الحرية والعيش العزيز الكريم ، نجد موضوعات تأخذ طابعاً ثقافياً من ذلك مقامات في النقد الأدبي .(١٣٥) مثل : العراقية ، والشعرية ، والقريضية . ومنها دينية وعظية في النصح والإرشاد واتباع الخلق القويم والطريق المستقيم مثل : الأهوازية ، والوعظية . ومنها وصفية تتناول العادات والطبائع والمآكل والمشارب(١٣٦) والحيوانات والمدن ...

واذا أمعنا النظر في مقامات الحريري نجد أيضاً الكدية تلازم بطلها أبا زيد السروجي الذي يروي اخباره الحارث بن همام . واذا كنا قد لاحظنا أن بديع الزمان عرض أبا الفتح الاسكندري واعظاً وناصحاً العباد الى مافيه صلاحهم في مقامتين، فان الحريري عرض أبا زيد السروجي وأعظاً في عشر مقامات ولعل أطرف مانراه في المقامة الثانية عشرة ، الأدعية التي يرجو فيها من الله أن يرحمه وينقذه من الباغين والطاغين والجائرين ، « اللهم يامحيي الرُفات ، ويادافع الآفات ويامافي المخافات ، وياكريم المكافاة ، ويامؤمل العُفاة صلّ على محمد خاتم أنبيائك ، ومبلّغ أنبائك ، وعلى مصابيح أسرته ، ومفاتيح نصرته ،وأعذني من نزعات الشياطين ، ونزوات السلاطين ، وإعنات الباغين ، ومعاناة الطاغين ، ومعاداة العادين ، وعدوان المعادين ، وغلب الغالبين ، وسلب السالبين ، وحيل المحتالين

---

(١٣٤) ينظر بحث الدكتور صفاء خلوصي (أدب المقامات أو الفن الأقصوصي المسجع) مجلة المعلم الجديد العدد الاول لسنة ١٩٦٢ .

(١٣٥) ينظر بحث الدكتور محمد قاسم مصطفى (النقد الأدبي في مقامات بديع الزمان الهمذاني) مجلة السورد العدد ٣ ، سنة ١٩٨٤ .

(١٣٦) ينظر بحث صبيح صادق (بغداد من خلال المقامات) مجلة السورد ، العدد ٤ سنة ١٩٧٩ .

وغيل المغتالين ، وأجرني اللهمّ من جور المجاورين ، ومجاورة الجائرين ، وكفّ عني أكفّ الظالمين ، وأخرجني من ظلمات الظالمين ، وأدخلني برحمتك في عبادك الصالحين ... اللهم أحرسني بعينك ، ودعوتك ، واخصصني بأمنك ، ومنّك ، وتولني باختيارك وخيرك ، ولاتكلني الى كلاءة غيرك(١٣٧٧) وهب لي عافية غير عافية(١٣٧٨) ، وارزقني رفاهية غير واهية واكنفني مكاشين اللأواء(١٣٧٩) ، واكنفني بغواشي الألاء(١٣٨٠) ، ولاتظفر بي أظفار الأعداء ، إنك سميع الدعاء »(١٣٨١) .

ان الطابع الديني القائم على التوجيه والارشاد لصلاح النفوس من الشرور والآثام ، قد اصبح سمة بارزة عند الكثيرين الذين جاءوا بعد الحريري ، مثل الامام محمود بن عمر الزمخشري (ت ٥٣٨ هـ) ، وابي الفرج عبدالرحمن بن علي بن الجوزي (ت ٥٩٧ هـ) ... وتجدر الاشارة الى ان المقامات عند بعض الكتاب تغيرت طريقة التناول والعرض فيها عما وضعه السابقون ، ولاسيما بديع الزمان الهمذاني والحريري اذ تخلصت من الرواية واكتفت بالحكاية وقد عبر بعض من هذه المقامات عن الاحداث الكبيرة والويلات والمصائب التي ابتليت بها الامة العربية ، مثل ما فعله التتر في زحفهم على المشرق ولاسيما على العراق وديار الشام . اذ نرى الشيخ ظهير الدين علي بن محمد البغدادي المعروف بابن الكازروني(ت ٦٩٧ هـ) ينشيء مقامة طويلة بعنوان : « مقامة في قواعد بغداد في الدولة العباسية »(١٣٨٢) تصف باسلوب حزين الوقائع الدامية والمجازر الرهيبة التي اثابت بغداد بعد مقتل آخر خليفة عباسي المستعصم بالله سنة ٦٥٦ للهجرة ننقل منها الفقرات الآتية : « وافيتها بلدة خالية ، وأمة جالية ، ودمنة حائلة ، ومحنة جائمة ، وقصوراً خاوية ، وعراصاً باكية ، قد رحل عنها سكانها ، وبان عنها قطانها ، وتمزقوا في البلاد ، ونزلوا بكل واد ، وقصورها المشيدة مهدومة ، وبعاوها مسلوبة معدومة ، موحشة لفقد قطانها ، باكية بلسان الحال على سكانها ، عظام العظام بالية ، تسفي

(١٣٧٧) لاتكلني الى كلاءة غيرك : لاتدعني الى حفظ غيرك .

(١٣٧٨) غير عافية : غير عارية .

(١٣٧٩) اللأواء : الشدة والضيق .

(١٣٨٠) أكنفني : احفظني إلى كنفك . الغواشي : مايغطى به الشيء مثل غاشية السرج . الألاء : النعم .

(١٣٨١) مقامات الحريري ص ١٠٥ .

(١٣٨٢) حققها كوركيس عواد ، وطبعها بمطبعة الارشاد ببغداد سنة ١٩٥١ ، ثم اعاد نشرها في مجلة المورد ، العدد الرابع الطاهر من بغداد سنة ١٩٧٩

عليها الرياح السافية . « فهل ترى لهم من باقية »(١٣٨٣) فوقفتُ أبكيها ، وأندب ربوعها ومن كان فيها

وأندب اطلالـــــــــــها تارةً وابكي على فرقةِ الظاعنينا
فلو ذهبت مقلةٌ بالبكاءِ لفرطِ الغرامِ لكنّا عمينا

وهناك شخص قد بصر بحالي ، وهو يذري دمعه لسماع ارتجالي . فقلت له : ماجلاؤك فقد أعجبني حالك . فقال اليك عني ، واذهب لسبيلك ودعني ، فاني أتمتع بالبكاء ، وأسخُ الدمع على هذه الاصداء ، واقيم مأتم العزاء . فلو رأيتَ من هذه البلدة مارأيتُ لأذريتَ معي الدمع ، ولأسمع بكاؤك الجمع » وهذه المقامة ـ كما لاحظنا ـ تتسم بوضوح القصد وصدقه وقوة التعبير وتأثيره ونجد هذا الشيء ايضاً في مقامة الشيخ جمال الدين عمر بن ابراهيم بن الحسين الرسعني التي ذكر فيها هجوم التتر المروع على مدن الشام ولاسيما حلب التي كثر فيها القتل والسلب والتخريب والنهب(١٣٨٤) .

اسلوب المقامات :

شاعت الصنعة في الكتابة العربية في القرن الرابع للهجرة شيوعاً كبيراً ، وتسرّب أثرها الى المقامات ، حيث نجد بديع الزمان ، الذي يعد الرائد في انشائها ، يأخذ نصيباً كبيراً من الاساليب البلاغية المصنعة ، ويدخلها بذكاء وقدرة فائقة في مقاماته ، ولاسيما السجع والجناس والتصوير . ونراه احياناً يكثر من الألفاظ الغريبة على نحو ما جاء في المقامة النهيدية ، ويحشد فيها الشعر الذي يطول احياناً كما في المقامة البشرية ، ويقتبس من القرآن الكريم ، والامثال العربية المشهورة ، ويورد اطرافاً من معارف كثيرة في اللغة العربية وآدابها . انه يأتي بكل ذلك باحكام وتناسق وانسجام وعرض مشرق لطيف يروق السامع ويستهويه .

واذا انتقلنا الى الحريري نجده اكثر ايغالاً في استخدام فنون البديع واسعانا في تناول غريب اللغة ، ولا عجب حين قال عنه العماد الاصبهاني : « قد اعجز الفصحاء بصناعته ، وأبر على البلغاء ببراعته ، وبلغ السماء ببلاغته ، واوجد حلئ الزمان العاطل بجودة صياغته وقد اشتهرت له المقامات شرقاً وغرباً ، وبعداً وقرباً (١٣٨٥) .

(١٣٨٣) سورة آل عمران ، الآية ١٥٨ .

(١٣٨٤) ينظر : تتمة المختصر في أخبار البشر ٢ : ٢٠٨

(١٣٨٥) خريدة القصر وجريدة العصر قسم العراق ، ٤ / ٢ : ٦٠١

لقد أقرّ الحريري في مقدمة مقاماته بقوله : انها « تحتوي على جد القول وهزله ، ورقيق اللفظ وجزله ، وغُرر البيان ودرره ، وملح الادب ونوادره ، الى ماوشّحتها به من الآيات ومحاسن الكنايات ، ورصّعته فيها من الأمثال العربية ، واللطائف الادبية ، والأحاجي النحوية ، والفتاوى اللغوية ، والرسائل المبتكرة ، والخطب المحبّرة ، والمواعظ المبكية ، والأضاحيك الملهية »(١٢٨٦) .انّ هذه الامور ساقها في مقاماته بتمكن واقتدار وباسلوب محكم رصين ، فيه حيوية نافذة ، ومرد هذه الحيوية كما يرى الدكتور شوقي ضيف « الى هذا الثوب المتوهج من السجع ، الذي لانجد فيه نقصاً ، فقد فصله وقطعه ووشاه فوق رؤ كان يعرف كيف يضع الكلمة بجوار الكلمة ، وكيف يشدّ اللفظة الى أختها و عازف قيثار »(١٢٨٧) .

وجاء بعد الحريري كتّاب كثيرون ، دبجوا مقامات في موضوعات متنوعة دينية واجتماعية وادبية ، وحاولوا ان يظهروا فيها براعتهم الاسلوبية والبلاغية ، ولكنهم لم يلحقوا به ولا برائده بديع الزمان الهمداني ، وبقوا في دائرة التقليد الا ما ندر منهم ، ولذلك لم تأخذ مقاماتهم الشهرة والانتشار في الأوساط الادبية وبقيت بين مخطوطة ومطبوعة بعيدة عن أيدي الدارسين (١٢٨٨) .

(١٢٨٦) مقامات الحريري ص ١٣

(١٢٨٧) المقامة للدكتور شوقي ضيف ص ٦٩

(١٢٨٨) تنظر المقامات التي ألفت بعد الحريري في كتاب : فن المقامات بين المشرق والمغرب ص ١٢٥ ـ ٦٤١ .

بديع الزمان الهمذاني

٣٥٨ - ٣٩٨ هـ

لم تنتكس الثقافة في القرن الرابع للهجرة بانتكاس الخلافة بعدها وعزها وأبهتها، بل بقي بريقها وهاجاً، وظلت البيئات العلمية والأدبية عامرة بالعلماء والأدباء، حتى قال أحدهم: إنّ هذا العصر يستحقّ أن يُسمّى قريش العرب (١٢٨٩). إنه حقاً عصر علم وأدب وشعر ومقامات وتأليف وفلسفة. ومن أراد التأكد من ذلك فليراجع أحد الكتب التي تناولت هذا العصر، وهو كتاب يتيمة الدهر لأبي منصور الثعالبي ويرى العدد الكبير من أرباب القلم، أحدهم بديع الزمان الهمذاني، رائد فن المقامات

سيرته:

هو أبو الفضل، أحمد بن الحسين بن يحيى بن سعيد. ويُعرف ببديع الزمان، ولا نعرف كيف نال هذا اللقب (١٢٩٠)، وربما يكون من صُنعه أو صُنع أبي منصور الثعالبي الذي عاصره وترجم له (١٢٩١)، فقال: «هو أحمد بن الحسين بديعُ الزمانِ، ومُعجزةُ همذان» (١٢٩٢)

ولد في همذان في الثالث عشر من جمادي الآخرة، سنة ٣٥٨ للهجرة، من أسرة يصل نسبها الى بني مضر، وقد صرّح بذلك فقال: «انبي عبد الشيخ، واسمي أحمد، وهمذانُ المولد، وتغلبُ المورد، ومُضَرُ المحتد» (١٢٩٣). ولم يكتف بذكر نسبه العربيّ، بل انتصر للعرب في كتاباته، فقال في رسالة الى الشيخ الرئيس أبي عامر عدنان بن محمد: «نحن - أطال الله بقاء الشيخ - اذا تحدّثنا في فضل العرب على العجم وعلى سائر الأمم، أردنا بالفضل ما أحاطتْ به الجدودُ، ولم ننكرْ أن تكون أمةٌ أحسن من العربِ ملابس، وأنعمَ منها مطاعم، وأكثرَ ذخائر، وأبسطَ ممالك، وأعمرَ مساكن، ولكنّا نقولُ: العربُ أوفى وأوفر، وأوقى وأوقر، وأنكى وأنكر، وأعلى وأعلم، وأحلى وأحلم، وأقوى وأقوم، وأبلى وأبلغ، وأشجى وأشجع، وأسمى وأسمح، وأعطى وأعطف، وألطى وألطف (١٢٩٤) وأحصى وأحصف، وأنقى رأتق، ولا ينكرُ ذلك إلاّ

(١٢٨٩) بديع الزمان الهمذاني، مارون عبود، ص ١٤.

(١٢٩٠) قال الدكتور شوقي ضيف: «ان اسمه لايعرفه الناس، وإنما يعرفونه بلقبه الذي أطلقه عليه معاصروه». الفن ومذاهبه في النثر العربي ص ٢٤٠.

(١٢٩١) ينظر: مقامات بديع الزمان على احاديث ابن دريد ص ١٣.

(١٢٩٢) يتيمة الدهر ٤: ٢٧٩.

(١٢٩٣) رسائل أبي الفضل بديع الزمان الهمذاني ص ٤.

(١٢٩٤) ألطى: اللطاة، الجبهة، يقال بيّض الله لطاتك أي جبهتك.

وقح وتح (١٢٩٥) ، ولا بجحده إلا نفل نفر (١٢٩٦) ... » (١٢٩٧) .

نشأ في همذان ، وتعلم فيها القراءة والكتابة ، وكان أخوه محمد بن الحسين مفتي البلدة (١٢٩٨) ، وتتلمذ على العلماء والأدباء ، منهم أبو الحسين أحمد بن فارس الأديب الكبير واللغوي المشهور ، صاحب المجمل في اللغة (١٢٩٩) ، وأبو بكر محمد بن الحسين الفراء ، وعيسى بن هشام اللغوي الاخباري ؛ وكان بديع الزمان ذكياً ، قوي الحافظة ، قال الثعالبي : « كان ينشد القصيدة التي لم يسمعها قط ـ وهي أكثر من خمسين بيتاً ـ فيحفظها كلها ويؤديها من أولها الى آخرها ، لا يخرم حرفاً ولا يخل بمعنى . وينظر في الأربعة والخمسة أوراق من كتاب لم يعرفه ولم يره نظرة واحدة خفيفة ثم يهذها عن ظهر قلبه هذاً ، ويسردها سرداً ، وهذه حاله في الكتب الواردة عليه » (١٣٠٠) . ويعلق أحد الباحثين على هذا القول ، فيقول : « انها مبالغات نسبوا مثلها الى المتنبي ، والمعري ، وأبي تمام ، وهي عندي الى الحكايات أقرب منها الى التاريخ الرصين ، فليست الأذهان دفاتر ، ولا آلات تصوير شمسية ، حتى تحفظ ، وتلتقط آثار الأدباء كما هي » (١٣٠١) .

خرج بديع الزمان من همذان سنة ٣٨٠ للهجرة طلباً للمال والجاه والشهرة ، فقصد الصاحب بن عباد (ت ٣٨٥ هـ) وبقي عنده زمناً في أصبهان المشهورة بجمال طبيعتها ، وكانت آنذاك تعج بالأدباء والعلماء من أبنائها والوافدين عليها ، وقد عدّها الدكتور مصطفى جواد معقلاً للأدب العربي (١٣٠٢) ، وبعد تزوده بثمار الصاحب بن عباد وحسن آثاره ، ارتحل الى جرجان « وأقام بها مدة على مداخلة الإسماعيلية والتعيش في أكنافهم » (١٣٠٣) ، ثم تركها ، وشرح سبب تركها في رسالة كتبها الى أبي نصر ابن المرزبان (١٣٠٤) ، فجاء الى نيسابور سنة ٣٨٢ للهجرة . « وكان لواء الرئاسة والصدارة فيها معقوداً لأسرة بني ميكال ، وهي أسرة علم وأدب وفضل ،

(١٢٩٥) وقح : خسيس .

(١٢٩٦) نفر : حقود .

(١٢٩٧) رسائل أبي الفضل بديع الزمان الهمذاني ص ١٩٩ .

(١٢٩٨) معجم الأدباء ١ : ٣٠٠ .

(١٢٩٩) ينظر : المقامات من ابن فارس الى بديع الزمان الهمذاني ص ٩ .

(١٣٠٠) يتيمة الدهر ٤ : ٢٥٦ .

(١٣٠١) بديع الزمان الهمذاني ، مارون عبود ، ص ١٧ .

(١٣٠٢) ينظر بحث الدكتور مصطفى جواد [أصفهان معقل الأدب العربي في ايران] مجلة المجمع العلمي العراقي ، المجلد العاشر ، ١٩٦٣ ، ص ٩٣ ـ ٩٤ .

(١٣٠٣) يتيمة الدهر ٤ : ٢٥٢ .

(١٣٠٤) رسائل أبي الفضل بديع الهمذاني ص ٩٢ .

وكان أفرادها يُلقَّبون بالأمراء ، وكانوا يشجعون الأدب ويصلون الشعراء (٣٠٥) .
وألمعُ من عاش من هذه الأسرة في القرن الرابع للهجرة الأمير أحمد بن علي بن ميكال والأمير أبو الفضل عبيدالله بن أحمد بن ميكال ، وكان هذا الأخير كاتباً شاعراً شبهه الثعالبي بابن العميد والصاحب بن عباد وأبي إسحاق الصابي وابن المعتز وأبي فراس من الشعراء (٣٠٦)

وكان بديع الزمان قبل وصوله الى نيسابور قد بلغها انقطاع الطرق عن الأعراب ماكان له من مال وأمتعة وأصبح مُعدماً ، وخاطب أبا بكر الخوارزمي (ت ٣٨٣ هـ) شيخ عصره في علوم اللغة والبلاغة وأيام العرب وأمثالها بهذه الرسالة : أذا لقرب الأستاذ أطال الله بقاءه (كما طربَ النَّشْوانَ مالتْ به الخمرُ) ومن الارتياح للقائه (كما انتفضَ العصورُ بِلَلَهُ القطرُ) ومن الامتزاج بولائه (كما التقتِ الصهباءُ والبارِدُ العذبُ) ومن الابتهاج بمرآه (كما اهتزَّ تحت البارح الغصنُ الرطبُ) فكيف نشاط الأستاذ لصديق طَوَى اليه مابين قصبتي العراق وخرسان ، بل مابين عتبتي نيسابور وجرجان ، وكيف اهتزازه لضيف في بُردة جَمَّال ، وجلدة خمَّال :

رثُّ الشمائل مُنْهَجُ الأثواب بكرتْ عليه مغبرةُ الأعراب

وهو أيده الله ولي انعامة بانقاذ غلامه الى مستقري ، لأفضي اليه بسرّي ، إنْ شاء الله تعالى » (٣٠٧) . ولم يحسن الخوارزمي لقاءه ، وحصلت بينهما نفرة وجفوة وقطيعة ، تحولت فيما بعد الى عداوة ، وحدثت بينهما أمام جمع من الناس معركةٌ أدبيةٌ حاميةٌ ، خرج منها بديع الزمان ظافراً وانحسر الخوارزمي مخذولاً (٣٠٨) .

ترك بديع الزمان نيسابور الى سجستان ، وكان أميرها آنذاك الأديب خلف بن أحمد ، ولقي حفاوة وتقديراً منه وأهدى اليه مقاماته ومدحه بقصيدة مطلعها : (٣٠٩)

سماء الدُّجى ، ماهذه الحدقُ النجلُ أصدرالدُّجى حالٍ وجيد الضحى عطلُ ؟
لكَ الله من عزمٍ أجوبُ جيوبه كأنّي في أجفانِ عينِ الرَّدى كحلُ

---

(٣٠٥) بديع الزمان الهمذاني ، الدكتور مصطفى الشكعة ، ص ٥٥ .
(٣٠٦) تنظر : يتيمة الدهر ٤ ، ٣٥٤ .
(٣٠٧) رسائل أبي الفضل بديع الزمان الهمذاني ص ٨٢ .
(٣٠٨) تنظر المناظرة في رسائل البديع ص ١٢ ، ومعجم الأدباء ٢ ، ١٠١ .
(٣٠٩) ديوان بديع الزمان ص ٦٥ .

وكان البديع يحبُّ السفر ، ويرغبُ في الارتحال ، اذ نراه يذهب شرقاً الى غزنة عاصمة السلطان محمود بن سبكتكين الغزنوي ، الذي كان يهوى لقاء الأدباء والعلماء ، ويشجعهم على البقاء عنده وبعد اقامة قصيرة في كنف هذا السلطان توجه الى هراة وألقى فيها عصا الترحال ، وتزوج من ابنة أبي علي الحسين بن محمد الخُشنامي أحد فضلاء هذه المدينة ، فاطمأنت نفسه ، وحسن حاله ، وطاب له المقام وأقتنى مالاً وضياعاً ، وعاش عيشة راضية ، وأنجب أولاداً ، وفي سنة ٣٩٨ للهجرة لبّى نداء ربه ، وهو في الأربعين من عمره .

آثاره :

كان بديع الزمان شاعراً وناثراً على السواء ، وقد ترك لنا الآثار الآتية :

١ ــ ديوان شعره ، وهو مطبوع ، والقارىء فيه يجده لايتخلى ــ كما هو الحال في نثره ــ عن الجناس والسجع والازدواج والعميات والأحاجي ...

٢ ــ رسائله ، وهي مطبوعة ، تناول فيها موضوعات كثيرة من مدح ، وهجاء ، وعتاب ، واعتذار ، وعزاء وشكوى ، وتهنئة ، ووصف ، واستعطاف ...

٣ ــ مقاماته ، وهي مطبوعة ، وعددها اثنتان وخمسون مقامة

نثره وأسلوبه :

جاء بديع الزمان ووجد أمامه الصنعة قد قطعتْ شوطاً كبيراً في ميدان النثر العربي ، على يد كتاب كبار أمثال : ابن العميد ، والصاحب بن عباد ، وأبي بكر الخوارزمي ، فسار على خطاهم ، وأبدى جدارة فائقة وقدرة عالية في هذه الصنعة بحيث فاقهم في الشهرة ولا سيما في مقاماته .

لقد تسربت الصنعةُ الى نثره ، وتجاوزتْ أحياناً الحد المقبول في التزام السجع ، والتشبيهات ، والاستعارات ، والكنايات ، والمحسنات اللفظية والمعنوية ، والرمز والتلميح ، والاشارات ... والميل الى التصعيب والتعقيد ، روى الثعالبي في يتيمته أنه « كان ربما يكتب الكتاب المقترح عليه فيبتديء بآخر سطر منه ثم يملُّ جرّاً الى الأول ، ويُخرجه كأحسن شيء وأملحه ، ويؤشح القصيدة الفريدة من قوله بالرسالة الشريفة من انشائه ، فيقرأ من النظم والنثر ، ويروي من النثر والنظم ، ويعطي القوافي الكثيرة فيصل بها الأبيات الرشيقة ، ويقترح عليه كلُّ عويص وعسير من النظم والنثر فيرتجله في أسرع من الطرف على ريحٍ لايبلعه ، ونفس

لا يقطعه(١٣٢٠) ». وقد أقرّ البديع في مناظرته مع أبي بكر الخوارزمي أنه يستطيع أن يقترح عليه أربع مئة صنف في الترسل، ثم يستطرد فيصف بعض هذه الأصناف فيقول: انه يستطيع أن يكتب كتاباً يُقرأ منه جوابه، أو كتاباً يُقرأ من آخره الى أوله، أو كتاباً اذا قُرِيء من أوله الى آخره كان كتاباً، فإن عُكست سطوره مخالفة كان جواباً، أو كتاباً لا يوجد فيه حرف منفصل من راء يتقدم الكلمة أو دال ينفصل عنها، أو كتاباً خالياً من الألف واللام، أو كتاباً خالياً من الحروف العواطل، أو كتاباً أول سطوره كلها ميم وآخرها جيم، أو كتاباً اذا قُرِيء معرجاً وسُرد معوجاً كان شعراً، أو كتاباً اذا فُسِّرَ على وجه كان مدحاً واذا فُسِّرَ على وجه كان قدحاً(١٣١١). ومع هذا الاعتراف بالتعقيد نجد له رسائل تتسم بلغة واضحة ذات ألفاظ موسيقية عذبة لها وقع حسن في الأذن.

ومما يلاحظ في نثره كثرة الاستشهاد بالآيات القرآنية، والأمثال، والحكم، والأبيات الشعريه من نظمه أو من نظم شعراء آخرين، وأحياناً يمعن في هذا الاستشهاد كما نرى في رسالته الى أبي جعفر الميكالي التي ضمنها ستة وثلاثين بيتاً في الوقت الذي لم تتعد الرسالة بضعة وعشرين سطراً، والى جانب الشعر في هذه الرسالة نجد حكماً وأمثالاً، مثل قوله: وبذل الموجود غاية الجود، وبعض الحمية آخر المجهود، وماش خير من لاش، ووجود ماقل خير من عدم ماجل، وقليل في الجيب خير من كثير في الغيب، وحمار هو خير من فرس ليس، وكوخ في العيان خير من قصر في الوهم، وزيت خير من ليت، وما كان أجود من لو كان. وقد قيل عصفور في الكف خير من كركيّ في الجو، ولأن تقطف خير من أن تقف، ومن لم يجد الحميم رعى الهشيم، ومن لم يحسن صهيلاً نهق، ومن لم يجد ماءً تيمم »(١٣٢٢)

واشتهرت مقاماته أكثر من رسائله، وهي قائمة على الكدية باستثناء ثلاث عشرة مقامة تتناول أغراضاً شتى في المديح والوصف والنقد والأدب والألغاز والوعظ والحجاج في المذاهب وأحوال الزمان والفكاهة.

(١٣١٠) يتيمة الدهر ٤: ٢٥٦.

(١٣١١) رسائل أبي الفضل بديع الزمان الهمذاني ص ٥٠، وينظر الفن ومذاهبه في النثر العربي ص ٢٤٥.

(١٣١٢) رسائل أبي الفضل بديع الزمان الهمذاني ص ٦٠ ـ ٦١.

والمقامات أرحب من رسائله معنىً، وألطف مبنى، وأخف صنعة، وأكثر فكاهة وأوفر مرحا واضحاكا. قال الدكتور زكي مبارك: «إن مقامات بديع الزمان تُحفة من تحف النثر الفني في القرن الرابع، وقد أردنا أن نُطيل بها الطواف ليتعرّف اليها القارىء، فقد كان مفهوماً عند كثير من الناس أنها ألاعيب لفظية ليس فيها من المعاني ما يستحق الدرس، ولكنا بعد مواجهتها مرة ومرة رأينا فيها من أمارات العقل والذكاء وخفة الروح ما يُوجب الاعجاب، وكنا نحفظها في الحداثة، غير انا لم نكن ندرك خطرها كما تمثلت لنا في هذه الأيام»(٣٣٢)

تقوم أحداث المقامات على كاهل رجلين ابتدعهما بديع الزمان، الأول الراوي عيسى بن هشام والثاني البطل المغامر أبو الفتح الاسكندري، وأحياناً يغفل عن هذا البطل كما هو الحال في المقامات الثلاث: البغدادية، والنهيدية، والغيلانية.

إن أسلوب البديع في المقامات مسجوع مُنمّق، يعتمد على الصنعة، اذ نراه يتكيءُ على التشبيهات، والاستعارات، والكنايات، وضروب المحسنات البديعية ولا سيما الجناس والطباق، ويكثر من الجمل الاعتراضية، والترادف في اللفظ للمعنى الواحد، والاستشهاد بالشعر، فلا تخلو مقامة من أبيات، لاتقل عن بيتين، من نظمه أو من نظم الشعراء الأقدمين وكذلك الاقتباس من القرآن الكريم والحديث الشريف، مثال ذلك البيتان الآتيان:(٣٣٤)

حتى اذا حُزْتُ بلادَ العِدى ... الى حمى الدين نقضتُ الوجيبْ
فقلتُ اذ لاحَ شعارُ الهُدى ... (نصرٌ من الله وفتحٌ قريبْ)

ومثل قوله: «أثارتني رفقةٌ وليمةٌ فأجبتُ اليها للحديث المأثور عن رسول الله صلى الله عليه وسلم: لو دُعيتُ الى كراع لأجبتُ ولو أهدي الىّ ذراعٌ لقبلتُ»(٣٣٥) ويلتجيء احياناً الى الأمثال اما مقتبسة واما مبتكرة مثل قوله في المقامة الجاحظية: «ياقوم لكلّ عملٍ رجالٌ، ولكلّ مقام مقالٌ، ولكلّ دارٍ سكانٌ، ولكلّ زمانٍ جاحظ»(٣٣٦)

---

(٣٣٣) النثر الفني في القرن الرابع ١، ٢٣٣.
(٣٣٤) مقامات بديع الزمان، المقامة القزوينية ص ٨٧.
(٣٣٥) مقامات بديع الزمان ص ٨٤
(٣٣٦) نفسه ص ٨٩.

والبديع اديبٌ ظريفٌ ، وكاتبٌ طريفٌ ، وفنانٌ موهوبٌ ، وقصصيٌّ ملهمٌ ، يقدم مقاماته بأسلوب محكم تظلله روح فكهة مرحة ، وقد اخترنا للقارىء المقامة البغدادية ليقف على طبيعة هذا الاسلوب في ايراد المشاهد الغريبة وربطها ببراعة مع بعضها وصولاً الى نتيجة لطيفة ترقُّ لها القلوب ، « حدثني عيسى بن هشام ، قال ، اشتهيتُ الأزاذ (٣٣٧) وأنا ببغداذ ، وليس معي عقدٌ ، على نقدٍ (٣٣٨) ، فخرجتُ أنتهز محالهُ حتى أحلني الكرخ ، فاذا أنا بسوادي (٣٣٩) يسوقُ بالجهدِ حمارهُ ، ويُطرِّفُ بالعقدِ ازارهُ ، فقلتُ ، ظفرنا والله بصيدٍ ، وحياكَ اللهُ أبا زيدٍ ، من أينَ أقبلتَ ؟ وأينَ نزلتَ ؟ ومتى وافيت ؟ وهلُمَّ الى البيتِ ، فقال ، السوادي ، لست بأبي زيدٍ ، ولكنني أبو عبيدٍ ، فقلتُ ، نعم ، لعن الله الشيطانَ ، وأبعد النسيان ، أنسانيكَ طولُ العهد ، واتصالُ البعد ، فكيف حالُ أبيكَ ؟ أشابَ كعهدي ، أم شابَ بعدي ؟ فقال ، قد نبتَ الربيعُ على دمنته ، (٣٤٠) وأرجو أن يُصيِّرهُ اللهُ الى جنتهِ ، فقلتُ ، إنَّا للهِ وانَّا اليه راجعون ، ولا حول ولا قوةَ الاَّ باللهِ العليِّ العظيم ، ومددتُ يد البدارِ الى الصِّدار ، (٣٤١) اريد تمزيقهُ ، فقبضَ السواديُّ على خصري بجمعه ، وقال ، نشدتُكَ اللهَ لامزَّقتهُ ، فقلتُ ، هلُمَّ الى البيتِ نُصِبْ غداءً ، أو الى السوقِ نشترِ شواءً ، والسوقُ أقربُ ، وطعامه أطيبُ ، فاستفزَّتهُ حمةُ القرم ، وعطفتهُ عاطفة اللَّقم ، (٣٤٢) وطمعَ ، ولم يعلم أنَّه وقعَ ، ثم أتينا شوَّاءً يتقاطرُ شواؤه عرقاً ، وتتسايلُ جوذابانهُ مرقاً (٣٤٣) فقلتُ ، أفرزْ لأبي زيدٍ من هذا الشواء ، ثمَّ زِنْ له من تلك الحلواء ، واختر له من تلك الاطباقِ ، وانضد عليها اوراقَ الرِّقاقِ ، ورشَّ عليه شيئاً من ماءِ السُّمَّاقِ ، ليأكله أبو زيدٍ هنيئاً ، فانحنى الشَّوَّاءُ بساطوره ، على زبدةٍ تَنُّوره ، فجعلها كالكحلِ سحقاً ، وكالطَّحنِ دقّاً ، ثم جلس وجلستُ ، ولا يئسَ ولا يئستُ ، حتى استوفينا ، وقلتُ لصاحب الحلوى ، زِنْ لأبي زيدٍ من اللوزينج رطلين فهو أجرى في الحلوقِ ،

(١٣٣٧) من اجود انواع التمر .

(١٣٣٨) النقد : المسكوك من الذهب والفضة

(١٣٣٩) السوادي : الرجل من رساتيق العراق وقراه ، نسبة الى السواد ، وسمي العراق سواداً لاكتساء ارضه بالخضرة من نبات وأشجار .

(١٣٤٠) المراد بالدمنة القبر .

(١٣٤١) البدار : المبادرة والمسارعة . الصدار : ثوب يلبس مما يلي الجسد .

(١٣٤٢) استفزته : استهوته وحركته بحدة . الحمة للشيء شدته ، يقال لسعته حمة البرد اي شدته ، والحمة في الاصل : ابرة العقرب التي تلسع بها . القرم : الشهوة الشاملة لأكل اللحم . اللقم : السرعة في الاكل .

(١٣٤٣) الجوذابات : جمع جوذابة ، وهي خبز يعجن في تنور ولوزه لحم .

وامضى في العروق ، وليكن ليليُّ العمر . يومي النُّشر(١٣٢٤) . رقيق القشر ، كثيف الحشو . لؤلؤيّ الدهن ، كوكبيّ اللون . يذوب كالصمغ . قبل المضغ . لياكله أبو زيد هنيئاً . قال : فوزنَهُ ثم قعَدَ وقعدتُ ، وجرَدَ وجرّدت . حتى استوفيناهُ ، ثم قلتُ : ياأبا زيد ماأحوجنا الى ماء يشعشع بالثلج ليقمع هذه الصَارّة .(١٣٢٥) ويفثأ(١٣٢٦) هذه اللُّقم الحارة ، اجلس ياأبا زيد حتى نأتيكَ بسقاء يأتيك بشربة ماء ، ثم خرجت وجلستُ بحيث أراه ولا يراني أنظر مايصنع . فلما أبطأتُ عليه ، قام السوادي الى حماره ، فاعتلق الشوّاء بازاره ، وقال : اين ثمن ماأكلتَ ؟ فقال أبو زيد : أكلته ضيفاً ، فلكمه لكمةً ، وثنّى عليه بلطمة ، ثم قال الشوّاء ، هاك ، ومتى دعوتك ؟ زِن ياأخا القحة عشرين(١٣٢٧) فجعل السوادي يبكي ويحلُّ عُقدَهُ بأسنانه ويقول ، كم قلتُ لذاك القُريد ،(١٣٢٨) أنا أبو عبيد ، وهو يقول ، أنت ابو زيد ، فأنشدتُ :

أعمـلْ لرزقـكَ كـلَّ آلـهْ ... لا تقعدنَّ بـكـلِّ حالـهْ
وانهـضْ بـكـلِّ عظـيمـةٍ ... فالمرءُ يعجزُ لا محالهْ(١٣٢٩)

وتجدر الاشارة في آخر هذه الدراسة الموجزة لسيرة بديع الزمان ونثره الى أن الباحثين جميعاً أثنوا على المقامات واشادوا بمكانتها بين الفنون النثرية التي وصلت الينا ماعدا محمد بن علي بن طباطبا المعروف بابن الطقطقا (ت ٧٠٩ هـ) من القداسي ، والدكتور محمد مهدي البصير من المحدثين . قال ابن الطقطقا ، « المقامات لا يستفاد منها سوى التمرن على الانشاء ، والوقوف على مذاهب النظم والنثر . نعم وفيها حِكَمٌ وحيلٌ الا ان ذلك مما يصغر الهمة ، اذ هو مبني على السؤال والاستجداء والتحيل القبيح على تحصيل النزر الطفيف ، فان نفعت من جانب ضرّت من جانب ، وبعض الناس تنبهوا على هذا من المقامات الحريرية والمذهبية(١٣٣٠) ، اما الدكتور محمد مهدي البصير فيقول : « أما مقامات الهمذاني فانها جناية لاتغتفر على الأدب العربي ، ذلك انه خلق فيها أدب الشحاذة خلقاً وأنشأه انشاءً ، ولم يخل

(١٣٢٤) ليلي العمر ، اي قد صنع بالليل . يومي النشر ، اي نشر من مصنعه بالنهار فيكون قد نضج وصرت الحلاوة في جميع اجزائه .

(١٣٢٥) الصارة : العطش .

(١٣٢٦) يفثأ ، يسكن ، وتسكين اللقم : كسر الحدة من حرارتها .

(١٣٢٧) القحة ، الوقاحة وسوء الادب . ومعنى زن عشرين ، اعط وزن عشرين درهما .

(١٣٢٨) القريد ، تصغير قرد .

(١٣٢٩) مقامات بديع الزمان ص ٧١ ـ ٧٤ .

(١٣٣٠) الفخري في الآداب السلطانية والدول الاسلامية ص ١٥

الأدب العربي من الشحاذة لسوء الحظ على ألسن الشعراء المداحين . ولكنها ظهرت في هذه المرة بأبشع صورها . وأقبح أشكالها . وأخس طرقها وأساليبها سامح الله الهمداني . فانه أساء إلى الأدب بمقاماته اكثر مما أحسن اليه بشعره ورسائله (١٣٢١) وقد كفانا الدكتور محسن غياض بالرد على هذين القولين . فقال : « ونحن نعتقد أن ابن الطقطقا والمرحوم البصير قد تطرفا في مهاجمة المقامات تطرفاً لا مبرر له ، فهي دون شك صدى لظاهرة الكدية في عصرها . ولا نرى فيها ما يصغر الهمة ويشجع على التسول . والانسان لا يكون متسولاً اذا قرأ أدب التسول . وانما هو أمر تضطره اليه ظروف الحياة وفقدان العدالة الاجتماعية . ولو كان الأمر كذلك لأصبح كل من قرأ أدب المجون ماجناً وكل من قرأ شعر الزهد زاهداً . وليس الامر كذلك يقيناً . كما أن البديع لم يخلق التسول والشحاذة . ولم يدع اليهما . وانما صوّر ظاهرة موجودة في عصره . واستمد موضوع مقاماته من حياة طبقة بائسة من طبقات المجتمع آنذاك . وتلك في نظرنا ميزة يحمد عليها . فقد كان الادباء قبله يستمدون موضوعاتهم من حياة الطبقة الغنية . فكثرت قصصهم واحاديثهم عن الخلفاء والأمراء والوزراء والمشهورين من العشاق والمغنيات والظرفاء ثم جاء البديع فخالف ذلك واستمد موضوعاته من حياة الفقراء من الناس الذين اضطرهم فساد النظام السياسي والاجتماعي الى الاستجداء والاحتيال في طلب الرزق . والبديع بهذا يقدم لنا وثيقة ادانة لفساد النظام السياسي عندما تغلبت العناصر الاعجمية ومزقت الدولة الواحدة وعاثت بها فساداً (١٣٢٢) .

(١٣٢١) في الادب العباسي ص ٩٨

(١٣٢٢) مقامات بديع الزمان الهمداني ، المنشور في مجلة الكلية الادبية ، العدد ٦ سنة ١٩٧٧ .

نماذج من مقامات الحريري

المقامة الإسكندرية

قَالَ الحَارِثُ بنُ هَمَّامٍ : طَحَا بِي[1] مَرَحُ الشَّبَابِ . وَهَوَى الاكْتِسَابِ . إلى أنْ جُبْتُ مَا بَيْنَ فَرْغَانَةَ . وَغَانَةَ . أخُوضُ الغِمَارَ[2] لأجْنِيَ الثِّمَارَ . وَأقْتَحِمُ الأخْطَارَ . لِكَيْ أُدْرِكَ الأوْطَارَ . وَكُنْتُ لَقِفْتُ مِنْ أفْوَاهِ العُلَمَاءِ . وَثَقِفْتُ مِنْ وَصَايَا الحُكَمَاءِ . أنَّهُ[3] يَلْزَمُ الأدِيبَ الأرِيبَ[4] . إذَا دَخَلَ البَلَدَ الغَرِيبَ . أنْ يَسْتَمِيلَ قَاضِيَهُ . وَيَسْتَخْلِصَ مَرَاضِيَهُ . لِيَسْتَتِبَّ ظُهْرُهُ عِنْدَ الخِصَامِ .[5] وَيَأمَنَ فِي الغُرْبَةِ جَوْرَ الحُكَّامِ . فَاتَّخَذْتُ هَذَا الأدَبَ إمَاماً .[6] وَجَعَلْتُهُ لِصَالِحِي زِمَاماً . فَمَا دَخَلْتُ مَدِينَةً . وَلا وَلَجْتُ[7] عَرِينَةً . إلاَّ وَامْتَزَجْتُ بِحَاكِمِهَا امْتِزَاجَ المَاءِ بِالرَّاحِ[8] . وَتَقَوَّيْتُ بِعِنَايَتِهِ تَقَوِّيَ الأجْسَادِ بِالأرْوَاحِ . فَبَيْنَمَا أنَا عِنْدَ حَاكِمِ الإسْكَنْدَرِيَّةِ .[9]

---

١ طحا بي : ذهب بي .

٢ جبت : قطعت . فرغانة : بلد بأقصى بلاد المشرق . غانة : بلد بأقصى المغرب . الغمار : الكثير من الماء .

٣ لقفت : أخذت بسرعة وحفظت . ثقفت : أدركت .

٤ الأريب : العاقل .

٥ يستميل قاضيه : يرغبه ويترضاه . يستخلص : يطلب . مراضيه : رضاه .

٦ الأدب : الأمر الظريف المستحسن . إماماً : قدوة .

٧ ولجت : دخلت .

٨ الراح : الخمر .

٩ الاسكندرية : مدينة معروفة وهي أشهر ثغور مصر بناها الاسكندر .

١٧

في عشية عرية . وقد أحضر مال الصدقات . ليفضه[1] على ذوي الفاقات . إذ دخل شيخ عفرية . تعتله امرأة مصبية . فقالت[2] : أيد الله القاضي . وأدام به التراضي . إني امرأة من أكرم جرثومة[3] . وأطهر أرومة[4] . وأشرف خؤولة وعمومة . ميسمي الصون[5] . وشيمتي الهون[6] . وخلقي نعم العون . وبيني وبين جاراتي بون[5] . وكان أبي إذا خطبني بناة المجد . وأرباب الجد[6] . سكتهم وبكتهم[7] . وعاف وصلتهم وصلتهم . واحتج بأنه عاهد الله[8] تعالى بحلفة . أن لا يصاهر غير ذي حرفة . فقيض القدر[8] لنصبي . ووصبي . أن حضر هذا الخدعة[9] نادي أبي . فأقسم بين[10] رهطه . انه وفق شرطه . وادعى أنه طالما نظم درة إلى درة . فباعهما ببدرة[10] . فاغتر أبي بزخرفة محاله . وزوجنيه قبل اختبار حاله . فلما استخرجني من كناسي[11] . ورحلني عن أناسي . ونقلني إلى كسره . وحصلني تحت أسره . وجدته[12]

---

١ عرية : شديدة البرد أو ذات ريح باردة . يفضه : يفرقه .

٢ ذوي الفاقات : الفقراء المحتاجين . عفرية : خبيث شديد الدهاء . تعتله : تجره بعنف وجفاء . مصبية : ذات صبيان .

٣ جرثومة : أي أصل .

٤ الأرومة : الحسب . ميسمي : علامتي .

٥ شيمتي : خلقي وعادتي . الهون : الرفق .

٦ أرباب الجد : أصحاب الغنى .

٧ بكتهم : ألزمهم الحجة . عاف وصلتهم : كره قربهم .

٨ حلفة : أي يمين . حرفة : صناعة . قيض : قدر الله تعالى .

٩ نصبي : تعبي . الخدعة : الكثير الخداع . نادي أبي : مجلس أبي .

١٠ البدرة : عشرة آلاف درهم .

١١ كناسي : منزلي وأصله بيت الظبي أو بقر الوحش .

١٢ كسره : جانب بيته . أسره : قيده وحبسه .

قُعَدَةً جُثَمَةً . وَأَلْفَيْتُهُ ضُجَعَةً نُؤَمَةً . وَكُنْتُ صَحِبْتُهُ بِرِيَاشٍ[1] وَزِيٍّ . وَأَثَاثٍ وَرِيٍّ . فَمَا بَرِحَ يَبِيعُهُ فِي سُوقِ الْهَضْمِ . وَيُتْلِفُ[2] ثَمَنَهُ فِي الْخَضْمِ . وَالْقَضْمِ . إِلَى أَنْ مَزَّقَ مَا لِي بِأَسْرِهِ . وَأَنْفَقَ مَالِي[3] فِي عُسْرِهِ . فَلَمَّا أَنْسَانِي طَعْمَ الرَّاحَةِ . وَغَادَرَ[4] بَيْتِي أَنْقَى مِنَ الرَّاحَةِ . قُلْتُ لَهُ[5] : يَا هَذَا إِنَّهُ لَا مَخْبَأَ بَعْدَ بُوسٍ[5] . وَلَا عِطْرَ بَعْدَ عَرُوسٍ[6] . فَانْهَضْ لِلِاكْتِسَابِ بِصِنَاعَتِكَ . وَاجْنِ ثَمَرَةَ[7] بَرَاعَتِكَ . فَزَعَمَ أَنَّ صِنَاعَتَهُ قَدْ رُمِيَتْ بِالْكَسَادِ . لِمَا ظَهَرَ فِي الْأَرْضِ مِنَ الْفَسَادِ . وَلِي مِنْهُ سُلَالَةٌ[7] . كَأَنَّهُ خِلَالَةٌ . وَكِلَانَا[8] مَا يَنَالُ مَعَهُ شُبْعَةً . وَلَا تَرْقَأُ لَهُ مِنَ الطَّوَى دَمْعَةٌ . وَقَدْ قُدْتُهُ[8] إِلَيْكَ . وَأَحْضَرْتُهُ لَدَيْكَ . لِتَعْجُمَ[9] عُودَ دَعْوَاهُ . وَتَحْكُمَ بَيْنَنَا بِمَا أَرَاكَ اللَّهُ . فَأَقْبَلَ الْقَاضِي عَلَيْهِ وَقَالَ لَهُ : قَدْ وَعَيْتُ قَصَصَ عِرْسِكَ[10] . فَبَرْهِنِ الْآنَ عَنْ نَفْسِكَ . وَإِلَّا كَشَفْتُ عَنْ لَبْسِكَ . وَأَمَرْتُ بِحَبْسِكَ . فَأَطْرَقَ إِطْرَاقَ الْأَفْعُوَانِ . ثُمَّ شَمَّرَ[11]

---

١ قعدة : كثير القعود . جثمة : كثير الجثوم ، أي يلازم الموضع الذي يقعد فيه .

٢ زي : يعني هيئة حسنة . ري : حسن حال وكثرة نعمة . في سوق الهضم : بأقل من القيمة .

٣ الخضم : الأكل بجميع الفم . القضم : الأكل بأطراف الأسنان .

٤ طعم الراحة : حلاوة الاستراحة . غادر : ترك .

٥ أنقى من الراحة : يطق الكف لنقائه من الشعر . بوس : فقر .

٦ لا عطر بعد عروس : هذا مثل قالته امرأة من عذرة ماتت عنها زوجها واسمه عروس فتزوجها رجل آخر وأمرها أن تتعطر فقالته . اجتني : مكني من الجنى وهو جمع الثمر .

٧ سلالة : ولد . خلالة : ما يتخلل به .

٨ ما ينال : في نسخة لا ينال أي لا يحصل . شبعة : قدر ما يشبع به مرة . ترقأ : أي تسكن .

٩ لتعجم : لتقص وتختبر .

١٠ قصص عرسك : ما قصته زوجك .

١١ لبسك : إشكالك وتعمية أمرك . الأفعوان : ذكر الأفاعي او العظيم منها .

للحَرْبِ العَوَانِ[1] . وَقَالَ :

إسْمَعْ حَدِيثِي فَإِنَّهُ عَجَبُ ... يُضْحِكُ مِن شَرْحِهِ وَيُنْتَحَبُ

أنَا امْرُؤٌ لَيْسَ فِي خَصَائِصِهِ ... عَيْبٌ وَلا فِي فَخَارِهِ رِيَبُ[2]

سَرُوجُ دَارِي الَّتِي وُلِدْتُ بِهَا ... وَالأَصْلُ غَسَّانُ حِينَ أَنْتَسِبُ

وَشُغْلِيَ الدَّرْسُ وَالتَّبَحُّرُ فِي الـ ... ـعِلْمِ طِلابِي وَجِدِّيَ الطَّلَبُ[3]

وَرَأْسُ مَالِي سِحْرُ الكَلامِ الَّذِي ... مِنْهُ يُصَاغُ القَرِيضُ وَالخُطَبُ[4]

أغُوصُ فِي لُجَّةِ البَيَانِ فَأَخْـ ... ـتَارُ اللآلِي مِنْهَا وَأَنْتَخِبُ[5]

وَأَجْتَنِي اليَانِعَ الجَنِيَّ مِنَ الـ ... ـقَوْلِ وَغَيْرِي لِلعُودِ يَحْتَطِبُ[6]

وَآخُذُ اللَّفْظَ فِضَّةً فَإِذَا ... مَا صُغْتُهُ قِيلَ : إنَّهُ ذَهَبُ ![7]

وَكُنْتُ مِنْ قَبْلُ أَمْتَرِي نَشَباً ... بِالأَدَبِ المُقْتَنَى وَأَحْتَلِبُ[8]

وَيَمْتَطِي أَخْمَصِي لِحُرْمَتِهِ ... مَرَاتِباً لَيْسَ فَوْقَهَا رُتَبُ[9]

وَطَالَمَا زُفَّتِ الصِّلاتُ إلى ... رَبْعِي فَلَمْ أُرْضِ كُلَّ مَنْ يَهَبُ[10]

---

١ الحرب العوان : الحرب التي قبلها حرب وهي تكون أشد من الأولى .

٢ خصائصه : خصاله وطباعه .

٣ التبحر : الاتساع .

٤ سحر الكلام : هو ما لطف مأخذه ورق . القريض : الشعر .

٥ أغوص في لجة البيان أي أتعمق في بليغ العلوم ، وأصل اللجة معظم البحر .

٦ أجتني : أقتطف . الجني : الطري من الثمر الذي جني آنفاً . يحتطب : يجمع حطب ما يجتني .

٧ صغته : سبكته .

٨ أمتري : أكتسب . النشب : المال .

٩ يمتطي : أي يركب . الأخمص : ما ارتفع من باطن القدم عن الأرض . لحرمته : أي لشرفه ورفعته .

١٠ زفت الصلات : أي حملت إلي الجوائز والهدايا . ربعي : منزلي . لم أرض كل من يهب : لا أقبل إلا من العظماء .

فَاليَوْمَ مَنْ يَعْلَقُ الرَّجَاءُ بِهِ ... أَكْسَدُ شَيءٍ فِي سُوقِهِ الأَدَبُ

لا عِرْضُ أَبْنَائِهِ يُصَانُ وَلا ... يُرْقَبُ فِيهِمْ إِلٌّ وَلا نَسَبُ[1]

كَأَنَّهُمْ فِي عِرَاصِهِمْ جِيَفٌ ... يُبْعَدُ مِنْ نَتْنِهَا وَيُجْتَنَبُ[2]

فَحَارَ لُبِّي لِمَا مُنِيتُ بِهِ ... مِنَ اللَّيَالِي وَصَرْفُهَا عَجَبُ[3]

وَضَاقَ ذَرْعِي لِضِيقِ ذَاتِ يَدِي ... وَسَاوَرَتْنِي الهُمُومُ وَالكُرَبُ[4]

وَقَادَنِي دَهْرِيَ المُلِيمُ إِلَى ... سُلُوكِ مَا يَسْتَشِينُهُ الحَسَبُ[5]

فَبِعْتُ حَتَّى لَمْ يَبْقَ لِي سَبَدٌ ... وَلا بَتَاتٌ إِلَيْهِ أَنْقَلِبُ[6]

وَادَّنْتُ حَتَّى أَثْقَلْتُ سَالِفَتِي ... بِحَمْلِ دَيْنٍ مِنْ دُونِهِ العَطَبُ[7]

ثُمَّ طَوَيْتُ الحَشَا عَلَى سَغَبٍ ... خَمْساً فَلَمَّا أَمَضَّنِي السَّغَبُ[8]

لَمْ أَرَ إِلاَّ جِهَازَهَا عَرَضاً ... أَجُولُ فِي بَيْعِهِ وَأَضْطَرِبُ[9]

فَجُلْتُ فِيهِ وَالنَّفْسُ كَارِهَةٌ ... وَالعَيْنُ عَبْرَى وَالقَلْبُ مُكْتَئِبُ

وَمَا تَجَاوَزْتُ إِذْ عَبَثْتُ بِهِ ... حَدَّ التَّرَاضِي فَيَحْدُثَ الغَضَبُ[10]

---

١ يرقب : يحفظ . الإلّ : العهد والقرابة والجوار .

٢ العراص ، جمع عرصة : وهي فناء الدار .

٣ منيت به : بليت به . صرفها : تقلبها .

٤ ضاق ذرعي : انقبض قلبي . ساورتني : واثبتني وغلبتني .

٥ المليم : أي الذي يأتي بما يلام عليه . يستشينه : يستبشعه .

٦ وفي نسخة لبد مأخوذ من قولهم ما له سبد ولا لبد : أي شعر ولا صوف . البتات : الزاد ومتاع البيت .

٧ ادنت : افتعال من الدين ، بالفتح ، أي تداينت . السالفة : صفحة العنق ، وقيل مقدمه .

٨ سغب : جوع . خمساً : خمس ليال . أمضني : أحرقني .

٩ الجهاز : فاخر متاع البيت وأهبة السفر . العرض : حطام الدنيا وهو المال قل أو كثر . أضطرب : أتردد .

١٠ تجاوزت : تعديت . عبثت به : أي فعلت به ما لا يليق فعله .

فَإِنْ يَكُنْ غَاظَهَا تَوَهُّمُهَا ... أَنَّ بَنَانِي بِالنَّظْمِ تَكْتَئِبُ[1]

أَوْ أَنَّنِي إِذْ عَزَمْتُ خِطْبَتَهَا ... زَخْرَفْتُ قَوْلِي لِيَنْجَحَ الأَرَبُ[2]

فَوَالَّذِي سَارَتِ الرِّفَاقُ إِلَى ... كَعْبَتِهِ تَسْتَحِثُّهَا النُّجُبُ[3]

مَا الْمَكْرُ بِالْمُحْصَنَاتِ مِنْ خُلُقِي ... وَلَا شِعَارِي التَّمْوِيهُ وَالْكَذِبُ[4]

وَلَا يَدِي مُذْ نَشَأْتُ نِيطَ بِهَا ... إِلَّا مَوَاضِي الْيَرَاعِ وَالْكُتُبُ[5]

بَلْ فِكْرَتِي تَنْظِمُ الْقَلَائِدَ لَا ... كَفِّي وَشِعْرِي الْمَنْظُومُ لَا السُّخُبُ[6]

فَهَذِهِ الْحِرْفَةُ الْمُشَارُ إِلَى ... مَا كُنْتُ أَحْوِي بِهَا وَأَجْتَلِبُ[7]

فَأْذَنْ لِشَرْحِي كَمَا أَذِنْتَ لَهَا ... وَلَا تُرَاقِبْ وَاحْكُمْ بِمَا يَجِبُ[8]

قَالَ : فَلَمَّا أَحْكَمَ مَا شَادَهُ . وَأَكْمَلَ إِنْشَادَهُ . عَطَفَ[9] الْقَاضِي إِلَى الْفَتَاةِ . بَعْدَ أَنْ شُعِفَ[10] بِالأَبْيَاتِ . وَقَالَ : أَمَا إِنَّهُ قَدْ ثَبَتَ عِنْدَ جَمِيعِ الْحُكَّامِ . وَوُلَاةِ الأَحْكَامِ . انْقِرَاضُ جِيلِ الْكِرَامِ . وَمَيْلُ الأَيَّامِ إِلَى اللِّئَامِ . وَإِنِّي لِإِخَالُ بَعْلَكِ صَدُوقًا فِي[11]

---

١ البنان : طرف الإصبع .

٢ زخرفت : زينت وحسنت .

٣ تستحثها : تستعجلها . النجب : جمع نجيبة وهي الكريمة من الابل .

٤ المحصنات : أي العفائف ، جمع محصنة .

٥ نيط بها : علق بها .

٦ القلائد : القصائد والأشعار . السخب : القلادة من القرنفل تجعل في أعناق الأطفال .

٧ أجتلب : أجمع وأكتسب .

٨ لا تراقب : لا تنظر إلى واحد منا والمراد لا تعدل عن الحق .

٩ أحكم ما شاده : أتقن ما قاله وأنشأه .

١٠ من شعف الحب فؤاده : أي علاه وشمله .

١١ لإخال : لأظن . بعلك : زوجك .

الكَلامِ . بَرِيئاً مِنَ المَلامِ . وَهَا هُوَ قَدِ اعْتَرَفَ لَكَ بِالقَرْضِ .[1] وَصَرَّحَ عَنِ المَحْضِ[2] . وَبَيَّنَ مِصْدَاقَ النَّظْمِ . وَتَبَيَّنَ أَنَّهُ مَعْرُوقُ العَظْمِ . وَإِعْنَاتُ المُعْذِرِ مَلأَمَةٌ . وَحَبْسُ المُعْسِرِ مَأْثَمَةٌ . وَكِتْمَانُ[3] الفَقْرِ زَهَادَةٌ . وَانْتِظَارُ الفَرَجِ بِالصَّبْرِ عِبَادَةٌ . فَارْجِعِي إِلَى خِدْرِكِ .[4] وَاعْذُرِي أَبَا عُذْرِكِ . وَتَنَهْنَهِي عَنْ غَرْبِكِ . وَسَلِّمِي لِقَضَاءِ رَبِّكِ .[5] ثُمَّ إِنَّهُ فَرَضَ[6] لَهُمَا فِي الصَّدَقَاتِ حِصَّةً . وَنَاوَلَهُمَا مِنْ دَرَاهِمِهَا قَبْصَةً . وَقَالَ لَهُمَا : تَعَلَّلا بِهَذِهِ العُلالَةِ . وَتَنَدَّيَا بِهَذِهِ البُلالَةِ .[7] وَاصْبِرَا عَلَى كَيْدِ الزَّمَانِ وَكَدِّهِ . فَعَسَى اللهُ أَنْ يَأْتِيَ بِالفَتْحِ أَوْ أَمْرٍ مِنْ عِنْدِهِ . فَنَهَضَا وَلِلشَّيْخِ فَرْحَةُ المُطْلَقِ مِنَ الإِسَارِ . وَهِزَّةُ المُوسِرِ بَعْدَ الإِعْسَارِ . قَالَ الرَّاوِي : وَكُنْتُ عَرَفْتُ أَنَّهُ أَبُو زَيْدٍ سَاعَةَ بَزَغَتْ شَمْسُهُ . وَنَزَعَتْ عِرْسُهُ[8] . وَكِدْتُ أَفْصِحُ عَنِ افْتِنَانِهِ . وَأَثْمَارِ أَفْنَانِهِ . ثُمَّ أَشْفَقْتُ مِنْ عُثُورِ القَاصِي[9] عَلَى بُهْتَانِهِ . وَتَزْوِيقِ لِسَانِهِ . فَلا يَرَى عِنْدَ عِرْفَانِهِ . أَنْ يُرَشِّحَهُ[10]

---

١ القرض : السلف .

٢ صرح : بيّن وأظهر . المحض : الخالص .

٣ معروق العظم : كناية عن الهزال . الإعنات : الحمل على المشقة الشديدة . المعذر : الذي يأتي بما يعذر به . المعسر : هو من عجز عن قضاء الدين .

٤ خدرك : بيتك وسترك .

٥ أبو عذرة المرأة : زوجها الأول الذي افتض بكارتها وأزال عذرتها . تنهنهي عن غربك : كفي وازجري نفسك عن الحدة .

٦ فرض : عين وقدر .

٧ القبصة : هي ما يتناوله الانسان بأطراف أصابعه . تعللا : تشاغلا وتلاهيا . العلالة : ما يتعلل به وأصلها بقية اللبن . البلالة : قدر ما يبل به الشيء .

٨ نزعت عرسه : خبثت ، ومعناه خاصمت عرسه .

٩ يقال افتن الرجل في حديثه إذا جاء بالأفانين وهي الأساليب . الأفنان : جمع فنن : طرف الغصن . عثور : اطلاع .

١٠ الترشيح : التربية والتأهيل .

لإحسانه . فأحجمتُ عن القول إحجامَ المُرتاب . وطويتُ ذِكرَهُ كطيّ السِّجِلّ للكتاب . إلاّ أني قلتُ بعدما فصلَ . ووصلَ إلى[1] ما وصلَ : لو أنّ لنا مَنْ ينطلقُ في أثرِه . لأتانا بفصّ خبرِه .[2] وبما يُنشرُ من حبرِه . فأتبعَهُ القاضي أحدَ أمنائه . وأمرَهُ[3] بالتجسّسِ عن أنبائه . فما لبثَ أن رجعَ مُتدهدِهاً . وقهقرَ[4] مُقهقِهاً . فقالَ لهُ القاضي : مَهْيَمْ . يا أبا مَرْيَمَ ؟ فقالَ :[5] لقدْ عاينتُ[6] عجباً . وسمعتُ ما أنشأ لي طرباً . فقالَ لهُ : ماذا رأيتَ . وما الذي وعيتَ[7] ؟ قالَ : لمْ يزلِ الشيخُ منذُ خرجَ يُصفّقُ بيديه . ويُخالفُ بينَ رجليه[8] . ويُغرّدُ بملءِ شِدقيه . ويقولُ :

كِدتُ أصلَى ببَلِيّهْ ... مِنْ وَقاحٍ شَمَرِيّهْ[9]

وأزورُ السجنَ لولا ... حاكمُ الإسكندريّهْ

فضحكَ القاضي حتى هوتْ دنّيتُهُ . وذوتْ سكينتُهُ .[10]

---

١ السجل : اسم ملك ، وقيل هو الصحيفة فيها الكتابة ، أي كما تطوي الصحيفة الكتابة . فصل : ذهب .

٢ بفص خبره : بحقيقة حاله .

٣ ينشر : يلبس . الحبر : أردية يمانية موشاة ، وأراد ما يذكره من الكلام المسجع الشبيه بالحبر في الحسن .

٤ التدهده : الإسراع . القهقرة : المشي إلى الوراء .

٥ القهقهة : الضحك بصوت . مهيم : أي ما الخبر ، وهي كلمة لأهل اليمن معناها ما خبرك وما شأنك . يقال لعون القاضي أبو مريم .

٦ عاينت : ابصرت .

٧ وعيت : حفظت .

٨ يخالف بين رجليه : يرقص .

٩ أصلى : احترق . الشمري : الماضي في الأمور الحاد فيما يحاول .

١٠ الدنية : قلنسوة طويلة يلبسها القضاة كأنها منسوبة إلى الدنّ . ذوت : ذبلت وفترت . سكينته : وقاره .

فَلَمَّا فَاءَ إِلَى الوَقَارِ . وَعَقَّبَ الاسْتِغْرَابَ بِالاسْتِغْفَارِ . قَالَ : اللَّهُمَّ[1] بِحُرْمَةِ عِبَادِكَ المُقَرَّبِينَ . حَرِّمْ حَبْسِي عَلَى المُتَأَدِّبِينَ . ثُمَّ قَالَ لِذَلِكَ الأَمِينِ : عَلَيَّ بِهِ . فَانْطَلَقَ مُجِدًّا بِطَلَبِهِ . ثُمَّ عَادَ بَعْدَ لأْيِهِ[2] . مُخْبِرًا بِنَأْيِهِ . فَقَالَ لَهُ القَاضِي : أَمَا إِنَّهُ لَوْ حَضَرَ . لَكُفِيَ الحَذَرَ . ثُمَّ لأَوْلَيْتُهُ مَا هُوَ بِهِ أَوْلَى . وَلأَرَيْتُهُ أَنَّ الآخِرَةَ خَيْرٌ لَهُ مِنَ الأُولَى . قَالَ الحَارِثُ بْنُ هَمَّامٍ : فَلَمَّا رَأَيْتُ صَفْوَ القَاضِي إِلَيْهِ . وَفَوْتَ ثَمَرَةِ التَّنْبِيهِ عَلَيْهِ . غَشِيَتْنِي نَدَامَةُ[3] القَرَزْدَقِ حِينَ أَبَانَ النَّوَارَ . وَالكُمَيْتِ لَمَّا اسْتَبَانَ النَّهَارَ .[4]

---

١ فاء : رجع . الاستغراب : شدة الضحك والمبالغة فيه .

٢ لأيه : بطئه .

٣ صفو القاضي : ميله . غشيتني : أتتني وحضرتني .

٤ القرزدق : هو همام بن غالب التميمي الشاعر . والنوار : اسم زوجته وكان قد طلقها ثم ندم على ذلك . الكميت : هو عامر بن الحارث نسبة إلى كُمَيْت يضرب المثل به في النشاط .

المقامة الدمشقية

حكى الحارث بن همام قال : شخصت من العراق إلى الغوطة ، وأنا ذو جرد مربوطة ، وجدة مغبوطة . يلهيني[1] خلو الذرع ، ويزدهيني حفول الضرع . فلما بلغتها بعد شق[2] النفس ، وإنضاء العنس[3] ، ألفيتها كما تصفها الألسن . وفيها ما تشتهي الأنفس وتلذ الأعين . فشكرت يد النوى[4] . وجريت طلقاً مع الهوى . وطفقت أفض[5] ختوم الشهوات . وأجتني قطوف اللذات . إلى أن شرع سفر[6] في الإعراق . وقد استفقت من الإغراق . فعادني عيد من تذكار الوطن . والحنين إلى العطن . فقوضت[7] خيام الغيبة . وأسرجت جواد الأوبة . ولما تأهبت الرفاق . واستتب الاتفاق . ألحنا[8] من المسير . دون استصحاب الخفير .

---

١ الغوطة : موضع بساتين دمشق الشام وهي من جنات الدنيا . ذو جرد : صاحب خيل قصيرة الشعر من التنعم . جدة : غنى .

٢ خلو الذرع : فراغ القلب من الهم . يزدهيني : يستخفني ويطربني . حفول الضرع : امتلاؤه ، وهو كناية عن كثرة المال .

٣ إنضاء العنس : إهزال الناقة الصلبة .

٤ يد النوى : نعمة الفراق .

٥ جريت طلقاً : شوطاً وشأواً . أفض : أي أكسر .

٦ سفر : مسافرون . في الإعراق : في الذهاب إلى العراق .

٧ فعادني عيد : فعاودني شوق . العطن : هو في الأصل مناخ الإبل بقرب الماء ، يريد به الدار والمنزل .

٨ ألحنا : خفنا وحذرنا . الخفير : الذي يصحبهم في المخاوف ليجيرهم منها .

١٧٩

فَرُدْنَاهُ مِنْ كُلِّ قَبِيلَةٍ . وَأَعْمَلْنَا فِي تَحْصِيلِهِ أَلْفَ حِيلَةٍ فَأَعْوَزَ وِجْدَانُهُ فِي الأَحْيَاءِ . حَتَّى خِلْنَا أَنَّهُ لَيْسَ مِنَ الأَحْيَاءِ فَحَارَتْ لِعَوَزِهِ عُزُومُ السَّيَّارَةِ . وَانْتَدَوْا بِبَابِ جَيْرُونَ لِلاسْتِشَارَةِ فَمَا زَالُوا بَيْنَ عَقْدٍ وَحَلٍّ . وَشَزْرٍ وَسَحْلٍ . إِلَى أَنْ نَفَدَ التِّنَاجِي وَقَنَطَ الرَّاجِي . وَكَانَ حِذَاؤُهُمْ شَخْصٌ مِيسَمُهُ مِيسَمُ الشُّبَّانِ . وَلِبُوسُهُ لِبُوسُ الرُّهْبَانِ . وَبِيَدِهِ سُبْحَةُ النُّسْوَانِ . وَفِي عَيْنِهِ تَرْجَمَةُ النَّشْوَانِ . وَقَدْ قَيَّدَ لَحْظَهُ بِالْجَمْعِ . وَأَرْهَفَ أُذُنَهُ لاسْتِرَاقِ السَّمْعِ . فَلَمَّا أَتَى انْكَفَاؤُهُمْ . وَقَدْ بَرَحَ لَهُ خَفَاؤُهُمْ . قَالَ لَهُمْ : يَا قَوْمُ لِيُفْرِخْ كَرْبُكُمْ . وَلْيَأْمَنْ سِرْبُكُمْ . فَسَأَكْفُرُكُمْ بِمَا يَسْرُو رَوْعَكُمْ . وَيَبْدُو طَوْعَكُمْ . قَالَ الرَّاوِي : فَاسْتَطْلَعْنَا مِنْهُ طَلِيعَ الْحَقَارَةِ . وَأَسْنَيْنَا لَهُ الْجَعَالَةَ

---

١ ردناه : طلبناه . أعملنا : استعملنا .

٢ أعوز وجدانه : تعذر وجوده . في الأحياء : في القبائل ، جمع حي . خلنا : حسبنا .

٣ عزوم ، جمع عزم : وهو عقد القلب . السيارة : أي القافلة . انتدوا : اجتمعوا . بباب جيرون : بباب دمشق .

٤ الشزر : فتل الحبل على طاقين . والسحل : فتله على طاق واحد ، وقد جعله مثلاً في إحكام الرأي مرة وتوهينه أخرى .

٥ حذاؤهم : أي حذاءهم . ميسمه : علامته .

٦ قيد لحظه بالجمع : حدد نظره إلى الجماعة .

٧ أرهف أذنه لاسترق السمع : أصغى سمعه لما يقولونه . أنى : حان . الانكفاء : الانقلاب والرجوع . برح له خفاؤهم : أي ظهر له باطن أمرهم .

٨ ليفرخ كربكم : أي ليزل حزنكم . ليأمن سربكم ، يقال : فلان آمن في سربه أي في نفسه وأهله .

٩ أكفركم : أجيركم وأحميكم . يسرو : أي يكشف ويذهب . طوعكم : طائعاً لكم ، وانتصب على الحال .

١٠ استطلعنا : أي طلبنا الاطلاع . طليع الحقارة : حقيقتها . أسنينا : أعلينا . الجعالة : أجرة الأ

عَنِ السِّفَارَةِ . فَزَعَمَ أَنَّهَا كَلِمَاتٌ لَقَّنَهَا فِي الْمَنَامِ . لِيَحْتَرِسَ بِهَا مِنْ كَيْدِ الْأَنَامِ . فَجَعَلَ بَعْضُنَا يُومِضُ[1] إِلَى بَعْضٍ . وَيُقَلِّبُ طَرْفَيْهِ بَيْنَ لَحْظٍ وَغَضٍّ . وَتَبَيَّنَ لَهُ أَنَّا اسْتَضْعَفْنَا الْخَبَرَ[2] وَاسْتَشْعَرْنَا الْخَوَرَ[3] . فَقَالَ : مَا بَالُكُمُ اتَّخَذْتُمْ جِدِّي عَبَثًا . وَجَعَلْتُمْ تِبْرِيَ خَبَثًا ؟ وَلَطَالَمَا وَاللهِ جُبْتُ مَخَاوِفَ الْأَقْطَارِ[4] وَوَلَجْتُ مَقَاحِمَ الْأَخْطَارِ . فَغَنِيتُ بِهَا عَنْ مُصَاحَبَةِ خَفِيرٍ[5] وَاسْتِصْحَابِ جَفِيرٍ[6] . ثُمَّ إِنِّي سَأَنْفِي مَا رَابَكُمْ . وَأَسْتَسِلُّ الْحَذَرَ الَّذِي نَابَكُمْ . بِأَنْ أُوَافِقَكُمْ فِي الْبَدَاوَةِ . وَأُرَافِقَكُمْ فِي السَّمَاوَةِ[7] فَإِنْ صَدَقْتُكُمْ وَعْدِي . فَأَجِدُّوا سَعْدِي[8] . وَأَسْعِدُوا جِدِّي . وَإِنْ كَذَبْتُكُمْ فَمِي . فَمَزِّقُوا أَدَمِي[9] . وَأَرِيقُوا دَمِي . قَالَ الْحَارِثُ ابْنُ هَمَّامٍ : فَأَلْهَمْنَا تَصْدِيقَ رُؤْيَاهُ . وَتَحْقِيقَ مَا رَوَاهُ . فَنَزَعْنَا[10] عَنْ مُجَادَلَتِهِ . وَاسْتَهَمْنَا عَلَى مُعَادَلَتِهِ . وَفَصَمْنَا بِقَوْلِهِ[11] عُرَى الرَّبَائِثِ . وَأَلْغَيْنَا اتِّقَاءَ الْعَابِثِ وَالْعَائِثِ . وَلَمَّا عُكِمَتِ[12]

---

١ يومض : يشير ويومىء .

٢ لحظ وغض : نظر وكف بصر . استضعفنا الخبر : عددناه ضعيفاً .

٣ الخور : الضعف .

٤ الخبث : ما ينفيه الكير عن الحديد . جبت : أي قطعت .

٥ المقاحم ، جمع مقحمة : وهي الامور العظام . غنيت : استغنيت . خفير : مجير وحام .

٦ الجفير : جعبة السهام .

٧ البداوة : السير في البادية . السماوة : ماء بالبادية .

٨ أجدوا سعدي : أكثروا حظي .

٩ فمزقوا أدمي : قطعوا جلدي .

١٠ ألهمنا : ألقي في قلوبنا . نزعنا : كففنا .

١١ استهمنا : بمعنى تساهمنا أي اقترعنا . معادلته : مزاملته . فصمنا : قطعنا .

١٢ العرى ، جمع العروة : وهي العلاقة . الربائث ، جمع ربيثة ، من الربث : وهو الحبس والعوق. العابث : اللاعب . العائث : المفسد . عكمت : شدت .

الرِّحَالُ . وَأَزِفَ التَّرْحَالُ . اسْتَنْزَلْنَا كَلِمَاتِهِ الرَّاقِيَةَ . لِنَجْعَلَهَا[1] الوَاقِيَةَ البَاقِيَةَ . فَقَالَ : لِيَقْرَأْ كُلٌّ مِنْكُمْ أُمَّ القُرآنِ[2] . كُلَّمَا أَظَلَّ المَلَوَانِ[3] . ثُمَّ لِيَقُلْ بِلِسَانٍ خَاضِعٍ . وَصَوْتٍ خَاشِعٍ : اللَّهُمَّ يَا مُحْيِيَ الرُّفَاتِ . وَيَا دَافِعَ الآفَاتِ . وَيَا وَاقِيَ المَخَافَاتِ . وَيَا كَرِيمَ[4] المُكَافَاةِ . وَيَا مُؤَيِّلَ العُفَاةِ . وَيَا وَلِيَّ العَفْوِ وَالمُعَافَاةِ . صَلِّ عَلَى مُحَمَّدٍ خَاتَمِ أَنْبِيَائِكَ . وَمُبَلِّغِ أَنْبَائِكَ . وَعَلَى مَصَابِيحِ أُسْرَتِهِ . وَمَفَاتِيحِ نُصْرَتِهِ . وَأَعِذْنِي مِنْ نَزَغَاتِ الشَّيَاطِينِ . وَنَزَوَاتِ السَّلَاطِينِ .[6] وَإِحَنَاتِ البَاغِينَ . وَمُعَانَاةِ الطَّاغِينَ . وَمُعَادَاةِ العَادِينَ . وَعُدْوَانِ[7] المُعَادِينَ . وَخَلَبِ الغَالِبِينَ . وَسَلَبِ السَّالِبِينَ . وَحِيَلِ المُحْتَالِينَ . وَغِيَلِ المُغْتَالِينَ . وَأَجِرْنِي اللَّهُمَّ مِنْ جَوْرِ المُجَاوِرِينَ . وَمُجَاوَرَةِ[8] الجَائِرِينَ . وَكُفَّ عَنِّي أَكُفَّ الضَّائِمِينَ[9] . وَأَخْرِجْنِي مِنْ ظُلُمَاتِ الظَّالِمِينَ . وَأَدْخِلْنِي بِرَحْمَتِكَ فِي عِبَادِكَ الصَّالِحِينَ . اللَّهُمَّ حُطْنِي[10] فِي تُرْبَتِي . وَغُرْبَتِي . وَغَيْبَتِي . وَأَوْبَتِي . وَنُجْعَتِي . وَرَجْعَتِي . وَتَصَرُّفِي .[11]

---

١ استنزلنا : طلبنا منه . الراقية : من الرقية .

٢ أم القرآن : فاتحة الكتاب .

٣ أظل الملوان : دنا الليل والنهار .

٤ الآفات : المضرات . الواقي : من الوقاية : وهي الحفظ .

٥ موئل : مرجع وملجأ . العفاة : جمع العافي : وهو طالب العفو . المعافاة : مصدر عافاه الله .

٦ مفاتيح نصرته : الأنصار . أعذني : أجرني . نزغ الشيطان : أفسد وأغوى . نزوات : جمع نزوة ، من نزا ينزو : إذا وثب .

٧ الإحنات : الشدة . المعاقاة : المقاساة . الطاغين : المتجاوزين الحد في الظلم . العادين : المتعدين .

٨ الغيل : الاهلاك . المغتالين : المهلكين .

٩ أكف الضائمين : أيدي الظالمين المذلين .

١٠ حطني : احفظني .

١١ تربتي : بلدتي ووطني . النجعة : طلب الماء والكلإ . تصرفي : مشاغلي .

وَمُنْصَرَفِي . وَتَقَلُّبِي . وَمُنْقَلَبِي . وَاحْفَظْنِي فِي نَفْسِي . وَنَفَائِسِي . ١
وَعِرْضِي . وَعَرَضِي . وَعَدَدِي . وَعُدَدِي . وَسَكَنِي . وَمَسْكَنِي . ٢
وَحَوْلِي . وَحَالِي . وَمَالِي . وَمَآلِي . وَلَا تُلْحِقْ بِي تَغْبِيراً . وَلَا تُسَلِّطْ ٣
عَلَيَّ مُغِيراً ٤ . وَاجْعَلْ لِي مِنْ لَدُنْكَ سُلْطَاناً نَصِيراً . اللَّهُمَّ احْرُسْنِي
بِعَيْنِكَ . وَعَوِّنِّي . وَاخْصُصْنِي بِأُنْسِكَ . وَمَنِّكَ . وَتَوَلَّنِي بِاخْتِيَارِكَ ٥
وَخَيْرِكَ . وَلَا تَكِلْنِي إِلَى كِلَاءَةِ غَيْرِكَ . وَهَبْ لِي عَافِيَةً ٦ غَيْرَ
عَافِيَةٍ . وَارْزُقْنِي رَفَاهِيَةً غَيْرَ وَاهِيَةٍ . وَاكْنُفْنِي مَخَاشِيَ اللَّأْوَاءِ ٧ .
وَاكْنُفْنِي بِغَوَاشِي الآلَاءِ . وَلَا تُظْفِرْ بِي أَظْفَارَ الأَعْدَاءِ . إِنَّكَ ٨
سَمِيعُ الدُّعَاءِ . ثُمَّ أَطْرَقَ لَا يُدِيرُ لَحْظاً . وَلَا يُحِيرُ لَفْظاً . حَتَّى
قُلْنَا : قَدْ أَبْلَسَتْهُ خَشْيَةٌ . أَوْ أَخْرَسَتْهُ غَشْيَةٌ . ثُمَّ أَقْنَعَ رَأْسَهُ ٩
وَصَعَّدَ أَنْفَاسَهُ . وَقَالَ : أُقْسِمُ بِالسَّمَاءِ ذَاتِ الأَبْرَاجِ ١٠ . وَالأَرْضِ
ذَاتِ الفِجَاجِ . وَالمَاءِ الثَّجَّاجِ . وَالسِّرَاجِ الوَهَّاجِ . وَالبَحْرِ العَجَّاجِ . ١١
وَالهَوَاءِ وَالعَجَاجِ . إِنَّهَا لَمِنْ أَيْمَنِ العُوَذِ . وَأَغْنَى عَنْكُمْ مِنْ ١٢

---

١ منصرفي : انصرافي . منقلبي : انقلابي ورجوعي .
٢ العَرض : المال . السكن : الأهل .
٣ حولي : قوتي . مآلي : مصيري . تغيراً : سلباً بعد العطاء .
٤ مغيراً : من الاغارة .
٥ بعينك : بحفظك . تولني : كن لي ولياً .
٦ لا تكلني إلى كلاءة غيرك : لا تدعني إلى حفظ غيرك . عافية : سلامة .
٧ غير عافية : غير دارسة . الرفاهية : سعة العيش . واهية : ضعيفة . اللأواء : الشدة والضيق .
٨ اكنفني : احفظني في كنفك . الغواشي : ما يغطى به الشيء مثل غاشية السرج . الآلاء : النعم .
٩ الابلاس : السكوت . الخشية : الخوف . الغشية : غمرة الاغماء . أقنع رأسه : مد عنقه ورفع رأسه .
١٠ الأبراج : بروج الشمس .
١١ الفجاج : الطرق الواسعة . الثجاج : المتدفق . الوهاج : المضيء المتلألىء ، والمراد بالسراج الشمس .
١٢ العجاج : الغبار الثائر من الهواء . أيمن العوذ : أي أكثر العوذ بركة .

١٨٣

لابسي الخوذ . مَنْ درَسَها عندَ ابتسامِ الفلقِ[1] . لَمْ يُشْفِقْ مِنْ خَطْبٍ إلى الشَّفَقِ . وَمَنْ ناجَى بها طَلِيعَةَ الغَسَقِ . أمِنَ لَيْلَتَهُ مِنَ السَّرَقِ . قالَ : فتَلَقَّنَّاها حتى أتْقَنَّاها . وتَدارَسْناها لِكَيْ لا نَنْساها . ثُمَّ سِرْنا نُزْجِي الحُمُولاتِ . بالدَّعَواتِ لا بالحُداةِ . ونَحْمِي الحُمُولاتِ . بالكَلِماتِ لا بالكُماةِ . وَصاحِبُنا يَتَعَهَّدُنا بالعَشِيِّ والغَداةِ . ولا يَسْتَنْجِزُ مِنّا العِداتِ . حتى إذا عايَنّا أطْلالَ عانَةَ . قالَ لَنا : الإعانَةَ الإعانَةَ ! فأحْضَرْناهُ المَعْلُومَ والمَكْتُومَ . وأرَيْناهُ المَعْكُومَ والمَخْتُومَ . وقُلْنا لَهُ : اقْضِ ما أنْتَ قاضٍ . فَما تَجِدُ فِينا غَيْرَ راضٍ . فَما اسْتَخَفَّهُ سِوَى الحَقِّ والزَّيْنِ ولا حَلِيَ بِعَيْنِهِ غَيْرُ الحَلْيِ والعَيْنِ . فاحْتَمَلَ مِنْهُما وِقْرَهُ وَناءَ بِما يَسُدُّ فَقْرَهُ . ثُمَّ خالَسَنا مُخالَسَةَ الطَّرّارِ . وانْفَصَلَتْ

---

١ الخوذ، جمع خوذة : وهي البيضة من الحديد يلبسها الفارس في رأسه عند الحرب . درسها : قرأها . ابتسام الفلق : انبلاج الصبح .

٢ لم يشفق من خطب إلى الشفق : لم يخف من أمر عظيم إلى دخول الظلام . طليعة الغسق : أول دخول ظلمة الليل .

٣ نزجي : نسوق . الحمولات : الإبل التي يحمل عليها . الحداة : جمع حاد .

٤ الحُمولات : الأحمال . الكماة : جمع كمي : وهو الشجاع التام السلاح .

٥ لا يستنجز منا العدات : أي لا يطلب منا انجازها .

٦ عانة : موضع بقرب الفرات ينسب إليه الخمر . الاعانة الاعانة : اعينوني اعينوني .

٧ المعكوم : المتاع المشدود . المختوم : العين الذهب والفضة .

٨ استخفه : أطربه وحمله على الخفة والطيش . الخف : الشيء الخفيف من الحلي وشبهه . الزين : الحسن المستملح .

٩ الحلي والعين : المسكوك من الذهب والفضة . وقره : حمله .

١٠ خالسنا : خادعنا وهرب . الطرار : الذي يطر جيوب الناس أي يقطعها ويشقها . انصلت : مضى وسبق .

مِنّا انْصِلاتَ الفَرّارِ . فَأَوْحَشَنَا فِراقُهُ . وَأَدْهَشَنَا امْتِراقُهُ . وَلَمْ[1] نَزَلْ نَنْشُدُهُ بِكُلِّ نَادٍ . وَنَسْتَخْبِرُ عَنْهُ كُلَّ مُغْوٍ وَهَادٍ[2] . إلى أنْ قِيلَ : إنَّهُ مُذْ دَخَلَ عَالَةَ . مَا زَايَلَ الحَانَةَ . فَأَغْرَانِي خُبْثُ[3] هَذَا القَوْلِ بِسَبْكِهِ . وَالإِدْلاجِ فِيمَا لَسْتُ مِنْ سِلْكِهِ . فَادَّلَجْتُ[4] إلى الدَّسْكَرَةِ . فِي هَيْئَةٍ مُنْكَرَةٍ . فَإِذَا الشَّيْخُ فِي حُلَّةٍ مُمَصَّرَةٍ[5] . بَيْنَ دِنَانٍ وَمِعْصَرَةٍ . وَحَوْلَهُ سُقَاةٌ تَبْهَرُ[6] . وَشُمُوعٌ تَزْهَرُ . وَآسٌ وَعَبْهَرٌ . وَمِزْمَارٌ وَمِزْهَرٌ . وَهُوَ تَارَةً يَسْتَبْزِلُ الدِّنَانَ[7] . وَطَوْراً يَسْتَنْطِقُ العِيدَانَ . وَدَفْعَةً يَسْتَنْشِقُ الرَّيْحَانَ . وَأُخْرَى يُغَازِلُ الغِزْلانَ . فَلَمَّا عَثَرْتُ عَلَى لَبْسِهِ . وَتَفَاوُتِ يَوْمِهِ مِنْ[8] أَمْسِهِ . قُلْتُ : أَوْلَى لَكَ يَا مَلْعُونُ . أَأَنْسِيتَ يَوْمَ جَيْرُونَ ؟[9] فَضَحِكَ مُسْتَغْرِباً . ثُمَّ أَنْشَدَ مُطَرِّباً[10] :

لَزِمْتُ السِّفَارَ وَجُبْتُ القِفَارَ وَعِفْتُ النِّفَارَ لأَجْنِي الفَرَحْ[11]

---

١ الفرّار : كثير الفرار . امتراقه : خروجه بسرعة .

٢ مغو : مضل ، ضد الهادي .

٣ الحانة : حانوت الخمّار وبيته . أغراني : أوقعني .

٤ بسبكه : بتجربته . سلكه : أي من جنسه . الادلاج : السير في آخر الليل .

٥ الدسكرة : علم على البلد . ممصرة : أي ملونة بالحمرة والورس .

٦ تبهر : تغلب في الحسن وتضيء .

٧ آس : نبت عطر معروف . عبهر : نرجس أو ياسمين . المزهر : عود الغناء . يستبزل الدنان ، من بزل الطين عن رأس الدن : إذا رفعه عنه .

٨ يغازل : يلاعب . الغزلان ، جمع غزال : كناية عن الغلمان والنساء الحسان . لبسه : تخليطه وتعمية أمره .

٩ أولى لك : كلمة تهديد أي ويل لك وهو دعاء عليه . جيرون : الشام .

١٠ مطرباً : أي مغنياً .

١١ السفار : السفر ، جبت القفار : قطعت الأماكن الخالية . عفت النفار : كرهت البعد والفرار عنكم .

وَخُضْتُ السُّيولَ وَرُضْتُ الخيولَ لِجَرِّ ذُيُولِ الصِّبَى وَالمَرَحْ[1]

وَمِطْتُ الوَقَارَ وَبِعْتُ العَقَارَ لِحَسْوِ العُقَارِ وَرَشْفِ القَدَحْ[2]

وَلَوْلَا الطِّمَاحُ إِلَى شُرْبِ رَاحٍ لَمَا كَانَ بَاحَ فَمِي بِاللَّمَحْ[3]

وَلَا كَانَ سَاقَ دَهَائِي الرِّفَاقَ لِأَرْضِ العِرَاقِ بِحَمْلِ السُّبَحْ[4]

فَلَا تَغْضَبَنَّ وَلَا تَصْخَبَنَّ وَلَا تَعْتُبَنَّ فَعُذْرِي وَضَحْ

وَلَا تَعْجَبَنَّ لِشَيْخٍ أَبَنَّ بِمَغْنًى أَغَنَّ وَدَنٍّ طَفَحْ[5]

فَإِنَّ المُدَامَ تُقَوِّي العِظَامَ وَتَشْفِي السَّقَامَ وَتَنْفِي التَّرَحْ[6]

وَأَصْفَى السُّرُورِ إِذَا مَا الوَقُورُ أَمَاطَ سُتُورَ الحَيَا وَاطَّرَحْ[7]

وَأَحْلَى الغَرَامِ إِذَا المُسْتَهَامُ أَزَالَ اكْتِتَامَ الهَوَى وَافْتَضَحْ[8]

فَبُحْ بِهَوَاكَ وَبَرِّدْ حَشَاكَ فَزَنْدُ أَسَاكَ بِهِ قَدْ قَدَحْ[9]

وَدَاوِ الكُلُومَ وَسُلَّ الهُمُومَ بِبِنْتِ الكُرُومِ الَّتِي تُقْتَرَحْ[10]

---

١ رضت الخيول : أي ركبتها وذللتها . لجر ذيول الصبى والمرح : أي لأجل الاتصاف بالصبى والنشاط والطرب .

٢ مطت الوقار : أزلت ونزعت السكينة . العقار ، بالفتح : الأرض والضياع ، وبالضم : الخمر

٣ الطماح والطموح : شدة النظر وشخوصه . الراح : من أسماء الخمر . اللمح : جمع ملحة : وهو يستملح من الكلام .

٤ ساق : من السوق .

٥ أبنّ : أقام . بمغنى : بمنزل . أغنّ : مخصب ، وروضة غناء كثيرة العشب .

٦ المدام : من أسماء الخمر . الترح : الحزن .

٧ أماط : أزال وأبعد .

٨ الغرام : العشق . المستهام : العاشق الهائم ذاهب القلب . أزال اكتتام الهوى : باح باسم من يهوا

٩ حشاك : قلبك . الزند : هو الذي يقتدح به النار . أساك : حزنك وملالتك .

١٠ الكلوم : الجراح . تقترح : أي تسأل وتشتهى .

وَخُصَّ الغَبُوقَ بِسَاقٍ يَسُوقُ بَلاءَ المَشُوقِ إِذَا مَا طَمَحْ[1]
وَشَادٍ يُشِيدُ بِصَوْتٍ تَمِيدُ جِبَالُ الحَدِيدِ لَهُ إِنْ صَدَحْ
وَعَاصِ النَّصِيحَ الَّذِي لا يُبِيحُ وِصَالَ المَلِيحِ إِذَا مَا سَمَحْ[2]
وَجُلْ فِي المِحَالِ وَلَوْ بِالمُحَالِ وَدَعْ مَا يُقَالُ وَخُذْ مَا صَلَحْ[3]
وَفَارِقْ أَبَاكَ إِذَا مَا أَبَاكَ وَمُدَّ الشِّبَاكَ وَصِدْ مَنْ سَنَحْ[4]
وَصَافِ الخَلِيلَ وَنَافِ البَخِيلَ وَأَوْلِ الجَمِيلَ وَوَالِ المِنَحْ[5]
وَلُذْ بِالمَتَابِ أَمَامَ الذَّهَابِ فَمَنْ دَقَّ بَابَ كَرِيمٍ فَتَحْ[6]

فَقُلْتُ لَهُ : بَخٍ بَخٍ لِرِوَايَتِكَ . وَأُفٍّ وَتُفٍّ لِغَوَايَتِكَ ![7] فَبِاللهِ مِنْ أَيِّ الأَعْيَاصِ عِيصُكَ . فَقَدْ أَعْضَلَنِي عَوِيصُكَ ؟ فَقَالَ[8] : مَا أُحِبُّ أَنْ أُفْصِحَ عَنِّي . وَلَكِنْ سَأُكَنِّي[9] :

أَنَا أُطْرُوفَةُ الزَّمَـا نِ وَأُعْجُوبَةُ الأُمَمْ
وَأَنَا الحُوَّلُ الَّذِي احْ تَالَ فِي العُرْبِ وَالعَجَمْ[10]

---

١ الغبوق : هو شراب أول الليل . يسوق : أي يطرد . المشوق : هو العاشق الكثير الشوق .
٢ عاص النصيح : أي خالف الناصح .
٣ المحال، بالكسر : المكر والخديعة . المحال ، بالضم : الباطل الذي لا يتصور في العقل وجوده .
٤ أباك : كرهك ولم يردك . سنح : عرض وأقبل .
٥ ناف : ابعد . أولِ الجميل : اعط العطاء الجميل . ووال : وتابع . المنح ، جمع المنحة : وهي العطية .
٦ ولذ بالمتاب : التجىء إلى التوبة . أمام الذهاب : قبل الموت .
٧ بخ بخ : كلمة تقال عند استحسان الشيء مكررة . أف وتف : كلمتان يقولهما المتكره من الشيء المستقذر له . لغوايتك : لضلالتك .
٨ الأعياص : الأصل في النسب . أعضلني : أعياني . عويصك : صعب أمرك وغامضه .
٩ أكني : اخبر بالكناية عني .
١٠ الحوّل : الكثير الحيلة .

غَيرَ أنّي ابنُ حَـــاجَةٍ هَاضَهُ الدَّهْرُ فَاهتَضَمْ[1]

وَأَبُو صِبْيَةٍ بَـــدَوْا مِثْلَ لَحْمٍ عَلَى وَضَمْ[2]

وَأَخُـــو العَيْلَةِ المُعِيـ ـلُ إِذَا احْتَالَ لَمْ يُلَمْ

قَالَ الرَّاوِي: فَعَرَفْتُ حِينَئِذٍ أَنَّهُ أَبُو زَيْدٍ ذُو الرَّيْبِ[3] وَالعَيْبِ، وَمُسَوِّدُ وَجْهِ الشَّيْبِ. وَسَاءَنِي عِظَمُ تَمَرُّدِهِ. وَقُبْحُ تَوَرُّدِهِ.[4] فَقُلْتُ لَهُ بِلِسَانِ الأُنْفَةِ. وَإِدْلَالِ المَعْرِفَـــةِ: أَلَمْ يَأْنِ لَكَ يَا شَيْخَنَا. أَنْ تُقْلِعَ عَنِ الخَنَا؟ فَتَضَجَّرَ وَزَمْجَرَ. وَتَنَكَّرَ وَقَطَّبَ. ثُمَّ قَالَ: إِنَّهَا لَيْلَةُ مِرَاحٍ لا تَلَاحٍ. وَتُهْزَةُ شُرْبِ رَاحٍ لا كِفَاحٍ. فَعَدَّ عَمَّا بَدَا. إِلَى أَنْ نَتَلَاقَى غَدَاً. فَفَارَقْتُهُ فَرَقاً[5] مِنْ عَرْبَدَتِهِ. لا تَعَلُّقاً بِعِدَتِهِ. وَبِتُّ لَيْلَتِي لابِساً حِدَادَ النَّدَمِ. عَلَى نَقْلِي خُطَى القَدَمِ. إِلَى ابْنَةِ الكَرْمِ لا الكَرَمِ. وَعَاهَدْتُ اللهَ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى أَنْ لا أَحْضُرَ بَعْدَهَا حَانَةَ نَبَّاذٍ. وَلَوْ أُعْطِيتُ[6] مُلْكَ بَغْدَاذٍ[10]. وَأَنْ لا أَشْهَدَ مَعْصَرَةَ الشَّرَابِ. وَلَوْ رُدَّ عَلَيَّ عَصْرُ الشَّبَابِ. ثُمَّ إِنَّنَا رَحَلْنَا العِيسَ. وَقْتَ التَّغْلِيسِ. وَحَلَلْنَا[11] بَيْنَ الشَّيْخَيْنِ أَبِي زَيْدٍ وَإِبْلِيسَ.

---

١ ابن حاجة : طالب حاجة . هاضه : ظلمه وكسره . اهتضم : أي ذلك ونقص .

٢ الوضم : كل شيء وضع عليه اللحم .

٣ الريب : الشك .

٤ مسود وجه الشيب : يعني أنه خضب لحيته بالسواد لأجل التدليس. قبح تورده : وروده في مناهل المخازي.

٥ الإدلال : الجرأة مع الغنج .

٦ الخنا : الفحش . زمجر : صاح . تنكر : غير حاله .

٧ مراح : طرب . تلاح : تنازع وتشاتم . تهزة : أي فرصة .

٨ فعد : أي عد نفسك واصرف بصرك . فرقاً ، بالتحريك ، أي خوفاً .

٩ حانة نباذ : بيت خمار .

١٠ بغداذ : لغة في بغداد .

١١ العيس : الإبل البيض . التغليس : السير وقت الغلس وهو ظلمة آخر الليل .

المقامة البغدادية

رَوَى الحَارِثُ بنُ هَمَّامٍ قَالَ : نَدَوْتُ بِضَوَاحِي الزَّوْرَاءِ . مَعَ[1] مَشْيَخَةٍ مِنَ الشُّعَرَاءِ . لا يَعْلَقُ لَهُمْ مُبَارٍ بِغُبَارٍ . وَلا يَجْرِي[2] مَعَهُمْ مُمَارٍ فِي مِضْمَارٍ . فَأَفَضْنَا فِي حَدِيثٍ يَفْضَحُ الأَزْهَارَ . إِلَى[3] أَنْ نَصَفْنَا النَّهَارَ . فَلَمَّا غَاضَ دَرُّ الأَفْكَارِ . وَصَبَتْ[4] النُّفُوسُ إِلَى الأَوْكَارِ . لَمَحْنَا حَجُوزاً تُقْبِلُ مِنَ البُعْدِ . وَتُحْضِرُ إِحْضَارَ الجُرْدِ . وَقَدِ اسْتَتْلَتْ صِبْيَةً أَنْحَفَ مِنَ المَغَازِلِ . وَأَضْعَفَ مِنَ[5] الحَوَازِلِ . فَمَا كَذَّبَتْ إِذْ رَأَتْنَا . أَنْ عَرَتْنَا . حَتَّى إِذَا مَا حَضَرَتْنَا .[6] قَالَتْ : حَيَّا اللهُ المَعَارِفَ[7] . وَإِنْ لَمْ يَكُنَّ مَعَارِفَ . إِعْلَمُوا يَا مَآلَ الآمِلِ . وَثِمَالَ الأَرَامِلِ . أَنِّي مِنْ سَرَوَاتِ القَبَائِلِ .[8] وَسَرِيَّاتِ العَقَائِلِ . لَمْ يَزَلْ أَهْلِي وَبَعْلِي يَحْلُونَ الصَّدْرَ . وَيَسِيرُونَ[9] القَلْبَ . وَيُمْطُونَ الظَّهْرَ . وَيُوَلُونَ اليَدَ . فَلَمَّا أَرْدَى الدَّهْرُ[10]

---

١ ندوت : أقمت بالنادي ، وهو المجلس . الزوراء : اسم دجلة ببغداد .

٢ يعلق : يلصق . مبار : معارض .

٣ مار ، من المماراة : وهي المجادلة . مضمار : ميدان السباق .

٤ صبت : مالت .

٥ تحضر إحضار الجرد : تعدو عدو الجرد ، وهي الخيل القصار الشعور . استتلت : استتبعت .

٦ الحوازل ، جمع حوزل : وهو فرخ الحمامة . عرتنا : قصدتنا .

٧ المعارف ، جمع معروف : وهو الوجه .

٨ مآل الآمل : ملجأ الراجي . الثمال : من يعول عليه . السروات : ذوو المروءة .

٩ السرية : الرفيعة القدر . العقيلة : الكريمة الجيدة .

١٠ يسيرون القلب : وسط المركب . يولون اليد : يعطون النعمة . أردى : أهلك .

١٨٩

الأعضادَ . وفَجَعَ بالجوارحِ الأكبادَ . وانقلبَ ظهراً لبطنٍ [1] . نبا الناظرُ . وجفا الحاجبُ . وذهبتِ العينُ . وفُقِدَتِ الراحةُ . وصلدَ الزندُ . ووهنتِ اليمينُ . وضاعَ اليسارُ . وبانتِ المرافقُ [2] . ولَمْ يبقَ لنا ثنيةٌ ولا نابٌ . فمُذْ اغبرَّ العيشُ الأخضرُ . وازورَّ المحبوبُ الأصفرُ [3] . اسودَّ يومي الأبيضُ . وابيضَّ قتودي الأسودُ [4] . حتى رثى لي العدوُّ الأزرقُ [5] . فتبّدا الموتُ الأحمرُ ! وتلوي من ترونَ عينُه فرارُه [6] . وترجمانُه اصفرارُه . فصوى بغيةِ أحدهم [7] ثُرْدةٌ . وقصارى أمنيتِه بُرْدةٌ . وكنتُ آليتُ أنْ لا أبذلَ الحرَّ [8] إلا للحرِّ . ولو أني متُّ من الضرِّ . وقد ناجتني القرونةُ [9] . بأنْ تُوجدَ عندكمُ المعونةُ . وآذنتني فراسةُ الحوباءِ [10] . بأنكمُ ينابيعُ الحياءِ . فنضّرَ اللهُ امرأً أبرَّ قسمي . وصدّقَ توسّمي [11] . ونظرَ إليَّ بعينٍ يقذيها الجمودُ . ويقذيها الجودُ . قالَ الحارثُ [12]

---

١ الأعضاد : الأعوان . جوارح الانسان : أعضاؤه التي يكتسب بها ، يريد الأولاد والخدم . ظهراً لبطن : كناية عن تحول الأمر .

٢ نبا الناظر : أي تجافى وتباعد . الحاجب : الخادم . العين : الذهب .

٣ صلد الزند : كناية عن الخيبة . باتت : فارقت . المرافق : ما يرتفق به .

٤ الثنية : القنية من النوق ، والناب : المسنة . العيش الأخضر : كناية عن المعيشة الطيبة ازورّ : مال وانقبض .

٥ المحبوب الأصفر : الذهب . ابيضّ : شاب . القتود : جانب الرأس .

٦ العدو الأزرق : شديد العداوة . الموت الأحمر : الشديد وهو أن يقتل بالسيف . تلوي : تابعي .

٧ عينه فراره : مثل يضرب لمن يدل ظاهره على باطنه فيغني عن الاختبار . ترجمانه : تبيانه أي مبينه .

٨ الحر : ماء الوجه .

٩ الحر : الكريم . القرونة : النفس .

١٠ فراسة الحوباء : حدس النفس .

١١ الحياء : العطاء . أبرّ قسمي : حفظ حلفي من الحنث . توسمي : ما توسمت فيكم وظننته .

١٢ الجمود : يريد به البخل . يقذيها : يزيل قذاها .

فَغِيضَتْ مِنْهُمْ صُرُوفُ الرَّدَى ... بِحَارَ جُودٍ لَمْ نَخَلْهَا تَغِيضْ[1]

وَأُودِعَتْ مِنْهُمْ بُطُونُ الثَّرَى ... أَسْدَ التَّحَامِي وَأُسَاةَ المَرِيضْ[2]

فَمَحْمَلِي بَعْدَ المَطَايَا المَطَا ... وَمَوْطِنِي بَعْدَ اليَفَاعِ الحَضِيضْ[3]

وَأَفْرُخِي مَا تَأْتَلِي تَشْتَكِي ... بُؤْسًا لَهُ فِي كُلِّ يَوْمٍ وَمِيضْ[4]

إِذَا دَعَا القَانِتُ فِي لَيْلِهِ ... مَوْلَاهُ نَادَوْهُ بِدَمْعٍ يَفِيضْ[5]

يَا رَازِقَ النَّعْـــابِ فِي عُشِّهِ ... وَجَابِرَ العَظْمِ الكَسِيرِ المَهِيضْ[6]

أَتِحْ لَنَا اللَّهُمَّ مَنْ عِرْضُهُ ... مِنْ دَنَسِ الذَّمِّ نَقِيٌّ رَحِيضْ[7]

يُطْفِيءُ نَارَ الجُوعِ عَنَّا وَلَوْ ... بِمَذْقَةٍ مِنْ حَازِرٍ أَوْ مَخِيضْ[8]

فَهَلْ فَتًى يَكْشِفُ مَا نَابَهُمْ ... وَيَغْنَمُ الشُّكْرَ الطَّوِيلَ العَرِيضْ[9]

فَوَالَّذِي تَعْنُو النَّوَاصِي لَـــهُ ... يَوْمَ وُجُوهُ الجَمْعِ سُودٌ وَبِيضْ[10]

لَوْلَاهُمُ لَمْ تَبْدُ لِي صَفْحَةٌ ... وَلَا تَصَدَّيْتُ لِنَظْمِ القَرِيضْ[11]

---

١ فغيضت : نقصت وأفنت .

٢ أسد التحامي : الذين يتحامى فيهم . أساة ، جمع آس : وهو الطبيب .

٣ محملي : موضع حملي . المطايا : التوق التي تركب . المطا : الظهر . اليفاع : العالي من الأرض.

٤ أفرخي : أولادي . وميض : لمعان ، والمراد هنا الظهور .

٥ القانت : العابد .

٦ النعاب : فرخ الغراب . المهيض : التي ينكسر بعد جبره .

٧ أتح لنا : قدر لنا . رحيض : مغسول طاهر .

٨ المذقة : اللبن فيه ماء . حازر : لبن حامض .

٩ نابهم : أصابهم .

١٠ تعنو : تخضع وتذل . النواصي : جمع ناصية : وهي مقدم الرأس ، والمراد أهلها ، والنواصي أيضاً : الأشراف . يوم وجوه الجمع سود وبيض : يوم القيامة .

١١ لولاهم لم تبد لي صفحة : أي لولا هؤلاء الصبية الجياع لم تظهر لي صفحة وجه .

ابنُ هَمّامٍ : فَهِمْنَا لِبَرَاعَةِ عِبَارَتِهَا[1]. وَمُلَحِ اسْتِعَارَتِهَا . وَقُلْنَا لَهَا : قَدْ فَتَنَ كَلامُكِ . فَكَيْفَ إِلْحَامُكِ[2] ؟ فَقَالَتْ : أَفْجَرُ الصَّخْرَ . وَلا فَخْرَ ! فَقُلْنَا : إِنْ جَعَلْتِنَا مِنْ رُوَاتِكِ[3] . لَمْ نَبْخَلْ بِمُؤَاسَاتِكِ . فَقَالَتْ : لأُرِيَنَّكُمْ أَوَّلاً شِعَارِي[4] . ثُمَّ لأُرَوِّيَنَّكُمْ أَشْعَارِي . فَأَبْرَزَتْ رُدُنَ دِرْعٍ دَرِيسٍ . وَبَرَزَتْ بِرْزَةَ عَجُوزٍ دَرْدَبِيسٍ[6] . وَأَنْشَأَتْ تَقُولُ :

أَشْكُو إِلَى اللهِ اشْتِكَاءَ المَرِيضْ ... رَيْبَ الزَّمَانِ المُتَعَدِّي البَغِيضْ[7]

يَا قَوْمُ إِنِّي مِنْ أُنَاسٍ غَنُوا ... دَهْراً وَجَفْنُ الدَّهْرِ عَنْهُمْ غَضِيضْ[8]

فَخَارُهُمْ لَيْسَ لَهُ دَافِعٌ ... وَصِيتُهُمْ بَيْنَ الوَرَى مُسْتَفِيضْ[9]

كَانُوا إِذَا مَا نُجْعَةٌ أَعْوَزَتْ ... فِي السَّنَةِ الشَّهْبَاءِ رَوْضاً أَرِيضْ[10]

تُشَبُّ لِلسَّارِينَ نِيرَانُهُمْ ... وَيُطْعِمُونَ الضَّيْفَ لَحْماً غَرِيضْ[11]

مَا بَاتَ جَارٌ لَهُمُ سَاغِباً ... وَلا لِرَوْعٍ قَالَ حَالَ الحَرِيضْ[12]

---

١ همنا لبراعة عبارتها : أي هامت قلوبنا وتحيرت لفصاحة كلامها ومحاسن نظامها .

٢ إلحامك : نظمك للشعر .

٣ رواتك : الراوين لشعرك .

٤ شعاري : ثوبي الذي يلي جسدي .

٥ أبرزت ردن درع دريس : أظهرت كمّ قميص بال .

٦ دردبيس : مسنة ذات مكر ودهاء .

٧ المتعدي : المتجاوز الحد .

٨ غنوا : أي أقاموا وعاشوا .

٩ مستفيض : شائع ذائع .

١٠ نجعة : مرعى خصب . السنة الشهباء : هي التي لا خضرة فيها أو لا مطر . أريض : حسن النبات .

١١ غريض : طري .

١٢ ساغباً : جائعاً . لروع : لفزع وخوف . الحريض : القصة ، يقال في المثل : حال الحريض دون القريض .

قَالَ الرَّاوِي : فَوَاللهِ لَقَدْ صَدَّعَتْ بِأَبْيَاتِهَا أَعْشَارَ القُلُوبِ[1] . وَاسْتَخْرَجَتْ خَبَايَا الجُيُوبِ . حَتَّى مَاحَهَا مَنْ دِينُهُ الامْتِنَاحُ[2] . وَارْتَاحَ لِرِفْدِهَا مَنْ لَمْ نَخَلْهُ يَرْتَاحُ . فَلَمَّا افْعَوْعَمَ جَيْبُهَا[3] تِبْرًا . وَأَوْلاهَا كُلٌّ مِنَّا بِرًّا . تَوَلَّتْ يَتْلُوهَا الأَصَاغِرُ . وَفُوهَا[4] بِالشُّكْرِ فَاغِرٌ . فَاشْرَأَبَّتِ الجَمَاعَةُ بَعْدَ مَمَرِّهَا . إِلَى سَبْرِهَا[5] لِتَبْلُوَ مَوَاقِعَ بِرِّهَا . فَكَفَلَتْ لَهُمْ بِاسْتِنْبَاطِ السِّرِّ المَرْمُوزِ[6] . وَنَهَضْتُ أَقْفُو أَثَرَ العَجُوزِ . حَتَّى انْتَهَتْ إِلَى سُوقٍ مُخْتَصَّةٍ بِالأَنَامِ . مُخْتَصَّةٍ بِالزِّحَامِ . فَانْغَمَسَتْ فِي الغُمَارِ . وَامْلَسَّتْ مِنَ الصُّبَّةِ[7] الأَغْمَارِ . ثُمَّ عَاجَتْ بِخُلُوٍّ بَالٍ . إِلَى مَسْجِدٍ خَالٍ . فَأَمَاطَتْ[8] الجِلْبَابَ . وَنَضَتِ النِّقَابَ . وَأَنَا أَلْمَحُهَا مِنْ خَصَاصِ البَابِ . وَأَرْقُبُ[9] مَا سَتُبْدِي مِنَ العُجَابِ . فَلَمَّا انْسَرَتْ أُهْبَةُ الخَفَرِ . رَأَيْتُ مُحَيَّا[10] أَبِي زَيْدٍ قَدْ سَفَرَ[11] . فَهَمَمْتُ أَنْ أَهْجُمَ عَلَيْهِ . لأُعَنِّفَهُ عَلَى مَا أَجْرَى إِلَيْهِ . فَاسْلَنْقَى اسْلِنْقَاءَ المُتَمَرِّدِينَ . ثُمَّ رَفَعَ عَقِيرَةً[12]

---

١ أعشار القلوب : أجزاءها .

٢ خبايا الجيوب : كناية عما يعطى من الدراهم . ماحها من دينه الامتناح : اعطاها من عادته طلب العطاء .

٣ لرفدها : لعطائها . افعوعم : امتلأ جداً .

٤ برّاً : احساناً . يتلوها الأصاغر : يتبعها الأولاد .

٥ بالشكر فاغر : مفتوح بالشكر . سبرها : اختبارها .

٦ لتبلو : لتختبر . مواقع برها : مواضع صلتها .

٧ فانغمست : فدخلت . الغمار : جماعات الناس . املست : تخلصت وانفلتت .

٨ الأغمار : الجهال . فأماطت : فأزالت .

٩ الجلباب : الملحفة . نضت النقاب : كشفت البرقع . خصاص الباب : شقوقه .

١٠ انسرت : انكشفت . اهبة الخفر : هيئة الحياء والمراد بها النقاب .

١١ سفر : ظهر وانكشف .

١٢ جرى إليه وأجرى إليه : قصده . فاسلنقى : فاستلقى . العقيرة : الصوت .

المُغَرِّدِينَ . وَانْدَفَعَ يُنْشِدُ :

يَا لَيْتَ شِعْرِي أَدَهْرِي أَحَاطَ عِلْماً بِقَدْرِي ؟
وَهَلْ دَرَى كُنْهَ غَوْرِي فِي الخَدْعِ أَمْ لَبْسِ بَدْرِي ؟[1]
كَمْ قَدْ قَمَرْتُ بَنِيهِ بِحِيلَتِي وَبِمَكْرِي[2]
وَكَمْ بَرَزْتُ بِعُرْفٍ عَلَيْهِمِ وَبِنُكْرِ[3]
أَصْطَادُ قَوْماً بِوَعْظٍ وَآخَرِينَ بِشِعْرِ
وَأَسْتَفِزُّ بِخَلٍّ عَقْلاً وَعَقْلاً بِخَمْرِ[4]
وَتَارَةً أَنَا صَخْرٌ وَتَارَةً أُخْتُ صَخْرِ[5]
وَلَوْ سَلَكْتُ سَبِيلاً مَأْلُوفَةً طُولَ عُمْرِي
لَخَابَ قِدْحِي وَقَدْحِي وَدَامَ عُسْرِي وَخُسْرِي[6]
فَقُلْ لِمَنْ لَامَ : هَذَا عُذْرِي فَدُونَكَ عُذْرِي

---

١ كنه غوري : غاية عمق عقلي .

٢ قمرت بنيه : غلبت بالقمار أهله .

٣ العرف : من المعروف ضد النكر .

٤ أستفز بخل عقلا : استخف عقلا بخل ، وهو كناية عن الخير والحق ، وأستفز عقلا بخمر : وهو كناية عن الشر والباطل .

٥ صخر : هو ابن عمرو بن الشريد السلمي وأخته الخنساء الشاعرة المشهورة ، يريد انه يظهر مرة بزي الرجال ومرة بزي النساء .

٦ لخاب قِدحي : لخسر سهمي ؛ والقِدح : أحد سهام الميسر التي كانوا يتقامرون بها على الجزور . القَدح : مصدر قدح الزند إذا ضربه على الزندة ليخرج النار .

قَالَ الحَارِثُ بنُ هَمَّامٍ : فَلَمَّا ظَهَرْتُ عَلَى جَلِيَّةِ أَمْرِهِ[1] وَبَدِيعَةِ إِمْرِهِ . وَمَا زَخْرَفَ[2] فِي شِعْرِهِ مِنْ عُذْرِهِ . عَلِمْتُ أَنَّ شَيْطَانَهُ المَرِيدَ[3] . لا يَسْمَعُ التَّفْنِيدَ . وَلا يَفْعَلُ إِلاَّ مَا يُرِيدُ . فَثَنَيْتُ[4] إِلَى أَصْحَابِي عِنَانِي . وَأَبْشَتُّهُمْ[5] مَا أَنْبَتَهُ عِيَانِي . فَوَجَسُوا لِضَيْعَةِ الجَوَائِزِ . وَتَعَاهَدُوا عَلَى مَحْرَمَةِ العَجَائِزِ .

---

١ جلية أمره : حقيقة حاله .

٢ الإمر : الشيء العجيب . زخرف : حسّن وزيّن .

٣ المريد : العاتي الخبيث . التفنيد : اللوم والتوبيخ .

٤ ثنيت : عطفت . العنان : مقود الدابة . أبشتهم : أخبرتهم وشرحت لهم .

٥ محرمة : حرمان .

بعد قراءتك للمقامات، حدد العناصر الآتية:

المقامة الإسكندرية

شخصيات المقامة:

الزمان:

المكان:

الأحداث:

المغزى:

المقامة الدمشقية

شخصيات المقامة:

الزمان:

المكان:

الأحداث:

المغزى:

المقامة البغدادية

شخصيات المقامة:

الزمان:

المكان:

الأحداث:

المغزى:

المعاني، وروعة التصوير، وسلاسة العبارات، ولذا فهي غُرر الشعر في العصر العباسي.